آلان مابانكو

أضواء الرأس الأسود

رواية

ترجمة: عادل أسعد الميري

آلان مابانكو

أضواء الرأس الأسود

رواية

ترجمة: عادل أسعد الميري

أضواء الرأس الأسود

آلان مابانكو

◆ المؤلف: آلان مابانكو
◆ العنوان : أضواء الرأس الأسود
◆ ترجمة: عادل أسعد الميري
◆ الطبعة: الأولى 2022
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٥٦٢١ / ٢٠٢١
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977 - 765 - 311 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

آلان مابانكو

أضواء الرأس الأسود

رواية

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

مابانكو، آلان.

آلان مابانكو : أضواء الرأس الأسود

ترجمة: عادل أسعد الميري

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2022

304 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 25621 / 2021

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 311 – 4

1 – الأدباء (روايات)

2 – مابانكو، آلان

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français.

حظي هذا العمل بدعم من برنامج دعم النشر الخاص بالمعهد الفرنسي.

INSTITUT FRANÇAIS
Egypte

Alain Mabanckou

LUMIÈRES DE POINTE-NOIRE

©Éditions du Seuil, Janvier 2013

ملحوظات هامة:

1- للتعبير عن العمّ ،*oncle* واحدة من مشكلات اللغة الفرنسية، هي استعمال لفظ واحد هو لفظ والخال في نفس الوقت. لذلك أعتذر عن استعمال أحد اللفظين العربيين في مكان اللفظ الآخر، فالمؤلّف عندما يقول (أونكل) أنت لا تعرف إن كان يتحدّث عن عمّه أو يتحدّث عن خاله.

2- الأسماء التي تنتهي في الفرنسية بحرف التاء مثل (ألبرت) و(جيلبرت)، لا تنطق فيها التاء وفقًا للنطق الفرنسي، فتصبح (ألبير) و(جيلبر)، في حين أن نطق هذه الأسماء بالإنجليزية يسمح بنطق حرف التاء في نهاياتها.

3- يمكن أن *Helene* في الأسماء الفرنسية غالبًا لا ينطق، ولذلك فإن اسم الجدّة H حرف الهاء يُنطق (إيلينا) بالفرنسية أو (هيلينا) باللغات الأخرى.

4- الصديقة الفرنسية التي صاحبت المؤلّف في رحلته عائدًا إلى مدينة مسقط رأسه، بعد غياب عنها دام ثلاثة وعشرين عامًا، لم نعرف لها اسمًا، بل كان المؤلّف يصفها أحيانًا بالمرأة البيضاء، وبالصديقة الفرنسية، وبرفيقة الرحلة، أو رفيقة درب الحياة، وهذا الوصف يسمح بالقول بأنها كانت شريكة حياة لكن دون عقد زواج، وهو نظام معروف في فرنسا بالرفقة *concubinage*.

5- أغلب عناوين الفصول مأخوذة من أسماء روايات فرنسية مثل (فخر أبي) و(قصر أمي) لمارسيل بانيول، أو روايات عالمية مثل (الحرب والسلام) لتولستوي، أو من أسماء أفلام فرنسية مثل (الليالي الوحشية) أو (أطفال الجنّة)، أو أسماء أفلام عالمية مثل (سينما باراديزو) أو (لقاءات مع النوع الثالث) أو (من أجل حفنة دولارات) أو (دائرة الشعراء المختفين) أو (الفكّ المفترس).

(1)

سيّدة المعجزات

بقيت فترة طويلة أترك الناس يعتقدون أن أمي لا تزال باقية على قيد الحياة. لكنني الآن أبذل أقصى ما في وسعي لبيان الحقيقة، على أمل التخلّص من وطأة هذه الكذبة، التي سمحت لي حتى وقت متأخّر من حياتي، بتأجيل إعلان الحداد على أمي. لا تزال هناك على وجهي آثار التئام جروح رحيل أمي، حتى لو تمكّنت أحيانًا من تغطية هذه الجروح بطبقة من السعادة المزيّفة، إذ تعود أحزان الفقد إلى الطفو على سطح الوجه، عندما أكون في منتصف فرقعة ضحكة عالية النبرة، فتقطعها فجأة صورة ملامح وجه وجسد هذه المرأة أمي، التي لم أرها وهي تتقدّم في السنّ، ولم أرها وهي تموت، ولكني أراها أحيانًا في بعض أكثر كوابيسي تعذيبًا لي وأنا أناديها، وهي تدير ظهرها لي لتخفي عنّي دموعها.

في أي بلد أكون فيه، أنصت إلى مواء قطّة في الليل، أو إلى صوت نباح مجموعة من الكلاب، أرفع رأسي نحو السماء وأتذكّر إحدى أساطير طفولتي، أسطورة تلك المرأة العجوز، التي نظنّ أننا نلمحها داخل قرص القمر الكامل الاستدارة، وهي تحمل سلّة ثقيلة فوق رأسها. نحن الأطفال كنّا نشير إليها بطرف الأنف، مع رفع الذقن قليلًا إلى أعلى. كنّا مقتنعين تمامًا بأنه لا يصحّ إطلاقا أن نشير إليها بالأصابع، أو أن يصدر عنّا أي صوت يشتبه في كونه نداءً لها، لاعتقادنا بأن مَن يفعل هذا سيستيقظ صباح اليوم التالي وقد أصيب بالصمم أو بالعمى أو بداء الفيل أو بداء الجذام.

كنا مع ذلك ندرك أن تلك المرأة القادرة على الإتيان بمثل هذه المعجزات، لم تكن في نيّتها مطلقًا مسألة إيذاء الأطفال، وأن تلك الأمراض الخطيرة التي تستطيع أن تصيب بها الناس ذوي الأعين التي تتجسّس عليها، كانت بمثابة عقوبة توقعها فقط على الأشخاص البالغين، الذين حاولوا رؤيتها عارية وهي تستحمّ في نهرها هناك فوق السحاب. هؤلاء من ممارسي الرذيلة كانوا مدفوعين إليها، بسبب الشائعات التي ينشرها بعض النصّابين المحتالين بأن مَن ينظر إلى هذه المرأة عارية، يحصل على قدر كبير من الحظّ الحسن في أعماله وفي شؤون حياته اليومية.

لكننا نحن الأطفال لم نكن ننتظر أن تهبط علينا أي ثروة من السماء، لذلك كنّا أثناء نومنا ليلًا فوق الحشائش الندية المبلّلة، نغلق أعيننا ولا نفتحها أبدًا، حتى لا تظن سيدة القمر أننا نختلس النظر إليها في عريها، كما اعتاد أن يفعل البالغون الأرذال. كانت في عليائها غالبًا قادرةً على

قراءة أفكارنا، بما لها من قدرات علوية، وبالتالي فمن المؤكّد أنها كانت تدرك دوافع تصرّفاتنا، بفضل حواسها الاستثنائية التي لا يمكن لأحكامها أن تخيب.

كانت في مكانها السماوي تلفّ وتدور، مرّة إلى اليسار ومرّة إلى اليمين، ثم تختفي تمامًا عن أعيننا، في نفس اللحظة التي تتمدّد فيها أجسامنا على الأرض، وبطوننا إلى ناحية الأرض، لنغطّ في نوم عميق. كنا نعرف أنها ليست بعيدة عنّا، وأنها تراقبنا، وأنّها تعرف مسبقًا الظاهر من مستقبل أيّامنا والباطن منها. ثم بعد الاختفاء تعود إلى الظهور، فنعيد اكتشافها بالمنظور الجانبي لوجهها (البروفيل)، كما يحدث في مسرح خيال الظلّ، عند اختفاء أجسام الممثلين خلف ستار أبيض، فلا يعود يظهر منها إلا محيط الحدود الخارجية لأجسامهم، هكذا كانت تظهر هي أيضًا كخيال ظلّ، خلف ستار أبيض من طبقات كثيفة من السحاب.

كنّا نتابع حركاتها البطيئة وتنقّلاتها عبر السماء، عندما تخرج إلى الوجود نجيمات مضيئة لامعة، تتساقط من السلّة التي تحملها على رأسها، فيسقط بعضها بذيوله المضيئة من السماء إلى الأرض. هي مثل ألعاب نارية سماوية كما لو كانت احتفالات بأعياد سماوية لا نعرف عنها شيئًا. ارتبطت هذه الظاهرة الطبيعية، أي تساقط النجيمات من السماء إلى الأرض، ببداية موسم قرع الطبول في قبائلنا.

كان التفسير الشعبي لسقوط نجيمة ذات ذيل من السماء إلى الأرض، هو أنه علامة على مولد طفل جديد في نفس هذه اللحظة؛ وذلك لأنه حسب المعتقد السائد، فإن لكل إنسان على الأرض نجمته في السماء، وذلك حتى لو كان هؤلاء الأطفال مولودين في بلاد لا تعرف هذه الحقائق. هذه المرأة السماوية كانت بمثابة الضامن لبقاء كل أشكال الحياة على الأرض.

عندما تهدأ الأوضاع في السماء، وينسحب قرص القمر من صفحتها، تظلّ هناك في كبد السماء نجمتان أو ثلاث نجوم، تسطع ببريقها ثم فجأةً تختفي، كأن أحد الصيّادين قد أصاب هذه النجوم بطلقات نارية فأنهى وجودها، هنا ينظر بعضنا إلى بعضنا وعلى كل الوجوه ملامح الحزن؛ لأن التفسير الشعب للاختفاء المفاجئ لنجمة في السماء، هو أن إنسانًا قد مات في نفس هذه اللحظة في مكان ما من هذا العالم، فكنا على الفور نركع على ركبنا، ونخفض رؤوسنا حتى تلتصق ذقوننا بصدورنا، ثم نتمتم: «فلتسترح روحه في سلام».

أما تلك المتسكّعة المتشرّدة عديمة المأوى، التي تظهر فقط في الليالي التي يكتمل فيها قرص القمر، ولم يتمكّن أحد من رؤية وجهها، فقد قيل إن حكايتها تعود إلى الزمن الذي كانت فيه

السماء تتقاتل مع الأرض بوحشية دون أي رحمة. منشأ هذا النزاع أن الأرض كانت تنتقد السماء لأنها كيان دائم التحوّل، يقع تحت تأثير نزوات مزاجية متباينة، في حين كانت السماء تنتقد الأرض على بلاهتها وعدم إدراكها وعلى فقد إحساسها.

بين هذين المتنافسين كان ينبغي على الربّ أن ينصف أحدهما، فأنصف السماء؛ لأنها أقرب إليه من الأرض، ولأنها المكان الذي يسكنه. هنا يقال إن سيّدة السماء قد ضحّت بنفسها في سبيل إنقاذ البشر، وحملت فوق ظهرها خطايا البشر، إذ استعطفت ربّ السماء لتكفّر عن خطايا البشر، وبالتالي منعت الكارثة الكونية التي كان يمكنها أن تؤدّي إلى الفناء التام للجنس البشري.

خلال ذلك العام الصعب عاشت قرى جنوب الكونغو كارثة موسم جفاف ومجاعة لم تعرف مثله هذه المنطقة من قبل، فنفقت حيوانات كثيرة كانت من قبل كثيفة العدد، وتضاءل حجم الغطاء النباتي الذي كان من قبل هو الآخر شديد الكثافة، حتى إن بعض سحرة القبائل تنبّأوا باحتمال اختفاء غابة (مايومبي) لو استمرّ هذا الجفاف، وباحتمال أن تحل محلّ هذه الغابة أرض صحراوية جافة خلال شهور قليلة، لن تستطيع معها القبائل البقاء على قيد الحياة؛ لاعتمادها على الغابة في غذائها اليومي من حيوانات ونباتات. وقد مرّت شهور طويلة دون أن يتناول شعب القبائل لحوم الحيوانات حتى نسي الناس طعمها.

في خلال فصل الشتاء البارد، أصبح كل شيء قابلًا للاشتعال يستعمل في التدفئة. ثم أصبح كل شيء قابلًا للأكل يُستعمل كطعام، حتى اختفت كل أنواع الحشرات مثل الصراصير والذباب والبعوض، كما اختفت ديدان الأرض. بعد ذلك انتشرت الشائعات التي تقول إن أهل القبائل بدأوا في طبخ لحوم جثث البشر الذين يموتون من الجوع.

ثم جاء صوت أبحّ لمغنّية عمياء مشلولة الأطراف، تتحرّك من مكان إلى آخر بالزحف على مؤخّرتها، ليعلن في أغنية حزينة عن انمحاء بلدنا الكونغو بالتدريج من خارطة القارة الأفريقية. كانت كلمات الأغنية تقول: إن عقارب الساعة تدور وقد نسيت خلفها شعب الكونغو، وإن كلّ الساعات الموجودة في الكونغو قد توقّفت عقاربها عن الحركة عند منتصف الليل، فالإبرتان قد توقّفتا عند الرقم 12، وإن مَن يستطيع أن يستيقظ صباح اليوم التالي، سيُفاجأ بعدم وجود أي مياه للشرب في الآبار، مع وجود رياح عاصفة صحراوية جافة، حملت القيظ من الصحراء إلى داخل المخيّمات والأكواخ.

في البداية لم يشعر سكّان البلاد بنذائر الشؤم التي تعلن عنها كل هذه العلامات، فأغلب مَن أنصت إلى كلمات أغنية المغنية العمياء المشلولة، ارتكن إلى أنها ساحرة فاقدة العقل تهلوس، لكنَّ آخرين تساءلوا كيف تحصل على أصابع الموز التي تبيعها مساء كل يوم أمام كوخها؟ من أين تأتي بهذه الفاكهة وقد تلفت كلّ الزراعات؟ ومَن هم كلّ هؤلاء الزبائن الذين يظهرون مساء كلّ يوم أمام كوخها ويشترون الموز منها؟ الحقيقة هي أن رؤية هؤلاء الزبائن كانت نتيجة لنوع من الهلوسة البصرية الجمعية، التي أصابت كل سكّان الحيّ حيث تقيم الساحرة.

بعد مرور أسبوع على بدء هذه الظاهرة التي أطلقنا عليها اسم (الإعلان)، بدأت العلامات الأولى لنهايات عالمنا في الظهور، وأصبحت ملموسة بشكل أوضح يومًا بعد يوم. فمثلًا لم تعد العصافير تظهر في السماء. ثم ظهرت حُفْرِة هائلة الحجم تؤدّي إلى هاوية لا يمكن رؤية قاعها، كأنها تفغر فاهها لابتلاع البشر، وقد بدت فيها ملامح غضب الأرباب الذين لم يعد السحرة يعرفون كيفية إرضائهم، أو ما العمل المطلوب من البشر لإرضائهم. شعر السحرة بالعجز، مع كل ما يملكونه من ذخيرة تمائم وأوراد وأذكار، من المفروض أن تجلب الحظّ الحسن وتمنع وقوع البلاء، لكنها أصبحت كلّها غير ذات جدوى.

هؤلاء الحكماء بعد أن تجمّعوا للتشاور، اتخذوا قرارًا أثار غضب الجميع، إذ قالوا إنه يجب تقديم امرأة ضحيّة أو ذبيحة أمام الأرباب لتهدئة غضبهم، على أن تحمل على كتفيها جميع أوزار البشر. وهي فكرة قريبة الشبه جدًّا من الفكرة لدى المسيحيين عن تقديم يسوع المسيح كذبيحة حيّة على الصليب. قال الحكماء: إن المرأة أقدر من الرجل على التحمّل وعلى الغفران.

خشت جميع نساء القبائل صغيرات السنّ أن يتمّ اختيار واحدة منهنّ للقيام بهذه المهمّة، فاختفين جميعًا عن الأنظار. أما النساء متوسّطات السنّ، وكلّهن متزوّجات، فقد ادّعى أزواجهنّ أنهم لا يمكنهم الاستغناء عن نسائهم بغرض ضمان امتداد الذرّية واستمرار إنجاب المزيد من الأطفال.

وبذلك لم تبقَ متاحات إلا النساء المتقدّمات في السنّ، وحتى هؤلاء قد دافعن عن أنفسهنّ قائلات إنه ليس عليهن بسبب تقدّمهنّ في السن أن تقبل إحداهنّ التضحية بنفسها، بل أكثر من ذلك أنهنّ قُلْنِ إن الشيوخ الذين يدّعون أنهم حكماء، ما هم إلا مجموعة من الجبناء الذين لديهم الكثير من صفات الخسّة والدناءة بادّعاء أنهم يعرفون معرفة حقيقية علوم العالم الآخر،

وتساءلن ماذا ستكسب المسكينة التي يرغبون أن تضحّي بحياتها من أجلهم؟ ولماذا تضحي بحياتها من أجل خلاص لن تحصل هي عليه، بل سيحصل عليه الآخرون؟

وهكذا ساءت الأوضاع أثناء هذه المعارضة من النساء لقرار الرجال، إذ استمرت الرمال الصحراوية الجرداء كل يوم في الزحف على خضرة الغابات، حتى قاربت أن تصل إلى قلب البلاد في عاصمة البلاد، هنا وقعت المعجزة، إذ حدث أثناء ليلة من الليالي التي يكتمل فيها البدر، أن هبطت امرأة المعجزات من عليائها حيث تقيم إلى مستوياتنا الأرضية، متنكّرة في شكل فتاة شابة جميلة، لتقابل تجمّع الرجال الحكماء، ولتتحدّث خاصة مع أولئك القادمين من قرية (لوبولو)، من حكماء وسحرة تلك القرية. لم يكن الرجال يعرفون أنها امرأة المعجزات، بل كانوا يردّدون أنهم أخيرًا قد عثروا على كبش الفداء، وكان بعضهم ينطق بكلمة «كفّارة».

مشت معهم امرأة المعجزات بعيدًا إلى خارج القرية، وقد كبّلوا يديها خلف ظهرها ببعض الأربطة، ومن الغريب ملاحظة كيف بدأ هؤلاء الرجال في معاملة المرأة بقدر من الخشونة والفظاظة، بل والشراسة في دفعها أمامهم، وقد بدا كما لو أن البعض قد اعتبرها المسؤولة عن انحسار الغابات وعن تراجع الخيرات، ناسين أنها هي التي أتت إليهم طائعة بإرادتها، وهكذا أصبحت في نظرهم متهمة مدانة بجرائم، يعرفون أنها لم ترتكبها، لكنهم أشاعوا أنها قد اعترفت أمامهم بجرائمها، وهكذا بدأ بعضهم في ضربها بالسياط، وظلّت هي رابطة الجأش متماسكة، واستأنفت السير إلى مكان صلبها.

وصلت المجموعة في سيرها إلى بئر ماء، بدا بوضوح أن ماءها شحيح، وأن البئر قد ينضب ماؤها خلال ساعات قليلة. وكما ذكرنا كان قمر الليلة بدرًا، يحفّ ضوؤه الفضّي بذرى الأشجار، التي يهدّدها الفناء الصحراوي. كانت أعين أرباب السماء تتابع حتمًا هذا المنظر، بصفتهم شهودًا على مسألة تخليص الحسابات بين الرجال والنساء، أو مسألة الإجابة على سؤال لماذا يكره الرجال النساء إلى حدّ الرغبة في الانتقام منهنّ. كان هذا الكره يبدو واضحًا جدًّا في أسلوب صياغة (وثيقة الاتهام)، التي بدأ الآن في قراءتها بصوت مرتعش أحد الحكماء من السحرة الرجال، وأسماها في بداية القراءة «قرار الإدانة»، أي أن المتّهمة أصبحت مدانة، وأضاف من عنده عبارة أن الإدانة هي «للصالح العام».

مستضعفة ركعت الضحية على ركبتيها بيدين مقيّدتين خلف ظهرها، وهي ترفع رأسها نحو السماء. لم يصدر عنها أي صوت عندما لمحت أحد السحرة يقترب منها وقد انفصل عن الباقين،

وعند وصوله إليها رفع يده القابضة على سكّين حادة فوق رأسها، ثم هوى بها فوق عنقها ليقطعه. في نفس تلك اللحظة التي انقطعت فيها أنفاس البشر، اختفى القمر من السماء. ظلّ القمر مختفيًا عن السماء طوال شهر كامل، قبل أن يعاود الظهور وقد بانت بوضوح صورة هذه المرأة في منتصفه، وهي تحمل سلّتها فوق رأسها. اكتشف سكّان جنوب البلاد وهم مذهولون وجود هذه المرأة في قلب القمر.

ثم قرّر الناس أن يكون يوم الجمعة الأول من كل سنة جديدة هو عيد الاحتفال بهذه الضحية؛ ليتذكّر الناس فيه كيف قبلت هذه المرأة التضحية بنفسها، بهدف غفران خطايا كل البشر الآخرين. بذلك عادت العصافير إلى عبور سماوات البلاد، وعادت الأمطار الموسمية الغزيرة إلى السقوط طوال أسابيع كاملة دون انقطاع، وعادت محاصيل الحقول إلى الازدهار، وعاد الغطاء النباتي الكثيف إلى الغابات، وعادت الأسماك إلى التقافز في مياه البحار والأنهار، وعادت الحيوانات المختلفة إلى التناسل والتكاثر.

ظللت أؤمن بهذه المعتقدات، رغم أنني كنت أنمو في العقل والجسد، ولم يكن عقلي قادرًا على إبطال مصداقية هذه الصور، ولم يكن حتى قادرًا على التقليل من الشعور بالتقديس لهذه المرأة. لا أزال حتى اليوم أشعر بسطوة هذه المعتقدات على عقلي، حتى بعد أن بعدت عن حظيرة الإيمان في هذه البلاد لمدّة ثلاثٍ وعشرين سنة، رغم تشكّك الكثيرين من أهل البلاد في صدق إيماني. لذلك عندما كنت في زيارة للبلاد، خرجت من منزلي في ليلة اكتمال البدر، ولاحظت وقد سيطر عليَّ القلق أن أعين ناس البلاد تتابعني بأبصارها، وتراقبني لتتأكّد من أنني أظهر نفس علامات الاحترام ونفس إشارات التقديس لصورة هذه المرأة الذبيحة التي نراها بوضوح في قلب قرص القمر.

أرفع رأسي نحو السماء، وأقول في نفسي لعلّ تلك المرأة الحرّة المتمرّدة، قد وجدت راحتها الأبدية في مكانها الجديد، خاصة بعد أن تأكّدت من أن الأقدار قد وضعت بدلًا منها في مكانها الأرضي امرأة أخرى شابة ستصبح هي كذلك نموذجًا آخر يُحتذى في الفداء والتضحية، أيقونة للحرّية والتمرّد. هذه المرأة هي أمي التي جاءت بي إلى هذه الدنيا، المدعوّة بولين كينجويه، التي أكتب عنها هذا العمل الروائي، خصّيصا لها لأزيل به كل الغموض الذي أحاط بشخصيّتها، بعد أن كانت قد ماتت سنة 1995.

(2)

المرأة غير المنتمية إلى أي مكان

عندما أتذكّر أمي تأتي على الفور صورة وجهها، حيث هناك أولًا عيناها العسليّتان دائمتا النضارة، اللتان كان ينبغي عليَّ أن أستشفّ أعماقهما لأعرف فيما تفكّر، وما هي همومها ومخاوفها في هذه اللحظة، وهو ما كانت تحاول دائمًا أن تخفيه عنّي، بانقباض سريع للعضلات القابضة لإنسان العين، القادرة على إغلاقه كأنها تخفي عنّي سريعًا ما قد أكون قادرًا على استشفافه منها رغم طفولتي. كان هذا هو ردّ فعلها الدائم لحماية نفسها من كشف أسرارها، وكان هذا بالنسبة لي علامة تدلّ على أن أمي تحتفظ لنفسها بأسرار لا ترغب في أن تكشفها لي في ذلك الوقت. أعتقد الآن جازمًا أنه طوال فترة بقائي معها، خلال مرحلتي طفولتي ومراهقتي، أنها لم تكن تنظر إليَّ أبدًا بنظرات مباشرة، بل كانت تدير إنساني عينيها بعيدًا عن إنساني عيني.

لذلك كانت النتيجة هي أنني كنت أشعر دائمًا بالشكّ في كل لحظة من اللحظات التي تندفع فيها نحوي بمرح وسعادة مبالغ فيهما، إذ كنت أدرك أنها لا تفعل ذلك إلا لتخفي عنّي أحزانًا هائلة تنتهكها تمامًا في مثل تلك اللحظات، فلا تجد أمامها إلا أن تصدّر لي ملامح وجه تدلّ على سعادة مزيّفة، كأن هذا الوجه المزيّف هو الدرع التي تحتمي خلفها، هذه المحاربة الشجاعة التي كان عليها أن تخوض من أجل أطفالها، غمار معارك يومية شرسة.

حاولت طوال حياتي أن أستعيد تلك اللحظات؛ لأكتشف من خلالها علامات عذاباتها الداخلية، إلا أن هذا الوجه الذي حاولت به إيهامي بسلامها الداخلي وبصفائها النفسي وسكينتها، لم ينجح في إخفاء الحقيقة التي أدركتها، وهي أن الفكرة التي كانت تسيطر على ذهن أمي، هي أنها لو أظهرت ضعفها أمامي، فهذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لي، إذ كان يجب عليها أن تظهر أمامي دائمًا قوية. كانت كل أفعالها في الحياة تتجه نحو تحقيق هدف واحد، هو أن تثبت لي أنها قادرة على التغلّب على كل ما يمكن أن يواجهنا من صعاب في الحياة، ثم تؤكّد على فكرة أن قوّتنا كانت بفضل (مباركة الأجداد وحمايتهم لنا)، وأن قوّتنا نابعة من قوّتهم.

مثال على ذلك أنها ذات مرّة حكت لي أن أمّها المتوفّاة قد جاءت إليها في المنام، وكنا نعاني من ضيق مادي شديد، فقالت لها أمها إنها قد أخفت من أجلها خمسمائة ألف فرنك كونغولي، في مكان حدّدته لها على الشاطئ المهجور للمحيط الأطلنطي، فقامت أمي من نومها قبل شروق

الشمس، واتجهت مباشرة إلى المكان المحدّد على الشاطئ المهجور، بعينين نصف مغلقتين بتأثير النعاس، وبشعر رأس غير مهندم بسبب الاستعجال. وظلّت تحفر حتى عثرت على المال المدفون الذي سمح لها باستئناف العمل في نشاطها التجاري.

كان يحدث أحيانًا أن تعود من السوق دون أن تكون قد باعت أي شيء من بضاعتها، التي ألاحظ أنها لا تزال تحملها فوق رأسها، فكانت تحاول على الفور تشتيت انتباهي، بأن تكلّفني بالذهاب لشراء الزيت الذي نستعمله في مصباح الإضاءة، ثم تدخل إلى حجرتها وتغلق على نفسها بابها، فتفوّت بذلك عليَّ فرصة سؤالها، فهي لا تريد أبدًا أن تظهر أمامي ضعيفة محتاجة.

في مثل تلك الحالات لم تكن تلاحظ عودتي إلى المنزل بعد شراء الزيت، فكنت أنصت إلى صلواتها التي تتلوها بصوت واضح، وهي تتمخّط بين لحظة وأخرى، وهو الدليل على أنها تبكي. كنت أسمعها وهي تطلب المساعدة من جدّتي الراحلة؛ لأننا كنا نؤمن بقدرة الموتى من الأجداد على مساعدة الأحياء، وكانت تطلب منها المساعدة بصوت مرتفع وهي تنتحب.

لم أكن أعرف بالتحديد، إن كان السبب في هذا النحس الملازم لنا، وسوء الحظّ المقيم، هو أنها غير مؤهّلة لممارسة التجارة في الأسواق، أم أن السبب هو تمثال خيال المآتة الذي تضعه في حجرتها، وكان طوال سنوات طفولتي تخيفني ملامحه، بقبّعة القشّ التي يضعها فوق رأسه. ظننت لفترة طويلة أنه كائن بشري حيّ، يراقبنا طول الوقت بل ويمكنه في أي لحظة أن يتحرّك في أي اتجاه يريده. كانت الأسمال البالية التي يرتديها تشبه سيقان النباتات المتسلّقة، التي تلتفّ حول بعضها لتكوّن نسيجًا واحدًا، لذلك كان من السهل عليَّ أن أعتقد أن هذه الثياب تتحرّك، كلّما هبّ عليها تيّار هواء، أو كلما فتح أحدنا باب الحجرة بعنف.

قالت أمي إنها طلبت صنعه في أحد متاجر (لوبولو)، عندما لاحظت الجدّة الاعتداءات المستمرّة من الطيور على حقول الذرة، فطلبت من ابنتها أن تصنع لها خيال مآتة تضعه في منتصف الحقل. وعندما ماتت الجدّة بعد سنوات، وتمّ توزيع التركة على إخوتها الذكور، ولم تحصل هي على أي قطعة أرض، أصرّت على الاحتفاظ بخيال المآتة، فتنازلوا لها عنه، خاصة عندما أبدت لهم العزوف التام عن المشاركة في أنصبة أخرى من إرث أمها، مثل المواشي والدواجن، التي تنازعوا عليها جميعًا ذكورًا وإناثًا. عندما لم يعرف الإخوة الذكور كيف يتقاسمون الأرض الزراعية فيما بينهم، قرّروا بيعها للأغراب، وبذلك حصل كل أخ من الإخوة الذكور على مبلغ من المال.

كان من بين التعليمات التي أصدرتها لي أمي بخصوص خيال المآتة، ألا أقترب منه إلا إذا أذنت لي هي بذلك. لا أفهم حتى الآن لماذا كان هذا التحذير ضروريًّا؟ لم أفهم جدوى تكرار تحذيري من الاقتراب منه، وقد لاحظت هي كيف أنني كنت أخشاه ولا أقترب منه، حتى دون أي تحذير منها. لم أكن أفهم جدوى وجوده داخل المنزل، فهو قد يكون مهمًّا في الحقول لا في داخل المنازل.

كنت أرتجف عندما تطلب أمي مني في أيّام الامتحانات المدرسية أن أقف أمام خيال المآتة ولو دقيقة واحدة قبل مغادرتي المنزل، قائلة إنه قادر على أن يجلب لي حسن الحظّ في الامتحانات، وقادر على أن يهمس لي بأفضل إجابة أحصل بها على أفضل الدرجات. خيال المآتة هذا كان أيضًا على دراية بكل تنقّلاتنا داخل المدينة، فعندما استأجرنا شقّة في حيّ (تياتيا)، انتقل معنا إليها وأقام فيها كالمعتاد، داخل حجرة والدتي. حتى عندما انتقلنا للإقامة في منزل الخال (رينيه)، لحراسته خلال السنة التي غاب فيها عن البلاد، لحضور دورات تدريبية في أوروبا، ذهب معنا خيال المآتة إلى هناك.

في كلّ مرّة احتفلنا فيها بالعام الجديد، كانت أمي تضع أمام خيال المآتة طبقًا به لحم خنزير وأصابع الموز، وهو الطبق التقليدي لشعب قبائل (البيمبيه). في تلك المناسبة كانت أمي تتحدّث إليه وحدهما لمدّة ساعة كاملة، تحيطه خلالها علمًا بكل التطوّرات التي وقعت في محيط الأسرة خلال العام المنصرم، وتخبره بكل ما نطمح إلى تحقيقه خلال العام الجديد.

عرفت في فترات لاحقة أن أمي لم تكن لها أبدًا أي حسابات مصرفية في أي بنك من البنوك، وأنها كانت تخفي مدّخراتها في ثقب داخل جسم خيال المآتة، تغطّيه بالملابس الرثّة وبالأسمال البالية. ثم عندما عرفتُ أنا هذه الحقيقة، أشاعت أنها تفعل ذلك لأنها تؤمن أن لديه من القدرات السحرية ما يسمح بمضاعفة هذه المدّخرات عشرات المرّات. في ذلك الوقت كنت أعتقد جازمًا في صحّة كل ما تقوله لي أمي، خاصة وأن أمي لم يحدث أبدًا أن عانت من الإفلاس.

لكن ينبغي لي هنا أن أضيف أن أمي (بولين)، رغم كل الاحتياطات التي اتخذَتْها لإخفاء ملامح قلقها ومخاوفها عني، لم تستطع أبدًا أن تخفي عني مدى هشاشتها. كان يضايقني منها مثلًا أنها لا تستطيع أن توجّه عينيها أبدًا بشكل مباشر إلى عينيَّ، رغم محاولاتي الدائمة أن أوقعها في هذا الفخّ. كانت في تلك المرّات تنفجر في الضحك، في محاولة منها لإلهائي عن الحقيقة، وتحاول إقناعي أن همومي المتعلّقة بها ليس لها أساس من الصحّة، وأن كلّ أحوالها على ما

يرام بدليل انفجارها في الضحك، وأنها لو قلقة مهمومة كما أدّعي ما أمكنها أن تضحك بهذه الطريقة.

لتأكيد لعبة هذا الاسترخاء المزعوم الذي تضيفه إلى مجموعة ألعابها معي، وتحاول أن تجعله يبدو تلقائيًّا، كانت تقصّ عليَّ بمرح صاخب، حكايات تمزج فيها بين أحداث واقعية، وأخري بدت لي غير معقولة حتى وأنا في سذاجة الطفولة، وكان هذا المرح الصاخب بدلًا من طمأنتي، يجعلني أكثر شكًّا في أن الأمور ليست على ما يرام، أي أن الأمور كانت على غير ما تحاول هي أن تدّعي.

لم أكن أنصت إليها إلا بنصف أذن، فكانت تسألني: «لماذا لا تضحك كما أفعل أنا؟ ألا تجد أن ما أحكيه لك مضحكًا؟ أليس مضحكًا أن يولد خنزير بمنخارين؟».

في مثل تلك الحالات كنت لا أردّ عليها، بل أشيح بوجهي عنها وأتجه به إلى سقف الحجرة، ثم أضع عيني على الأرض. كانت الهموم تنتقل منها إليّ، كما لو أنها كانت مرضًا معديًا، لتغطّي وجهي بملامح معتمة كئيبة. كنت مقتنعًا بأن هناك مَن يريد بنا السوء، وأنه رغم حماية خيال المآتة لنا، ومباركته للمال القليل الذي تضعه أمي فيه، لم يكن لديها ما يكفي من المال لسدّ احتياجاتنا الضرورية، مثل أن تدفع ثمن رسوم استخراج شهادة صحّية تلزم لاستمرار عملها التجاري في السوق الكبير.

أدركت وأنا في الحادية عشرة من عمري، كيف أن هذه الرسوم الحكومية قد أحدثت قدرًا كبيرًا من الخراب الذي حطّم الكثير من العائلات، وعذّبت الكثير من الأمّهات البائسات بعد أن حُرمن من الحصول على هذه الشهادة، فتوقّفن عن بيع بضاعتهنّ الرخيصة من الفول السوداني. كانت الواحدة منهنّ تصل إلى السوق الكبير في الصباح الباكر، لتجد أمام المائدة التي اعتادت على عرض بضاعتها عليها- مندوبًا حكوميًّا من بلدية المدينة، مصمَّما على منعها من البيع، وعلى طردها من السوق.

كان من المعروف أن هذا الموظّف الحكومي قد حصل على رشوة من بائعة أخرى، تريد أن تحصل على مائدة للبيع في السوق، الذي كان قد ازدحم عن آخره بالموائد. كان على البائعات من مثيلات أمي أن يدفعن بالإضافة إلى الرسوم الحكومية، المبالغ اللازمة لرشوة مثل هذا الموظّف، أو يعدن إلى أطفالهنّ كثيري العدد دون معرفة كيفية إشباع جوعهم، والأطفال في سنّ صغيرة لا يُسمح لهم بإدراك حجم المعاناة التي تتكبّدها أمّهاتهم. اعتقدت أمي أنها تستطيع أن تطلب من

الإدارة الحكومية تأجيل دفع الرسوم. أمي كانت عنيدة، فمظهرها الحزين ونظرتها المستكينة، لم يكونا قادرين على إخفاء حقيقة شخصيتها العنيدة، التي تصل إلى هدفها إذا صمّمت على الوصول إليه.

كانت تعرف أنه للحصول على الموافقة على تأجيل الدفع، عليها أن تمرّ عبر خطوات إجرائية عديدة. هذه الإرادة القويّة لم تكن تتناسب مع حقيقة كونها فلاّحة بسيطة من قرية (لوبولو)، المشهورة بتربتها الحمراء، التي تنجح فيها زراعات متنوّعة عديدة، مثل الذرة العويجة والنباتات الدرنية كالبطاطس وأشجار الموز، بالإضافة إلى شهرتها في تربية الخنازير. ماذا تفعل هذه الفلاحة حتى تتمكّن من نسيان أصولها الريفية البسيطة الساذجة، ومن نسيان خيانة زوجها الذي تركها فجأةً قبل شهور قليلة من مولدي، واختفى تمامًا من حياتها وحياة أطفالهما دون كلمة واحدة.

كان الحلّ في نظر هذه المرأة هو أن تنكر أصولها الريفية، وأن تدّعي أنها امرأة من أصول غير معروفة. وقد نجحت هذه الحيلة في وسط صخب جمهور هذه المدينة الساحلية التي نطلق عليها اسم (الرأس الأسود)، وأقوم الآن بزيارتها بعد غياب دام سنوات طويلة، تلك المدينة التي يأتي إليها الريفيون مشيًا على الأقدام، من القرى المحيطة بها، يحملون على أبدانهم آثار قذارة الأرياف، ويحملون في أرواحهم المشاعر العدائية التي ليس بها أي قدر من الوداعة.

كانت أمي تعتبرني الامتداد الطبيعي لوجودها. كنت في نظرها مثل شعاع النور الذي تلمحه في نهاية النفق المعتم. كنت أمثّل لها معنى الخلود منذ اللحظة التي خرجت فيها من رحمها، وهي على فراش قذر في مبنى متهدّم يحمل اسم (دار التوليد ورعاية الأمومة) بحيّ مويوندزي، في ليلة شتوية باردة ليوم 24 فبراير سنة 1966، حين كان القمر يحاول بلا جدوى اختراق طبقات الظلمة الكثيفة، ثم أعلن الديك متعجّلًا مقدم فجر جديد.

كانت أمي سعيدة بمولدي حتى أن ذكرى هروب أبي لم تستطع أن تقلّل من سعادتها الغامرة. وضعت يديها المحمومتين على صدري لتتأكد من أنني لا أزال حيًّا أتنفّس، وأنني لست خيالًا سيختفي بمجرّد أن تدير ظهرها. كان من الصعب إقناعها بأن تترك هذا الرضيع للممرّضة حتى تحمّمه. كانت مخاوفها مبنيّة على أساس من سابق خبرتها، عندما فقدت ابنتين بعد لحظات قليلة من مولدهما، دون أن يهتم أحد بأن يشرح لها السبب في رحيلهما المبكّر. هل صحيح إذَنْ هذه النبوءة التي أطلقتها ابنة عمّ أمي، التي لم تنجب وكانت تحسد أمي في كلّ مرة تنجب فيها؟ كانت

تلك النبوءة تقول إن مصير (بولين) أمي هو أتعس المصائر على الإطلاق من بين جميع أفراد عائلتها الكبيرة. هل كانت أختاي اللتان ماتتا رضيعتين على علم بهذه النبوءة لذلك ماتتا؟

كانت ابنة العم تلك سيّئة النوايا، التي لن أذكر اسمها، قد قالت إن أمي لن يستمر أيّ من أطفالها في الحياة، وإن أمي ستموت وحيدة في كوخ مهجور؛ لأنه حتى لو بقي أحد أطفالها الذكور على قيد الحياة، فإنه سيكون ناكرًا للجميل، وسيهرب من أمه إلى خارج البلاد في أول فرصة تتاح له، وسيكون على بعد آلاف الكيلومترات منها في اللحظة التي ستلفظ فيها أنفاسها الأخيرة، ولن يعود ليضع قدمه من جديد في البلاد إلا بعد وفاة أمه. ستقول إن هذا الطفل لم يكن مقدَّرا له أن يولد في رحم تلك الأم، بل إنه كان طفلًا وحيدًا ضالًّا عابرًا للطريق، وجد رحم تلك الأم خاليًا، فدخل فيه بالصدفة البحتة، فقط بهدف أناني هو أن يكمل فيه نموّه ثم يغادره.

ألقَيْتُ بكل هذه النبوءات القادمة من امرأة حسود عاقر في صندوق القمامة؛ لأن أمي وصلت إلى مدينة (الرأس الأسود)، وبين ذراعيها طفل، وعلى كتفها خيال المآتة الذي ورثته عن أمّها. كانت تمشي وهي تربط إزارها حول حقويها على عادة النساء الأفريقيات، ثم إنها كانت تمشي مرفوعة الرأس، رغم ما كانت تعانيه من مشاعر اليأس شبه التام. كان طريقها طويلًا متعرِّجا، إلى أن ظهر في طريقها هذا رجل آخر، أصبح هو الرجل الذي سأناديه بأبي.

إن الأب الحقيقي في نظري هو ذلك الرجل الذي ابتسمت في وجهه، ومددت إليه يديَّ وذراعيَّ بشكل غريزي ليرفعني من على الأرض، وقد حملني بواسطة قوّة طبيعية غير قابلة للتراجع ضد الجاذبية الأرضية، هي قوّة المحبّة التي سيجعلني بها أحطّ فوق كتفيه القويتين، وقد أحاطت ساقاي وفخذاي بعنقه وبرأسه. في ذلك اليوم البعيد نطقت لأول مرّة بهذه الكلمة التي تنقسم إلى جزأين سحريّين متشابهين، يتكوّن كلٌّ منهما من حرف ساكن وآخر متحرّك، وهي كلمة (بابا). وهو نفس الرجل الذي أسميته (بابا روجر) في روايتة سيرتي الذاتية المعنونة (غدًا سأبلغ العشرين)، وهو نفس الرجل الذي يستريح الآن في مدافن (مونت كامبا) في قبر قريب من قبر أمي.

(3)

اذهب وعِش واصبح شيئًا

علمت بوفاة أمي سنة 1995، وكنت لا أزال طالبًا أسكن في شقّة صغيرة مخصّصة لسكن شخص واحد، غالبًا ما يكون طالبًا جامعيًّا، كانت تقع في دائرة الحيّ التاسع بباريس. كنت أسكن في هذه الشقّة منذ سنة 1989، عندما وصلتني مكالمات تليفونية عديدة تقول إنهم ينتظرونني في (الرأس الأسود) لحضور مراسم الدفن، وقد أصرّ أحد أبناء الخالات على ضرورة سرعة التوجُّه إلى هناك. أما الخالة (دوروتيه) فقد هدّدتني أنها ستقتل نفسها، إذا لم ألحق بمراسم الدفن. ثم اتصل ابن خالة آخر قائلًا: إن غيابي عن مراسم الدفن سيجلب عليَّ حتمًا لعنة الآلهة، وحثّني على آخذ أوّل طائرة.

لم أردّ على المزيد من المكالمات الهاتفية، إذ كنت شبه مشلول الأطراف من وقع الخبر، وكانت هذه النداءات الحارة القادمة من على بعد آلاف الكيلومترات، بضرورة سرعة التوجّه إلى هناك، من بين أسباب تراجعي عن السفر، وبقائي متخندقًا في شقّتي. بدا لي العالم يضيق حولي. وبدا لي الزمن كأنه توقّف. بل حتى تصرّفاتي العادية التي أكرّرها كل يوم منذ سنوات، لم أعد ألاحظها، فأنا في كل مرة أصعد السلّم إلى شقّتي، أجد نفسي وقد صعدت إلى الطابق السادس، رغم أن شقتي في الطابق الثاني. وهكذا لم أذهب إلى الكونغو ولم أحضر مراسم دفن أمي.

في الحقيقة كنت أخشى المواجهة مع جسد تلك المرأة، التي تركتها لآخر مرة قبل سنوات طويلة، وهي بوجه مبتسم ممتلئة بالحياة. في الحقيقة كان عجزي عن رؤيتها جسدًا ميِّتا، يعود إلى أحد مواقف طفولتي. ففي وقت ما من تلك الطفولة، كنت مثل غيري من الأطفال أعاني من الخوف الغريزي من مشاهدة جثث الموتى، خاصة جثث الشخصيات المهمّة في العائلات، حيث تقوم القبيلة بوضع الجثّة في منتصف أحد الأفنية، حتى يتمكّن جميع أفراد القبيلة من إلقاء نظرة أخيرة عليها، فيأتي هؤلاء الأفراد واحدًا واحدًا للمرور أمام الجثّة، فينحني كلٌّ منهم حتى يقترب بوجهه بضعة سنتيمترات من وجه المتوفّى، ثم ينطق هامسًا ببعض كلمات الوداع.

هذا الاقتراب الشديد من الموت كان يخيفنا نحن الأطفال، بسبب المعتقدات الشائعة من أن أرواح الموتى تظلّ بضعة أيام تحوم حول أجسادها الفانية، وتتحيّن الروح الفرصة لتحلّ في جسد آدمي جديد، حبّذا أن يكون من بين أجساد أحد الأطفال، وهو ما يعني أن تعود الروح إلى الحياة

في جسد هذا الطفل، الحياة التي قد تمتد أمام الروح بطول عشرات السنوات، طالما ظلّ هذا الطفل على قيد الحياة. ويعود تفضيل الحلول في أجسام الأطفال كذلك إلى حقيقة أن الطفل لا يزال كائنًا بريئًا ساذجًا، لم يتلوّث بألاعيب الحياة التي يعرفها البالغون.

كنا نخشى كذلك عربة نقل الموتى السوداء اللون؛ لذلك كنا نغلق أعيننا على الفور، عندما كنا نراها تمرّ أمامنا في الشوارع، لاقتناعنا بأن المتوفّى يمكنه أن يلمحنا بطرف عينه، عبر زجاج نوافذ العربة، ويسجّل ملامح وجوهنا في ذاكرته، مما يسمح له لاحقًا بالتعرّف علينا أثناء بحثه عن جسم جديد يحلّ فيه.

كان بعض الصبية بسبب شدّة الخوف يصابون بالتبوّل اللا إرادي أثناء نومهم ليلًا، أو بالكوابيس التي تظهر لهم فيها جثث الموتى، بصحبة شخصيّات بشرية أخرى لكنها برؤوس ذات قرون حيوانية، أو ذات أفواه بأنياب قادرة على قطع رقاب البشر وامتصاص دمائهم، أو شخصيات تكون لها في أسفل ظهورها ذيول طويلة، على غرار صور الشياطين في القصص الدينية المصوّرة للأطفال. غير الإصابة بالتبوّل اللا إرادي قد يُصاب الأطفال بعدم القدرة على النطق. لكل ذلك لم أعد أذهب إلى مثل تلك المناسبات الدينية الخاصة بموضوع إلقاء النظرة الأخيرة على المتوفّى.

حدث ذات مرّة في مناسبة مشاهدة جسد ميّت مسجّى في وسط فناء -بذراعيه متقاطعتين فوق صدره، كانوا يقومون بتزيين وجهه بالأصباغ، وبغمره بكمّية كبيرة من العطور للتخفيف من وقع رائحة تحلّل الجسد- أن ظلّت هذه الصورة تطاردني طول الوقت خلال أسابيع طويلة، في جميع تحرّكاتي النهارية، وفي كوابيسي الليليّة، ولا أستطيع أن أتخلّص من هذه الملاحقة، فما بالك لو أن المتوفّاة هي أمي! لذلك وجدت الحلّ في الاعتذار عن عدم السفر، وتبرير ذلك بعدم وجود فائض مالي يسمح بدفع مصاريف الذهاب والعودة بالطائرة. ظللت فترة بعد ذلك أخشى أن أنظر إلى وجهي في المرآة، خشية أن أرى على وجهي ملامح نكران الجميل إزاء تلك التي انتظرتني في نعشها محاطة بأفراد العائلة وقد أتعسهم غيابي.

في ذلك اليوم التعيس ظللت ألف وأدور في حجرتي، وأنا أكتب قصيدتي (أسطورة التجوال الشارد) التي أهديتها إلى أمي، وهي القصيدة التي تعود دائمًا أبياتها إلى ذهني بشكل متكرّر، وكنت أعيد تصوّر لقائي الأخير بها سنة 1989، قبل ست سنوات من الوفاة. كان لقائي الأخير بها في مدينة برازافيل حيث كنت أقيم، وقد قطعت مسافة خمسين كيلومترًا لتودّعني، واستقبلتها

في إحدى حانات حيّ مونجالي، تقع إلى جوار صندوق رعاية المقاتلين القدماء، جلست في مواجهتها ولاحظت نظرتها الحزينة، فشعرت باحتقان في حلقي، وكان حديثها إليَّ عبارة عن كلمات متقطّعة، إذ إنها بسبب هياج العواطف لم تستطع أن تنطق بجملة واحدة.

اندفعت لاحتضانها والاحتماء بين ذراعيها كما كنت أفعل أثناء طفولتي، فإذا بها تناديني «يا بابا» كما تنادي أمّهات البلاد أطفالهنّ. ثم بدأت دموعها تنهمر بغزارة. ثم من العجيب أنها بعد هذه الانفعالات العاطفية بلحظة واحدة، بدأت تحدّثني عن ذكرياتها في سنوات الستّينيات، وعن حفلات الفرقة الموسيقية المحلّية (ليه بانتوس)، وحفلات فرقة الأشقّاء الثلاثة (يولو ولوكو وميشيل).

قالت: «كان هذا بالنسبة لي الزمن الجميل، كنت أرتدي جونلّة قصيرة على عادة فتيات الستّينيات (الميني جيب)، وأضع قدميّ في حذاء بكعب مرتفع، أما الفتيان فكانوا يرتدون السراويل التي كنا نسمّيها (أقدام الفيل)، وأحذيتهم من نوع (السلاماندر). كانت تلك الحفلات تقام على ساحل المحيط عند مدينة (الرأس الأسود)، التي اشتهرت في ذلك الوقت بأجوائها الاحتفالية، وبأنها تُتيح آلاف الوظائف للشباب، حتى أن مواطني بعض الدول الأخرى كانوا يلجأون إلى (الرأس الأسود) للبحث عن عمل».

كنت أهزّ رأسي موافقًا على ما تقوله. بينما استمرّت هي في الحديث.

قالت: «اليوم لم تعد هناك تلك الأجواء الاحتفالية في أي مكان، ولم تعد هناك حفلات موسيقية في أي مكان، بل يمكنني حتى أن أقول إنه لم تعد هناك موسيقى حقيقية، بعد أن تحوّلت الموسيقى إلى ضوضاء إيقاعات صاخبة، وتحوّل الغناء إلى صيحات لا معنى لها، لذلك لم أعد أنصت إليها لأنها تصيبني بالصداع النصفي».

مرّ نادل الحانة أمامنا وقد ارتدى ملابس قذرة ممزّقة، فوجّهت أمي إليه نظرة نارية، وتقلّص فمها وهي تقول:

«انظر كيف قلّ الاعتناء بالمظهر العام، حتى هذا الشاب الذي من المفروض أن يقدّم لنا المشروبات، كيف يمكننا أن نثق فيما يقدّمه لنا، وهو على هذه الدرجة من القذارة؟! أقولها لك: إن هذا البلد ذاهب إلى الجحيم، إن أفضل شيء هو ما تفعله أنت الآن السفر بلا عودة، هذا هو الحلّ الوحيد، أن تُلقي بكل هذا خلف ظهرك».

كان هذا هو أسلوبها الذي يقوم على تخفيف ألم الفراق الحتمي، الألم الذي سنعاني منه خلال سنوات غير معروفة العدد، حيث سنكون بعيدَيْن أحدنا عن الآخر بآلاف الكيلومترات. أما هذه الحانة فهي المكان الذي اختارته بنفسها للقاءاتنا -لسبب لا أعلمه- كلما جاءت من (الرأس الأسود) لزيارتي في برازافيل، أثناء إقامتي فيها خلال سنوات دراستي الجامعية.

كنت أقيم مع صديقي (موكيلا) وكانت أمي تمرّ بفترة رخاء نسبي، مكّنتها من مساعدتي بمبلغ من المال كل شهر، من مكاسب تجارتها البسيطة في بيع الفول السوداني، إلى جوار منحة حكومية كنت أحصل عليها بصفتي طالبًا جامعيًّا، لدفع مصروفات الإقامة في المدينة ومواصلة الدراسة الجامعية، وكانت هذه المنحة قليلة جدًّا لا تكفي للمصروفات الضرورية، لذلك كانت هي تساعدني بمبلغ من المال يساوي ضعف المنحة الحكومية، وكنت أنتظر زيارتها لي مرة كل شهر بفروغ صبر.

«قالت: «إذَنْ فأنت ستسافر إلى فرنسا؟».

«... قلت: «في الحقيقة أنا».

«قالت: «ليس هناك ما يمكن أن تعتذر لي عنه... لقد كانت آديل محقّة إذَنْ في نبوءتها».

«قلت: «مَن هي آديل؟».

قالت: «هي ابنة خالي المقيمة في (لوبولو)، التي تجرحني دائمًا بما تقوله عني... لقد تحدُّثت معك عنها من قبل ... ألا تتذكّر أنها تنبّأت لي بأنه لن يكون لي أطفال...».

«قلت: «لكن هذه نبوءة كاذبة فأنا ابنك».

قالت: «لكنها تنبّأت كذلك بأنك ستكون ابني الوحيد... وأنك ذات يوم ستتركني لتذهب إلى مكان بعيد... لا تعود منه أبدًا بعد ذلك... وأنني سأموت وحيدة في كوخ حقير... مثل أي شخص ليست لديه عائلة... وأنا ليس لديَّ سواك على هذه الأرض... لكن هل حقًّا أنت تحبّني؟ هل أنت أحببتني؟».

«قلت: «نعم بالتأكيد لقد أحببتكِ... ولا أزال أحبّك...».

قالت: «أنا أعرف أنك تنطق بهذه الكلمات فقط لتجعلني أشعر بالسعادة... على أي الأحوال لا تبتئس... أنا لديَّ انطباع بأنك سعيد بالسفر إلى تلك البلاد البعيدة... ومع ذلك يجب أن تعرف حجم الألم الذي سيسبّبه لي سفرك بعيدًا عنّي... أنا لا أستحقّ منك هذا...».

«...قلت: «في الحقيقة أنا لست سعيدًا على الإطلاق.

قالت: «ماذا سيحدث لي دونك؟ سيسخر مني كلّ الناس الذين سيرون أنني وحيدة تمامًا... لا يحيط بي إلا الفراغ... هل تفهم ما أقوله؟».

شربت جرعة من زجاجة الجعة أمامها، ثم قالت: «لماذا يعاملونني بهذه الطريقة؟».

ولأنني لا أعرف مَن هم أولئك الذين تعنيهم بقولها هذا، قلت: «من تقصدين؟».

قالت: «أقصد أن فرنسا والكونغو قد تآمرا عليَّ معًا... ليسرقا مني ابني ... ابني الذي يعتبر وجوده في حياتي هو المبرّر الوحيد لبقائي على قيد الحياة... هناك أبناء كثيرون لنساء أخريات ... لدى الواحدة منهنّ العديد من الأطفال... لماذا لا يرسلونهم هم إلى فرنسا... بدلًا من أن يرسلوا ابني الوحيد إلى هناك؟ أنا هنا الآن أشعر بأنني أموت فعلًا...».

بإحساس يائس ابتلعت ما تبقى من زجاجتها في جرعة واحدة، ثم هندمت ثيابها.

قالت: «لا تخيّب أملي فيك يا صغيري... لقد فعلت أقصى ما في وسعي حتى أكون أمًّا مثاليةً...».

ثم وضعت يدها في حقيبة كتفها، وأخرجت منها حزمة من الأوراق المالية.

قالت: «هذه النقود هي كلّ ما أمكنني جمعه من حصيلة تجارتي، خلال هذا الشهر الأخير؛ لأنك ستكون محتاجًا إلى الكثير من النقود في سفرك... وسأقدّم كذلك بعض الأوراق المالية لجارك في السكن...».

هذا هو ملخّص الحديث الذي دار بيننا في تلك الحانة، التي دام لقاؤنا فيها لمدّة ساعة. قرب نهاية اللقاء نطقت وهي تتلجلج بأسماء كل الأجداد الذين يمكنها أن تطلب منهم مساعدتي، مثل الخال ألبير الذي كان يعمل في المؤسّسة الوطنية للكهرباء، والجدّة نسوكو التي لم أرها إلا مرّة واحدة، والجدّ جريجوار الذي كان عمدة قرية (لوبولو)، وهي قرية ضائعة في إقليم (بوينزا)، الذي جاء منه كلّ أجدادنا وأسلافنا، وقد عاش الجد جريجوار حتى بلغ سنّ المائة والاثني عشر عامًا. لم تنسَ أيضًا أن تذكر اسمي أختي التوأم، اللتين ماتتا رضيعتين، بعد ساعات قليلة من مولدهما.

قالت: «لا تنسَ أبدًا كلّ مَن رحلوا، حتى ذلك اليوم الذي لا تعود ترى فيه ظلّك على الأرض، فتعرف أنك أنت أيضًا قد أصبحت من الراحلين سكّان العالم الآخر، مع أسلافنا الذين سبقونا في

«الرحيل، لكنهم لا يزالون يحرسوننا ويحموننا من الأشرار نهارًا وليلًا».

خارج الحانة كانت الشمس تميل إلى المغيب، فأصبحتُ داخل الحانة لا أرى جيِّدا وجه أمي؛ إذ لم أعد أرى بوضوح إلا عينيها اللامعتين المضيئتين المبلّلتين بالدموع، كما كنت أسمع إيقاع دقّات قلبها المتسارعة. طال الصمت بيننا، ولم يرد أحدنا أن يقطعه. كان الصمت مثل جدار عزل أحدنا عن الآخر، وهكذا لم يعد هناك أيّ داعٍ لأيّ إضافات، فقد قيل كل ما كان يحقّ له أن يقال. لقد وصلتني الرسالة التي أرادت أن تبلّغني إيّاها. لم أتدخّل بأي شكل، بل أردت أن أتحفّظ في تصرّفاتي وكلماتي، بحيث أحتفظ للقاء الوداع هذا بفرادته. تنهَّدتْ طويلًا وهو ما استنتجتُ منه أنه لتجمع شجاعتها اللازمة لإنهاء اللقاء، وقفت أمامي، ثم قالت: «لا تجعلني أبدًا أصاب بخيبة أمل فيك».

قامت فقمت وتبعتها كظلّها وهي تخرج من باب الحانة. لمحت من نظرة عينيها الأخيرة، أنها تدرك أن هذه هي النظرة الأخيرة، وأن هذه هي المرّة الأخيرة التي تراني فيها. تعرف أنها قد فقدتني إلى الأبد. أفصحت العينان عن معنى الفقد النهائي الذي فشلت الكلمات في التعبير عنه. كانت هناك مجموعة من سيّارات الأجرة الواقفة إلى الجهة الأخرى من الشارع، أشارت أمي إلى أحد سائقيها، فتحرّك وعبر الشارع بسيّارته وأوقفها أمامها بشكل متعجّل، حتى إن مكابح السيّارة أصدرت صوتًا مرتفعًا، ثمّ دخلت من بابها.

ظللت واقفًا متجمِّدا أمام باب الحانة، كما لو كنت تمثالًا من الملح، فتحت أمي النافذة الزجاجية للسيّارة الأجرة.

قالت: «يمكنك أن تصبح ذلك الرجل الذي أردتَ دائمًا أن تكونه، لكن احتفظ بهذا المثل في ذهنك (إن الماء الساخن لا ينسى أبدًا أنه كان ماءً باردًا)».

ابتعدت السيّارة الأجرة، وظللت أتابعها بنظري حتى اختفت في نهاية الشارع عند ميدان (الكرة الذهبية).

(4)

ألف ليلة وليلة

بعد وفاة أمي ظللت مدّة طويلة أجعل الناس المحيطين بي يعتقدون أنها لا تزال على قيد الحياة. لم يكن لديَّ الخيار، فقد اعتدت منذ كنت تلميذًا في المرحلة الابتدائية على هذا النوع من الكذب، بسبب أنني كنت طفلًا وحيدا بلا إخوة أو أخوات، لذلك أعدت إلى الحياة أختيَّ التوأم اللتين ماتتا طفلتين رضيعتين، حتى أتمكن من التفاخر بهما أمام زملائي من تلاميذ الفصل المتفاخرين بكثرة أعداد أفراد عائلاتهم.

في ذلك الوقت كانت تتملّكني فكرة مسيطرة تمامًا على ذهني، وهي فكرة احتمال خروج أخ آخر أو أخت أخرى لي من رحِم أمي، إلا أن هذا لم يحدث أبدًا مجدَّدا، رغم أن أمي استشارت عددًا من أشهر أطبّاء النساء والتوليد في المدينة عن السبب في امتناع الحمل. بل إنها لجأت حتى إلى عدد من المعالجين الشعبيّين القبائليّين، الذين كانوا يدّعون قدرتهم على جعل المرأة تحبل وتلد، حتى لو أن دورتها الشهرية توقّفت قبل عشرين عامًا.

هكذا فقدت أمي الأمل في الإنجاب من جديد، بعد أن فشل الأطباء البيض، وكذلك الأطبّاء القبائليين الذين تأكّدت أمي من أنهم ليسوا إلا مجموعة من النصّابين المحترفين، الذين لا يستطيعون حتى معالجة جرح سطحي، بواسطة ما يسمّونه وصفاتهم أو تعاويذهم الطبّية السحرية. بدأت أمي إذَنْ في تقبّل فكرة أنها لن تنجب المزيد من الأطفال، وأن عليها أن تكتفي بأنها أمّ لطفل واحد فقط لا غير، وعليها أن تشكر ربّها الذي أبقى لها على حياة هذا الطفل الواحد، في حين أن هناك الكثيرات من نساء العالم اللائي ليس لديهنّ ولا حتى هذا الطفل الواحد.

لكنها رغم هذا لم تستطع أن تتجاهل نظرة المجتمع الكونغولي البائس لها، المجتمع الذي لم يكن يقدّر ويحترم إلا المرأة الأم لأطفال عديدين، أما النساء اللائي حُرمن من الإنجاب، أو النساء أمّهات الطفل الواحد، فلم يكن المجتمع ينظر إليهنّ نظرة احترام. بل إن هذه النظرة تجاه المرأة ذات الطفل الواحد، كانت تنسحب كذلك على هذا الطفل الواحد، الذي لم يكن المجتمع ينظر إليه باحترام، كما لو أنه كان مصابًا بمرض قاتل كالطاعون، تنتقل العدوى به على الفور إلى كل الآخرين، الذين يجرؤون على الاقتراب منه.

الغريب هو التفسير الشعبي لهذا الموقف تجاه الطفل الوحيد، إذ كانت المقولات الشعبية الشائعة تدّعي أن هذا الطفل الوحيد، هو الذي أغلق باب رحم أمه بعد خروجه منه بمفتاح أخفاه عن الآخرين ولم يعد يذكر أين تركه. إذَنْ فهذا الطفل الوحيد هو المسؤول عن تعاسة والديه. الطفل الوحيد أناني أغلق باب رحم أمه عن قصد؛ ليتمتّع هو وحده دون أي إخوة آخرين بكل ما يمكن أن يغدقه عليه والداه من محبّة وحنان وعطايا.

هذا بالإضافة إلى أن المجتمع الكونغولي البائس كان يعزي إلى هذا الطفل الوحيد بعض القدرات الاستثنائية الخاصة، مثل قدرته على إسقاط المطر عند حلول مواسم الجفاف، أو قدرته على إيقاف المطر الغزير الذي يمكن أن يؤدّي إلى فيضانات الأنهار، أو قدرته على إصابة أعدائه أو حاسديه بالحمّى التي لا علاج لها بواسطة الكائنات الدقيقة من مسبّبات الأمراض.

إلا أنهم لم يعزوا إليه مثلًا القدرة على إيقاف دوران الأرض. هذا هو فقط ما كان الطفل الوحيد يعجز عن الإتيان به. عندما كنتُ طفلًا صدّقت بعض الوقت هذه المعتقدات، وبحثت دون جدوى عن هذه القدرات المخيفة داخلي، حتى وصلت إلى الاقتناع بأنني طفل عادي مثل كل الأطفال الآخرين، لا أتمتّع بأي مواهب أو هبات خاصة تميّزني عن غيري من الأطفال.

الشيء الوحيد الملفت للانتباه في طفولتي فيما يتعلّق بهذه المسألة، هي نظرة الخوف المبهم التي رأيتها دائمًا على وجهي والديَّ، الخوف من احتمال اختفائي المفاجئ من أمامهما، فهما مقتنعان بأن طفلهما الوحيد ينتمي حتمًا إلى عالم آخر، ويشعر حتمًا بالملل من وجوده في عالمنا هذا، وبأن كل ألعاب الطفولة التي يقدّمانها له غير مجدية في القضاء على هذا الملل، وبأن السعادة الحقيقية لهذا الطفل الوحيد هي في وجود إخوة وأخوات له. لهذا أعدتُ أختيَّ التوأم إلى الحياة، فكان خيالهما يجعلني أشعر بالراحة النفسية، وبالقدرة على الاعتماد على الذات، والاكتفاء بالذات في الحصول على السعادة.

عندما بدأت لأول مرة أتحدّث عن أختيَّ التوأم، أمام زملائي من تلاميذ الفصل، لم أستطع أن أمنع نفسي من المبالغة، فكنت أقدّم لهما بكل افتخار صورة مثالية لفتاتين طويلتين جميلتين، تتمتّعان بقدر كبير من الذكاء، وكنت أضيف إلى هذه الصورة -وكلّي ثقة بالنفس- أنهما ترتديان الأثواب الملوّنة بألوان الطيف السبعة، وأنهما تستطيعان فهم أغلب لغات الأرض، وكنت أتعمّد أمام التلاميذ النمّامين المغتابين، تكرار أنهما تتنقّلان بين أطراف المدينة في سيّارتهما ذات السقف المتحرّك، التي يقودها لهما *D.S.* السيتروين الفرنسية الحمراء موديل دي إس

سائقهما الخاص، وأنهما قد سافرتا بالطائرة إلى أوروبا مرّات عديدة، بل أنهما أخذتا الطائرة حتى عبر المحيط الأطلنطي للوصول إلى أمريكا.

كنت أعرف أنني أحقّق انتصارات على المنافسين لي، عندما أنصت إلى الأسئلة الاستفهامية التي يوجّهونها لي. كأن يسألني أحدهم: «إذَنْ فهل أنت أيضًا تستطيع أن تركب مع أختيك تلك السيّارة السيتروين الفرنسية الحمراء ذات السقف المتحرّك؟».

كان مَن وجّه إليَّ هذا السؤال، هو أكثر زملائي سذاجةً، وقد لمعت عيناه ببريق الحقد والحسد. فكنت أردّ على الفور وقد وجدت دليلًا ماديًّا ملموسًا لا يمكن نقضه بأن أقول:

«لا. لم يحدث بعد. فأنا لا أزال صغير الحجم جدًّا، ولا أستطيع الدخول في سيّارة بضخامة سيتروين أختيَّ».

فيقول تلميذ آخر مدفوعًا بالحسد، ومحاولًا الإيقاع بي في الفخّ: «أنت تقول أيّ كلام، فمنذ متى ينبغي للشخص أن يكون كبير الحجم للسماح له بدخول سيّارة؟ لقد سبق لي رؤية أطفال أصغر منك حجمًا داخل سيّارات ضخمة».

كنت لا أفقد هدوئي، وأقول: أنا : «هل سبق لك رؤية أطفال صغار الحجم داخل سيّارة سيتروين فرنسية ضخمة؟».

هو : «لا لكني رأيتهم في سيّارة بيجو».

أنا : «إذَنْ هذا هو السبب؛ فالسيّارة السيتروين تسير بسرعة أكبر بكثير من سرعة البيجو، وهذا هو السبب في أنه ينبغي لك أن تكون كبير الحجم، حتى تتحمّل سرعة السيتروين الهائلة، التي تكون خطيرة جدًّا على الأطفال صغار الحجم من أمثالنا».

وبما أنَّ أحدًا لم يرَ هاتين الأختين، وقد رمتني تلك العُصْبَة من الأطفال بكل أنواع الأسئلة، التي ازدادت فضولًا وعدم تصديق، ازداد كذلك بالتبعية حجم خيالاتي الكاذبة، إذ ادّعيت أنهما تقضيان العام كله في التجوال بين أوروبا وأمريكا وآسيا، وأنهما لا تعودان إلى البلاد إلا في إجازاتهما خلال مواسم الجفاف.

سألوني في جوقة واحدة، إن كنت سأقوم بتقديمهما لهم عند عودتهما الموسمية؟ أجبت مؤكّدا أن هذا حتمًا سيحدث. سألوني إن كان يمكنهما أن يلعبا معنا؟ أجبت أن هذا غير ممكن؛ لأنهما كبيرتا الحجم جدًّا، بحيث لا يمكنهما أن يلعبا مع أطفال صغار الحجم من أمثالنا.

غرقت في مستنقع خيالاتي الخصبة، حتى أنني بدأت أنا نفسي أقتنع أكثر من زملائي بكل ما أرويه لهم، بل بتُّ أنتظر بثبات أعصاب عودتهما السنوية، وكنت أتابع بعينيَّ الطائرات التي تتجه للهبوط في مطار المدينة، وأنا أتخيّل أنها الطائرة التي تحمل أختيَّ، وأتابع كلّ السيّارات السيتروين الفرنسية عند ظهورها في أيّ شارع من شوارع المدينة، واندهشت جدًّا عندما اكتشفت أنها سيّارات ليس بأيّ منها أيّ سقف متحرّك، إلا أنني ذات يوم عثرت بسعادة كبيرة على سيّارة سيتروين سوداء بسقف متحرّك، يقودها اثنان من البيض، ولكن ليس بداخلها أيّ طفل بأيّ حجم.

بعد ذلك ظهرت عليَّ أعراض أخرى، إذ بدأت أحدّث نفسي أثناء مشيي في شوارع المدينة، ذهابًا إلى المدرسة وإيابًا منها، أو عندما ترسلني أمي إلى حانوت البقالة في الجوار، لشراء بعض الملح للطعام، أو الجاز اللازم كوقود اشتعال، كان سكّان الحيّ في تلك الحالات يسمعونني وأنا أحاور نفسي بصوت مرتفع.

بسبب تلك الخيالات الخصبة بخصوص التوأم، كان من المحتّم عليَّ أن أنتظر وصولهما ذات مساء، فاستيقظ على صوت طرقاتهما على باب المنزل، وأتخيّل رؤيتهما وهما تخطوان إلى داخل المنزل، وتتجهان مباشرة إلى المطبخ، للبحث معًا في أواني الطبخ، عن الطعام الذي أعدّدته أمي، ويمكن لهما أن يتناولاه في وجبة العشاء. ذات صباح أخبرت أمي لأول مرة بكل تلك الخيالات، فسكتت لحظة.

«قالت: «ألم تلاحظ أبدًا أنني أضع كلّ ليلة طبقين مليئين بالطعام، عند مدخل المنزل؟».

«قلت: «اعتقدت أن هذا الطعام هو لكلبنا ميجيل».

قالت وهي تكتم ضحكتها: «لا. لم يكن هذا الطعام لكلبنا العزيز، رغم أنه قد يحدث أحيانًا أن يأكل ميجيل من بقايا الطعام الذي تتركه أختاك في طبقيهما».

«قلت: «كانت إحداهما ترتدي ثوبًا أصفر اللون، والأخرى ترتدي قميصًا أخضر اللون».

قالت: «اصمتْ ولا تذكر هذا لأي شخص آخر عدايَ، ولا تذكره حتى لأبيك، وإلا فإنهما لن يعودا إلى زيارتنا أبدًا بعد ذلك».

في مساء اليوم الذي دار فيه هذا الحوار، لاحظت أنها قد تركت فعلًا عند مدخل الدار طبقين مليئين بالطعام المتنوّع من لحم البقر والفاصوليا، بالإضافة إلى كوبين ممتلئين بعصير البرتقال.

سرت خلفها حتى أتأكّد من أن نوعية الطعام المقدّم إلى أختيَّ هو من نفس نوعية الطعام الذي تناولناه نحن على العشاء، ولأتأكّد كذلك من أن الطعام موزّع بالتساوي بين الطبقين حتى لا يحدث بينهما أيّ نزاع عليه.

في صباح اليوم التالي اندفعت إلى باب الشقة، لأجد أن طبقي الطعام ظلّا كما هما لم يلمسهما أحد، بمحتوياتهما كاملة لم تُمَسَّ، في نفس المكان الذي وضعتهما فيه أمي. في نفس تلك اللحظة خرجت أمي من غرفتها، والتفت انتباهها إلى ما حدث.

«أنا: «أختاي لم يأكلا عشاءهما».

«هي: «اطمئن، لقد أكلا».

«أنا: «كيف هذا والطعام لا يزال كما هو في الطبقين؟».

«هي: «أنت لا ترى جيدًا؛ فالحقيقة هي أن الطبقين خاليان من الطعام».

«أنا: «أنا متأكّد من أنني أرى أن الطعام لا يزال باقيًا في الطبقين».

ثم لتقطع عليَّ استئناف هذا الحوار العبثي، هي: «إذا كان لا يزال هناك حقًّا طعام في الطبقين، فلماذا لم يأكله الكلب ميجيل؟».

«أنا: «لا أعرف».

هي: «الكلاب تستطيع أن ترى ما لا يراه البشر، وميجيل يعرف أنه لم يعد هناك أيّ طعام في أيٍّ من الطبقين».

وحدث ذات مساء عند عودة أبي (زوج أمي) من عمله كموظّف استقبال في فندق (فيكتوري بالاس)، أنه كان يحمل تفّاحة هديّة لي، وهي نوع من الفاكهة التي لا يمكن أن نجدها إلا في الفنادق الكبرى، ومن النادر أن نعثر عليها في الأسواق، فاعتقدت أنه في مقابل هذه الهدية، يجب عليَّ أن أعترف له بالسر الذي احتفظنا به أنا وأمي فيما بيننا، الخاص بموضوع عودة أختيَّ التوأم إلى الظهور.

أنا: «أقسم لك يا أبي أنني رأيتهما بهاتين العينين اللتين أحملهما في وجهي، بالضبط كما أراك بهما الآن. مع ملاحظة أنه بعد أن يأكلا الطعام من الأطباق، تظلّ هذه الأطباق مليئة بالطعام كأن أحدًا لم يأكل منها أي شيء، والوحيد الذي يستطيع أن يرى هذا هو الكلب ميجيل. هل أنت تصدّق ما أقوله لك؟».

ظلّ ينصت إليَّ دون أن يردَّ عليَّ، ومع ذلك فأنا لم أتوقّف عن الكلام، بل بقيت ألفّ وأدور حول نفس الموضوع. وحتى أجعله يقتنع بكلامي بدأت في تقليد طريقة أختيَّ في المشي وفي تناول الطعام، كأنني رأيتهما فعلًا. في نهاية هذا السرد غير المتماسك، اعتقد أبي أنني قد أُصبت بداء الضلالات الذهنية، رغم ما بدا واضحًا من فصاحتي اللغوية، التي تفوق مرحلتي السنّيّة. شعرت فجأة بالذنب لإفصاحي عن هذا السرّ، واعتبرت أن ما قلته للتوّ هو خيانة لأختيَّ، كأنني نقضت عهدًا بيني وبينهما.

«أنا: «عدني يا أبي ألا تذكر لأمي أنني قد أبلغتك بهذه المعلومات، فإن هذا سيغضبها مني.»

ولأنه لم ينطق بكلمة واحدة، لا بالوعد بعدم إفشاء السرّ، ولا بأي شيء آخر، شعرت بأنه سيخبر أمي بما قلته له. كل ما فعله هو أنه هزّ رأسه، ثم تركني وذهب إلى حجرة أمي، حيث أنصتُّ إلى صوت انفجار ضحكات، ثم صوت أمي (بولين) المنخفض وهي تقول:

«لا تضحك هكذا بصوت مرتفع؛ فإنه يمكنه أن يسمعنا.»

منذ تلك اللحظة بدأت في فقد تلك الموهبة العبقرية، في القدرة الطفولية على مزج الأحداث الخيالية بالأحداث الحقيقية، وهي إحدى مواهب الطفولة البريئة، إذ يحدث هذا المزج دون أن تكون هناك أي حواجز من الشكّ، تشلّ جموح خيال الطفل، كما تفعل الشكوك عادة بخيالات البالغين، إذَنْ هنا بدأت أول خطوة في الانتقال من عالم الأطفال إلى عالم البالغين. تساءلت إن كان فقدان هذه القدرة الاستثنائية هو بسبب إفشاء السرّ؟ وأن هذا هو عذاب الأقدار؟ عذّبني هذا الحوار الداخلي في أعماق نفسي.

في الليالي التالية كنت أستيقظ وأذهب إلى الباب؛ لأتأكّد من حضور أختيَّ، ومن تناولهما عشائهما، ولم أكن أجد أمامي إلا الكلب ميجيل، وقد وقف شَعر جسمه من التوتّر والانفعال، وارتعشت عضلات ظهره وأطرافه، وهو يوجّه أنفه نحو الشارع، كأنه يريد أن يقول لي إن الشخصين اللذين أبحث عنهما قد غادرا المكان قبل لحظات، وإنهما الآن في الشارع، فهما لا يريدان أن يتحدّثا معي بسبب أنني كشفت سرّهما. كنت بالتالي أوجّه لنفسي اللوم بشدّة.

منذ تلك اللحظة لم أعد أنظر إلى (بابا) روجر بنفس الطريقة، التي كنت أنظر إليه بها من قبل. أعتقد كذلك أن تلك كانت اللحظة التي أدركت فيها أهمية فضيلة الصمت، وأدركت فيها أن نطق بعض الكلمات سهوًا بالفمّ قد يكون له تبعات سلبية هائلة، وقد يؤدّي إلى نتائج خطيرة. هكذا

بدأت في التقليل من نشر أخبار أختيَّ التوأم بين أقراني من زملاء الفصل، وهم في الحقيقة لم يطرحوا عليَّ المزيد من الأسئلة بخصوص الأختين، كأنهم كانوا يعرفون أن كل ما يتعلّق بهذه القصّة قد انتهى، وأن عليَّ الآن أن أعود طفلًا عاديًّا بين غيري من الأطفال العاديين.

الآن عندما أجلس على الأرض أمام مدخل بيتنا، أفكّر في الكلب ميجيل، الذي كانت عيناه مبلّلتين دامعتين، مما يدلّ على أن حزنه لا يقل عن حزني، أما عندما كان يبدأ في الحركة ويهزّ ذيله، لم أكن أعلم ما بالضبط الرسالة التي ينقلها إليَّ، غالبًا كان يحاول مواساتي، أو يحاول مصالحتي، لكن هل كان هو قادرًا على مساعدتي في استعادة الجوّ الاحتفالي، الذي كان يثيره في خيالي وجود هاتين الأختين التوأم؟

هل يشعر هذا الكلب بأرواح البشر الموتى مثل غيره من أفراد فصيلة الكلاب؟ هل لديهم حاسة سادسة عوّضهم بها الله عن فقد القدرة على الكلام؟ القدرة على الكلام التي يتمتّع بها البشر، لكنهم محرومون من القدرة على رؤية أرواح الموتى؟

لكي أستعيد سمعتي في نظر أختيَّ التوأم، التجأت إلى حيلة وهي أن أتناول خِفية الطعام الذي استمرّت أمي في وضعه لهما في طبقين عند باب الشقّة؛ لأنها قالت لي إن ما يدخل في أمعائي، سيدخل أيضًا في أمعاء أختيَّ. وهكذا كانت في كل صباح عندما تجد الطبقين فارغين من الطعام، تتجه باللوم إلى الكلب ميجيل، في حين كان ميجيل يوجّه إليَّ نظراته النارية الحمراء، لكن مداعبة بسيطة من يدي على رأسه، كانت تهدّئ أعصابه، خاصة أنه الكائن الوحيد الذي أدرك حجم العذاب الذي أعانيه في أعماقي.

(5)

فخر أبي

كان أبي (زوج أمي) صغير الحجم، يقلّ بحوالي 20 سنتيمترًا في الطول عن أمي. من الأشياء التي كانت تدعو إلى السخرية أن نراهما يمشيان جنبًا إلى جنب، أو أن ترى أبي وهو يحاول أن يقبّل أمي فيقف على أطراف أصابع قدميه. أنا في طفولتي كنت أراه عملاقًا، مثل كل أولئك العمالقة التي نراهم في القصص المصوّرة للأطفال، وكان حلمي هو أن أصبح ذات يوم مقاربًا له في الطول.

كانت مسألة أن أتخطّاه في الطول تبدو لي في ذلك الوقت مستحيلة الحدوث؛ لأنه في نظري كان قد وصل إلى أقصى ما يستطيع الرجال العمالقة أن يصلوا إليه. لم أدرك أنه ليس طويلًا إلا وأنا بالكاد في سن الثانية عشرة، عندما وصل كتفي إلى مستوى كتفه، وأنا أستعد لدخول مدرسة (العظماء الثلاثة) الإعدادية.

بدأت في ذلك السنّ أنظر إلى عينيه، دون أن أكون محتاجًا إلى رفع رأسي نحو رأسه. بدأت في تلك السنّ أمتنع عن مشاركة زملائي في السخرية من الأقزام، أو في السخرية من أي إنسان آخر حرمه القدر من جسم طبيعي، أو أصابه بنقص في النمو. السخرية من هذا النوع من البشر التعساء كانت تعني كذلك السخرية من أبي. بفضل نظرتي تلك بشيء من الإنسانية إلى قصر قامة أبي روجر، استطعت لاحقًا أن أتقبّل فكرة أن العالم به كل أنواع البشر، أشخاص ضخام الجسم وأشخاص صغار الجسم، أشخاص يميلون إلى السمنة وأشخاص يميلون إلى النحافة.

كان أبي يرتدي غالبًا سترة من اللون البنّي الفاتح، حتى أثناء قيظ أيام الصيف شديدة الحرارة. حتمًا كان التزامه بارتداء هذه السترة مرتبطًا بوظيفته في قسم الاستقبال بفندق فيكتوري بالاس، وهي السترة التي لا يرتديها الرجال إلا في يوم الإجازة في نهاية الأسبوع. بالإضافة إلى ذلك هناك حقيبة أوراقه، التي يمسك بها في يده طول الوقت، أو يضعها تحت إبطه، وهو ما جعله يتخذ مظهر مفتش بطاقات السفر في قطارات السكك الحديدة، أولئك الذين كنا نخشاهم لو اضطررنا إلى ركوب القطار الصغير المخصّص لعمّال المصانع، لو لم تكن معنا بطاقات سفر. كان قطار العمّال يذهب بهم إلى منطقة الميناء، وتقع مدرستنا على نفس الخطّ.

كانت لهؤلاء المفتّشين سلطة إخراج التلاميذ من القطارات، وتركهم على الأرصفة في أي مكان على الخطّ، لو لم تكن لدى التلاميذ بطاقات السفر. أسوأ هؤلاء المفتشين كانوا أولئك الذين يصفعون التلاميذ على وجوههم، حتى يكونوا عبرة لغيرهم من التلاميذ. في الأصل كان القطار مخصَّصا للعمّال فقط لا غير، ثم سُمِحَ للتلاميذ باستعماله بهدف تحقيق المزيد من المكاسب المالية للشركة التي تدير القطارات.

بالإضافة إلى وقوع مدرستنا (العظماء الثلاثة) الإعدادية على الخط، كانت هناك كذلك مدرسة (كارل ماركس) الثانوية. ولتجنّب دفع ثمن بطاقات السفر، لجأ التلاميذ إلى حيلة الصعود إلى أسطح عربات القطارات، معرّضين بذلك حياتهم للخطر، لكن هذه الحيلة أصبحت بلا جدوى؛ لأنها لم تمنع المفتّشين من الصعود هم أيضًا إلى أسطح العربات، حيث يستأنفون ملاحقة التلاميذ.

كان بابا روجر يمشي دائمًا بخطوة متوتّرة متحفّزة، وهو ينظر إلى ساعة يده كل بضع خطوات، مما جعل أمي تشيع عنه أنه الرجل الأكثر انضباطًا في مواعيده، ليس في (الرأس الأسود) وحدها، بل في العالم أجمع. بالنسبة إليه كان كلّ شيء يفعله مرتبطًا بمواعيد محدّدة بالدقيقة، فهو يغادر المنزل في تمام الساعة السادسة صباحًا، ثم يأخذ سيّارة النقل العام في شارع الاستقلال، من محطّة سيّارات النقل العام الواقعة أمام محل تصوير (ستوديو فيكي)، ليصل إلى وسط المدينة في تمام الساعة السادسة والنصف، ثم ليصل مشيًا إلى استقبال فندق (فيكتوريا بالاس) في تمام الساعة السابعة صباحًا.

هناك خلف مكتب الاستقبال يقف منتصب القامة، ليكون مستعدًّا لتحيّة نزلاء الفندق، أثناء ذهابهم إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الإفطار. أثناء وقوفه الطويل خلف منضدة الاستقبال، يلقي بين لحظة وأخرى بنظرة على مدخل الفندق، وصولًا إلى الشارع الأسفلتي، في انتظار وصول أي عميل جديد، فبمجرّد أن يلمح سيّارة تتوقّف أمام باب الفندق، فالذي ينزل منها هو بالنسبة له عميل محتمل، فيمسك الجرس الصغير في يده لينبّه به عمّال نقل الحقائب، الذين يرتدون زيًّا موحَّدا، ليتحرّك أحدهم في اتجاه الشارع والسيّارة، ليحمل الحقيبة عن العميل، ويضعها أمام منضدة الاستقبال في انتظار معرفة رقم الحجرة، فبعد تسجيل بيانات العميل في دفتر النزلاء المخصّص لذلك، يقدّم والدي مفتاح الحجرة إلى العامل، الذي يصعد مع النزيل بالحقيبة إلى حجرته.

كان بابا روجر يسعد كثيرًا كلّ مساء على مائدة العشاء، عندما يحكي لنا بالتفصيل عن كل العمل الذي قام به خلال اليوم، مما كان يصبح أحيانًا حديثًا مملًّا بسبب التكرار. لم يكن بابا روجر يستطيع إخفاء ما يشعر به من فخر شديد، بهذه الوظيفة البسيطة في هذا الفندق. إلا أن أمي كانت تقاطعه أحيانًا وتصدمه بقولها إنه ليس هناك ما يدعو إلى كلّ هذا التشدّق الفارغ، فيتوقّف عن مضغ الطعام، ويقول إنه يعتبر نفسه أهم موظّف في الفندق، فإنه هو وحده فقط الذي يحدّد أي غرفة يشغلها أيّ زبون.

يقول: «عندما يكون العميل من بين أولئك الذين تبدو على رؤوسهم علامات البلاهة، وهم كثيرون بين السيّاح الأوروبيين القادمين إلى بلادنا في إجازات قصيرة، ففي هذه الحالة أنا لا أعطي لهذا الزبون الأبله واحدة من الغرف الجميلة المطلّة على الحديقة؛ لأني أحتفظ بهذه الغرف للعملاء الأذكياء، الذين أحبّهم وأقدّرهم، وهم يبادلونني نفس المحبّة والتقدير. قد يحدث أحيانًا أن أعطي غرفة سيّئة لنزيل جديد لا أعرفه، يتبيّن لي بعد بضعة أيام من إقامته في الفندق أنه يتصرّف بلطف وذوق معي، يمكنني في هذه الحالة أن أنقله إلى غرفة جيّدة. هذا النوع من النزلاء غالبًا ما يترك لي إكرامية كبيرة يوم مغادرته الفندق».

عند عودة بابا روجر من العمل في حوالي الخامسة مساءً، كان غالبًا ما يحمل معه بعض الجرائد الأسبوعية الفرنسية، ثم بعد العشاء يظلّ جالسًا إلى مائدة الطعام، وهو يفتح أمامه صفحات من هذه الجرائد، ثم يبدأ في قراءة الأخبار بصوت مرتفع.

يقول: «من المستحيل أن أصدّق كلّ ما أقرؤه الآن بعينيَّ هاتين، ولا أعرف لماذا يفعلون هذا؟ من المؤكّد أن هؤلاء الفرنسيين مجانين».

خلال عطلة نهاية الأسبوع يبقى بابا روجر في المنزل، مرتديًا منامة بيضاء بخطوط طولية حمراء، ويضع قدميه في مداسين بلون بنّي، يكونان غالبًا من مقاس واسع على قدميه الصغيرتين، وهو يذكّرنا كلّ مرّة بأن هذين المداسين كانا هديّة من مدام جانيت رئيسته في العمل.

يقول: «مهما كانا واسعين أو ضيّقين، سأضع قدميَّ فيهما، فالهديّة لا تُرَدُّ، وأعتقد أنهما فريدان في نوعهما، وليس لهما نظير في كل حوانيت المدينة، ولو أنهما لأحد غيري لاختار من فرط جمالهما، أن يذهب للتنزّه بهما في جميع طرقات المدينة؛ لاستعراضهما أمام كلّ الناس،

ولكني لا أستعملهما إلا أثناء وجودي في المنزل، جالسًا هنا أقرأ الجرائد، فهذا هو ما يفعلونه بهما في أوروبا».

في إجازة نهاية الأسبوع، يخرج بابا روجر إلى فناء المنزل، وهو يحمل كومة كبيرة من جرائد الأسبوع معه، يضعها إلى جوراه ويضع فوقها حجرًا حتى لا تطير في الهواء. في أحيان كثيرة ينسى فنجان القهوة الموضوع إلى جواره بسبب انهماكه في القراءة وتقليب الصفحات. هو يمسك بقلم أحمر في يده اليمنى، ويبدأ في وضع خطوط وعلامات به على الصفحات، إلى جوار أو أسفل العبارات التي يستحسنها. فجأةً يتوقّف عن القراءة وينظر نحوي، في المكان الذي أجلس فيه تحت شجرة المانجو أستظلّ بها.

يقول: «إذا كنت تريد أن تقرأ معي، تعالَ إذَنْ هنا إلى جواري».

فأندفع على الفور نحوه؛ لأني أنتظر هذه اللحظة بفروغ صبر. هنا يبدأ في إعادة قراءة كل العبارات التي أعجبته، ووضع تحتها أو إلى جوارها خطوطه الحمراء بصوت مرتفع، وهي العبارات التي كان يسمّيها (أخبار العالم).

هكذا تعلّمت نُطق أسماء كل دول العالم، مهما كانت معقّدة التركيب، وأسماء كل رؤساء جمهوريّاتها أو ملوكها، وهكذا بدأت أشعر أن كل هذه الدول في أوروبا وآسيا وأمريكا، وحتى في جزر المحيطَيْن الهادئ والأطلنطي، هي أماكن قريبة منّي، مألوفة ومعروفة لي، ولم تعد بالنسبة لي أبدًا أراضيَ بعيدة غريبة عنّي. كانت آثار القلم الأحمر توجد بالقرب من كل الكلمات التي أجدها صعبة، أو أعتبرها جديدة على قاموس مفرداتي الفرنسية.

يقول: «كل هذه الكلمات المحاطة بعلامات حمراء، هي الكلمات التي سأبحث عن معانيها يوم الاثنين، في القاموس الذي لدينا في الفندق، إذ إنه يجب أن أتعلّمها جيّد، حتى أضيفها إلى المفردات التي أستعملها في حواري مع النزلاء، عندما يكون استعمالها ضروريًّا».

ثم التَقَطَ كلمتين أخريين بقدر من الغضب، ووجدته يتشكّى قائلًا:

«لا أعرف السبب الذي من أجله يستعمل الناس كلمات معقّدة لا يفهمها أحد، في حين أنه من التي تعني (ما قبل *antediluvian* الممكن استعمال كلمات بسيطة سهلة، على سبيل المثال كلمة التي تعني (الأسفار غير القانونية) *apocryphe* الطوفان) والمقصود طوفان سيّدنا نوح، أو كلمة والمقصود بها الأسفار التي ليست موجودة في التوراة».

وبسبب إحساسه بالمهانة لعدم معرفته بمعنى هاتين الكلمتين، انتقل إلى صفحة أخرى من الجريدة خاصة بأخبار العالم، واستمرّ يتحدث بنفس النبرة المتذمّرة.

قال: «إن الفرنسيين مجانين، وأتساءل لماذا لا يكتبون أبدًا عن الأخبار الآتية من أفريقيا؟ هم يكتبون عن الأخبار الآتية من كل أنحاء العالم باستثناء أفريقيا، حتى عندما يقع انقلاب عسكري في بلادنا، لا تجد كلمة عنه في أي صحيفة فرنسية، رغم أننا بفضل هذا الانقلاب الذي وقع منذ أسبوع، تخلّصنا من الديكتاتور ماريان نجو وابي، ومع ذلك فلا توجد كلمة واحدة عن هذا الحدث الهام، رغم أن الفرنسيين غالبًا هم مَن يقفون وراء هذه الانقلابات».

وبما أنني لا أعرف كيف أعلّق على هذه الأحداث، فقد استأنف هو الكلام.

قال: «أنا أقولها لك يا صغيري: إنهم لا يتحدّثون عنّا في جرائدهم؛ لأننا بلد صغير الحجم، لذلك فهم ينسونه، أو هم لا يرونه أصلًا، أو هم لا يريدون أن يروا فيه إلا علامات الفقر والمجاعة والحروب الأهلية والبعوض، رغم أن في بلادنا أشياء أخرى كثيرة يمكن الكتابة عنها، يكفي أن نفتح الأعين والآذان للرؤية والسمع. لكن هذه هي طبيعة الأشياء، فكما أنه من بين كل أسماك المحيط الصغيرة الحجم، لا يهتم الناس إلا بالأسماك الكبيرة من حيتان وأسماك قرش التي تأكل الأسماك الصغيرة، فالجرائد لا تهتم إلا بأخبار البلاد الكبيرة وهي تأكل البلاد الصغيرة».

عندما لاحظت أمي أن ما يقوله لي بابا روجر يثير اهتمامي، بدأت تشعر نحوه بقدر من الغيرة، ثم بدأت هي الأخرى تبدي اهتمامًا بقراءة الجرائد، فبمجرّد أن يغادر بابا روجر مكانه في فناء الدار، حيث كومة الجرائد، تحلّ هي محلّه، وتدسّ أنفها في الصفحات، ثم تقول لي:

«لا تزعجني؛ فأنا كما ترى أقرأ الجرائد».

تذكّرني صورتها تلك في ذهني بلوحة الفنّان الفرنسي العالمي (فراجونار) المسمّاة (القارئة). كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف أن أمّي تجيد القراءة، كيف استطاعت أن تخفي عني هذه الحقيقة طوال تلك المدّة؟

ظلّت جالسةً أمامي تقرأ لبعض الوقت، وكان باديًا عليها التركيز الشديد فيما تقرأ، لكني لاحظت أنها تنظر إلى حيث أجلس بطرف عينها، بين لحظة وأخرى لتتأكّد أنني لا أزال أنظر إليها بإعجاب. في يوم آخر قامت بفعل نفس الشيء، أيّ حلّت محلّ أبي روجر إلى جوار كومة

الجرائد، وجلست تقرأ بتركيز شديد، فاقتربت منها لأعرف ما الموضوع الذي يشدّ انتباهها وتقرؤه بكل هذا التركيز؟

مفاجأة كبيرة، أمي تمسك في يدها بصفحات الجريدة مقلوبة. لم أتردّد في أن أذكر لها هذه الملحوظة التافهة، وعلى وجهي ابتسامة سخرية. أما هي فلم تفقد ثباتها، رغم ما في هذه الملحوظة من إهانة واضحة، ثم نظرت إليَّ باحتقار قبل أن تقول:

«هل تعتقد أنني أنا بولين كينجويه ابنة جريجوار موكيلا وهنرييت نسوكو، قد أصبحت مجنونة إلى درجة قراءة الجريدة مقلوبة الصفحات؟ لقد فعلت هذا متعمّدة، كنت أختبرك، حتى أعرف إن كنت ستدرك وحدك هذه الحيلة، التي ما قصدت بها إلا اختبار قدراتك القرائية. يجب ألَّا تظنّ أنك أنت وحدك في هذا البيت القادر على القراءة».

ظلّ فندق (فيكتوريا بالاس) باقيًا كما هو، دون إحداث أي تغييرات خارجية فيه، طوال فترة عمل والدي فيه، مع بعض الاستثناءات البسيطة مثل تركيب أجهزة تكييف فوق نوافذ الحجرات يمكن رؤيتها من الخارج، ثم إضافة هوائيات التقاط البثّ التلفزيوني عبر الأقمار الصناعية يمكن رؤيتها فوق سطح البناية.

يقع هذا الفندق في موقع ممتاز، في وسط القلب التجاري للمدينة، وهو ليس بعيدًا عن الشاطئ المهجور للمحيط الأطلنطي، وليس بعيدًا عن المحطّة المركزية لقطارات السكك الحديدية. قرأت أنه كان قد تمّ افتتاحه في سنوات نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، وهو بذلك يعتبر أحد أقدم فنادق مدينة (الرأس الأسود) (بوانت نوار).

منذ سنة *Ginette* كان مالكه الأصلي مسيو ترووييه، قد عيّن لإدارته مدام جينيت برواشو 1965، ثم أصبحت هي مالكة الفندق منذ سنة 1975. وقف الفندق بمعماره التقليدي -طوال سنوات الأربعينيات والخمسينيات- يراقب بقدر من الوقاحة، البنايات الأخرى التي ظهرت لاحقًا في نفس الشارع، أو في الشوارع المجاورة، خلال العقود المتتالية. الفرق الأساسي هو أن بناية فندق (فيكتوريا بالاس) هي من الأسمنت المسلّح، وليست به أي عناصر معمارية معدنية، مثلما حدث في البنايات اللاحقة. أما الفرق الثاني فهو أن واجهة (فيكتوريا بالاس) مستديرة ناعمة، في حين كانت الواجهات الأخرى مستقيمة حادة قاطعة.

لم أجرؤ أبدًا ولا مرّة واحدة، ولا في الماضي ولا في الحاضر، على ولوج بوّابة مدخل الفندق، كما لو أنني كنت أخشى أن يكون ظلّ أبي روجر لا يزال واقفًا هناك عند منضدة الاستقبال، كامنًا متربِّصا حتى يمنعني عند اللزوم من البحث عن ماضيه، وعن الأثر الذي تركه في نفسيّتي هذا الفندق، خلال عمله به لسنوات طويلة. إن ماضي والدي هو بطريقة غير مباشرة يخصّني أنا أيضًا.

أفكّر دائمًا فيما كان يقوله لي بقدر من الفخر والاعتزاز، إنه كان يُعتبر عميد موظّفي ومستخدمي هذا الفندق، وأكثرهم إخلاصًا لمالكه أو مالكته. كان دليله على ذلك هي المزايا التي اختصّته بها مدام جينيت، التي لم ترفع صوتها أبدًا عليه، رغم أنها كانت عادةً ما تستعمل هذا الصوت المرتفع في توجيه ملاحظاتها إلى جميع موظّفي الفندق.

كانت أمي تعتقد أحيانًا أن أبي روجر يخفي عنها حقيقة ما يحصل عليه من مرتّب، إلا أن ما كان يحدث هو أن أبي كان يطلب أحيانًا من مدام جينيت دفعات تحت الحساب، كما أنه كان يحصل أحيانًا على إكراميات كبيرة من بعض الزبائن. ثم نجح أبي في الحصول لخالي (جان بيار) على وظيفة في قسم خدمة الغرف، ثم نجح كذلك في أن يحصل لي ولأخي غير الشقيق من زوجته الأولى، على وظيفتين لغسل الصحون في مطابخ الفندق خلال واحدة من إجازاتنا الصيفية.

ثم كانت المفاجأة الكبرى وهي أن مدام جينيت، عندما أرادت أن تحصل على إجازة طويلة في فرنسا، تركت كل الشؤون الإدارية في يد أبي روجر، وهو ما يؤكّد ثقتها التامة فيه. تحوّل أبي روجر بين يوم وليلة، إلى خليفة حاكم شديد البأس، في دولة عظمى تمتدّ حدودها إلى ما وراء البحار. تحوّل طبعه الهادئ الكريم إلى طبع شرس، وأدار الفندق بيد من حديد. كان يعنّف العاملين على أخطاء تافهة، مثل أن يحدث في الزيّ الموحّد لأحدهم بعض الانبعاج البسيط، أو أن يتأخر البستاني في ريّ أزهار الحديقة.

لم يكن يبخل على العاملين باستعمال كلمات الإهانة والتعنيف، وألفاظ السباب التي كانت تسيء كثيرًا إلى البعض منهم، كأن يتهم البعض بالجهل أو بالأمية الثقافية، والأدهى هو استعمال لفظ من السباب يشير إلى كون الشخص قد ولد سفاحًا، غير معروف الأب أو الأم. كان قد استعمل كراسة صغيرة، يحملها في يده أينما ذهب، ليسجّل فيها أسماء المخطئين، ونوعية الأخطاء التي ارتكبوها، راغبًا في عرضها على مدام جينيت عند عودتها، بهدف أن توقع هي

بنفسها على كلّ منهم عقابًا شديدًا. لم يعد لدى العاملين في الفندق إلا رغبة واحدة هي سرعة عودة مدام جينيت من إجازتها، حتى يتخلّصوا من هذا القهر المستمر وهذا التعنيف.

قالوا: «إن التعنيف القادم من فمّ زنجي، أشد قسوة من نفس هذا التعنيف لو أنه قادم من فمّ امرأة بيضاء».

إلا أن عودة مدام جينيت قد جاءت معها بمفاجأة غير سارة، وهي حضور والدها معها من فرنسا للإقامة بصفة دائمة في الفندق لفترة طويلة غير محدّدة. اعتقد أبي روجر أنها تعمّدت أن تفعل ذلك، حتى يكون والدها رقيبًا دائمًا على مستوى أداء كل مستخدمي الفندق، حتى لو فاتت عليها هي شخصيًّا بعض الهفوات. لم يعد أبي روجر يقصّ علينا الطرائف والنوادر والدعابات والفكاهات، التي اعتاد أن يحكيها لنا عمّا يدور في أبهاء الفندق، بل أصبح حزينًا جدًّا. لم يكن أبي قادرًا على تحمّل هذا الموقف، أي أن يكون طول الوقت تحت المراقبة.

كان والد مدام جينيت متقدًّما في السنّ، لكنه رغم ذلك كان ذا عينين يقظتين. المصيبة هي أنه كان يجلس من مطلع النهار حتى مقدم المساء، على أحد الكراسي المريحة في قاعة استقبال الفندق، يلاحظ حركة الدخول والخروج، وبالتالي كان أبي دائمًا في مرمى بصره. قال أبي: «لقد ضاق الفندق على مَن فيه، حتى أن المحيط المتاح للحركة حول منضدة الاستقبال قد ضاق هو الآخر، والفندق بسبب هذا الوجود الجديد لذلك الدخيل المتطفّل السخيف، قد فقد طابعه الودّي الأليف».

لم يعد لأحد الحق في الحصول ولا حتى على تفّاحة واحدة، يحملها في يده ويقضمها براحته، أثناء ساعات وقوفه الطويل خلف منضدة الاستقبال. لم يعد لأحد الحقّ في الحصول على الجرائد الفرنسية، التي اعتاد النزلاء الفرنسيون تركها في غرفهم أو على موائد قاعة الاستقبال، بل ينبغي أن تظلّ في الفندق إلى أن يُلقى بها في صفائح القمامة. الأدهى هو أن ذلك الرجل المسنّ كان يصرّ على الوقوف إلى جوار أبي روجر عند وصول نزيل جديد، لينصت إلى كيف يدور الحوار بين أبي والنزيل.

قال: «كل الأيام يجلس هناك ليراقبنا، ثم ينقل كل المعلومات إلى ابنته، التي تأتي إلينا واحدًا واحدًا لتؤنّبه، كما لو كنّا لا نزال في مرحلة الطفولة».

كانت أمي لا تعرف ما تردّ به عليه. لم تكن تفهم ما الذي يضايقه بالضبط. لذلك لم تجد نفسها مضطرّة إلى الردّ عليه.

قالت أمي: «بعد كل شيء إنه فندق ابنته، وبالتالي هو فندقه».

أبي: «هي التي أعطتنا هذه الوظائف وليس هو. على أي الأحوال لا يمكن لهذا الوضع أن يستمرّ لفترة طويلة، لذلك نحن نعدّ خطّة للردّ بها عليه الأسبوع القادم».

هذه الخطّة التي أعدّها أبي بالتواطؤ مع عدد كبير من العاملين في الفندق، بدأوا في تنفيذها صباح يوم الاثنين، بعد مناقشات حادة في مساء اليوم السابق، لإقناع عدد من العاملين الجبناء بالانضمام إليهم، لكنهم خافوا من مغبّة الذهاب بعيدًا في خطّة الانتقام، وهو ما قد يؤدّي إلى فصلهم جميعًا من وظائفهم، دون الحصول على مكافآت نهاية الخدمة. أما أبي فقد تمسّك بخطّته ورفض أن يتراجع حتى لو كانت النتيجة فصله من الخدمة، فهو لم يعد يحتمل هذه المراقبة المستمرّة الواضحة.

أحضر أبي روجر إلى الفندق في سرّية تامة نوعًا من الأعشاب ذات أشواك دقيقة الحجم، لدرجة أنه لا يمكن رؤيتها بالعين البشرية المجرّدة، أما لو أمكن فحصها تحت المجهر، فستظهر صورة كتيبة كاملة من جنود يحملون أسلحة تنتهي بإبر حادة، مرتّبة في صفوف متتالية منظمّة، لها خاصية أنها عند ملامستها لجسم غريب عنها، تنتفض وتقف مستعدّة للانفصال عن جسمها الأصلي، وتلتصق بالجسم الجديد الغريب عنها.

كان الفلاحون في بلادنا يزرعون هذه الأعشاب على حواف الحقول، بغرض صدّ الاعتداءات المحتملة على محاصيل الحقول، من طرف الحيوانات الباحثة عن غذاء، أو من طرف لصوص الفواكه والخضراوات. ولو حدث لك بالصدفة البحتة، أن التصقت هذه النهايات الإبرية بجلدك، فإيّاك أن تحاول مقاومة الحكّة والأكلان بالهرش في المكان، وذلك لأنك كلما هرشت في المكان، كلما زاد الانغماس الإبري في الجلد، وهكذا تستمرّ المعاناة لساعات طويلة.

قام أحد مساعدي أبي بعد أن وضع يديه داخل قفّازين، بنشر الأشواك المسنّنة فوق المقعد المريح حيث يجلس الدخيل. نزل الرجل العجوز من غرفته على قدميه باستعمال السلّم، وهو يرتدي سروالًا قصيرًا من نوع البرمودا، يقف عند منتصف الساقين، ووفقًا لجولته اليومية المعتادة، قام أولًا بالمرور على المطعم للتأكّد من نظافة الموائد واحدة واحدة بعد انتهاء النزلاء

من وجبة الإفطار، ثم جلس ليتناول إفطاره، ثم بعد ذلك اتجه مباشرة إلى مقعده الأثير في قاعة الاستقبال، وألقى بجسده عليه وهو يفرد ساقيه أمامه ويغمض عينيه.

لم يدم وضع الاسترخاء هذا إلَّا بضع ثوانٍ، بعدها قفز الدخيل من على مقعده، مثل حيوان برّي متوحّش وسقط على الأرض. بدأ في دعك وهرش ساقيه وفخذيه دون توقّف، ثم بدأ في فرك يديه وبشرة وجهه، وبذلك انتشرت الأشواك الإبرية في جسده كله. كان يصرخ حتى تجمّع حوله كلّ موظّفي الطابق الأرضي، ثم وصلت ابنته التي بدت على وجهها ملامح نظرة مرعبة. قالت: «لتذهبوا به فورًا إلى المستشفى؛ قد يكون مصابًا بمرض من الأمراض الاستوائية المعدية».

وصلت سيّارة الإسعاف إلى مدخل الفندق، وصوت صفيرها المزعج يطنّ في كل الأنحاء، فقام ثلاثة من موظّفي الطابق الأرضي بمساعدة الدخيل على الوصول إلى السيّارة، ولم تلاحظ مدام جينيت أنهم قد وضعوا جميعًا أياديهم في قفّازات واقية. لم يعد موظّفو الفندق يرون الدخيل بعد ذلك أبدًا، لا في قاعة الاستقبال ولا في أي مكان آخر بالفندق. وهكذا استردّ بابا روجر نفوذه المسلوب، وسيطرته التامة على المكان التي كادت أن تضيع. عندما عاد إلى المنزل في ذلك اليوم، وقصّ علينا ما حدث، كانت ملامح وجهه تدلّ على سعادة غامرة.

عند عودتي هذه المرّة إلى (الرأس الأسود)، مررت إلى جوار الفندق ثم ألقيت نظرة على داخله، فوجدت شخصًا يتابعني ببصره من الداخل، فابتعدت سريعًا عن المكان؛ لأنني أريد أن أقطع صلتي تمامًا بالمكان. ربّما اعتقد مَن بالداخل أنني عميل محتمل، بفضل أناقة ملابسي ومظهري، أو أنني أقارن بين هذا الفندق وفندق (أتلانتيك بالاس) الواقع في المواجهة. آخر معلومات حصلت عليها هي أن مدام جينيت باعت الفندق لشركاء كونغوليين، وعادت إلى فرنسا، وهي الآن قد تخطّت سنّ التسعين.

(6)

امرأة الجوار

هل عرفت حقًّا هذا الرجل (روجر) الذي كنت أناديه بأبي؟ كان هذا الرجل قد مات سنة 2005، أي بعد عشر سنوات من رحيل أمي (بولين). بقدر ما كان هذا الرجل قريبًا مني، بقدر ما أشعر أحيانًا أنه كان غريبا عني. كان قريبًا مني لأنه اهتمّ برعايتي أثناء طفولتي، كما لو كان فعلًا أبي الحقيقي، وحاول أن يجنّبني حمل الهموم، وأن يحميني من أي انحرافات محتملة، بل أستطيع أن أقول إنه كان يقوّي في داخلي العزيمة؛ حتى أتمكن من استئناف الطريق الذي قادني إلى تحقيق أحلامي.

إلا أنه كان كذلك غريبًا عنّي، فليس هو أبي البيولوجي، أي الرجل الذي منح أمي بذرة وجودي. هذا بالإضافة إلى أنني لم أكن أعرف عن حياته إلا أقلّ القليل. فأنا مثلًا لم أقابل أبدًا أي شخص من عائلته، ولم أعرف أحدًا من أقربائه. ثم إن ما حدث في دار عموديّة (الرأس الأسود)، هو أنه كان قد تمّ إبراء ذمّة أمي من علاقتها الزوجية بمَن كان والدي الحقيقي، إلا أن أحدًا في نفس دار العمودية لم يتخذ أيّ إجراء رسمي لتسجيل عقد زواج جديد بين أمي وأبي روجر. لم يكن هناك بينهما إلا اتفاق شفهي على المشاركة في الحياة، تحت سقف نفس المنزل، وعلى تحمّل مسؤولية رعاية نفس الطفل (أنا).

كانت تقاليد المجتمع الكونغولي في ذلك الوقت من خمسينيات وستّينيات القرن العشرين، تسمح بهذه المشاركة الحرّة، دون أن تتدخّل الدولة بفرض شروط من أيّ نوع أو توقيع وثائق رسمية، أو حتى النطق بجمل معيّنة أمام شهود. لا شيء على الإطلاق بل حرّية تامة في الارتباط.

في الواقع كان الكونغوليون من سكّان (الرأس الأسود)، قد بدأوا في ذلك الوقت في الذهاب إلى دار العمودية لتسجيل عقود القران أمام الموظّفين الرسميين من ممثلي السلطات المدنية المحلية، إلا أن عجائز المجتمع الكونغولي كانوا يقولون: «إن هذا ما هو إلا تقليد أعمى لما يفعله البيض، وإن هذه الأوراق الرسمية لا تعني أي شيء في نظر المجتمع التقليدي». الشيء الوحيد الذي كانت له قيمة في نظرهم، هو أن تعطي وعدا للأسلاف تلتزم به برعاية المرأة وأبنائها، ذلك دون أي أوراق أو توقيعات، فالأسلاف لا حاجة لهم إلى مثل هذه الأوراق التي

يمكن تمزيقها في أي وقت، في حين أن الكلمة المنطوق بها أمام الأسلاف، حتى في غياب الشهود، لا يمكن تمزيقها.

إذَنْ لم يكن والدايَ متزوّجين بشكل رسمي. أعتقد أن هذه هي أيضًا حالة ماما (مارتين) الزوجة الأولى لبابا روجر، فهي الأخرى لم يكن لديها عقد زواج مع بابا روجر، رغم أنهما أنجبا معًا ثمانية أطفال. كانت تلك المرأة الأخرى هي المنافس الشرعي لأمي. بالمناسبة إن كلمة (منافس) في اللغة الكونغولية هي نفس الكلمة المستعملة للتعبير عن (الزوجة الأخرى). في الحقيقة كانت ماما (مارتين) قادرة على أن تطالب بحقوق أكثر مما كان يمكن لأمي أن تفعل، وذلك بفضل أنها أنجبت له ثمانية أطفال، في حين أن أمي لم تنجب له ولا حتى طفلًا واحدًا.

عندما أنظر الآن إلى الوضعين المختلفين لهاتين المرأتين، أستطيع أن أرى بوضوح الفجوة بين الأجيال، فالأولى تنتمي إلى جيل الصور الأبيض والأسود، في حين تنتمي الثانية إلى جيل الصور الملوّنة بالألوان الطبيعية. كان الفرق في السنّ بينهما أكثر من عشرين عامًا، وهو ما كان كافيًا لتبرير الخلافات الكثيرة التي كانت بينهما، خاصة في اختلاف وجهات النظر حول الأشياء.

أما أبي روجر فقد فعل مثلما اعتاد أن يفعل الرجال الكونغوليون من أفراد جيله، الذين تزوّجوا بأكثر من امرأة، فهم يهجرون المرأة الأولى التي يتقدّم بها السنّ، ويشعرون معها بالملل وبرتابة الحياة، ويحصلون على زوجة ثانية لا تزال تتمتّع بالشباب والجمال، ويقضون بذلك على الملل ورتابة الحياة. إلا أن هناك بعض الرجال الذين لا يكتفون بزوجة ثانية مرّة واحدة، بل يستمرّون في إضافة زوجات جديدات إلى حريمهم، طالما كانوا قادرين ماديًّا على ذلك. أبي روجر مثلًا كان مضطرًّا إلى دفع مصاريف البيتين، بما في ذلك مصاريف الثمانية أطفال من زوجته الأولى.

وقد اعتاد الرجال الكونغوليون المقتدرون، على الاستمرار في إنجاب الأطفال إلى ما لا نهاية، حتى يصل الأمر ببعض الرجال منهم، إلى عدم معرفة عدد الأطفال الذين أنجبهم الواحد منهم من نسائه العديدات، وعدم القدرة على التمييز بين هؤلاء الأطفال أو حتى معرفة أسمائهم. وهكذا أصبح الرجال الكونغوليون مضطرين أحيانًا إلى قبول أن تعمل الزوجات في مهن مختلفة، بغرض المساهمة في مصروفات المنزل. هنا قد يحدث أن يفقد الرجل وظيفته، وبدلًا من أن يبحث لنفسه على وظيفة أخرى، قد يقضي الوقت في التسكّع في الطرقات، وفي التردّد على المشارب والحانات، لعلّه يقابل فيها فتاة شابة جميلة، تقبل أن تنضمّ إلى حريمه.

كانت أمي (مارتين) من النساء التقليديات اللائي يفضّلن البقاء في المنزل، حيث تنشغل بإعداد وجبات الطعام المختلفة لأولادها الثمانية، ولا تخرج إلا للذهاب إلى الأسواق لشراء مستلزمات الوجبات. لكني كنت أرى أنها منغلقة على نفسها، بدليل أنها رغم إقامتها الطويلة في (الرأس الأسود)، لم تتعلّم لغة أهل (الرأس الأسود)، بل استمرت في الحديث بلغة قبيلتها. كانت في نظري التجسيد الأمثل للمرأة القروية، التي تنتظر من زوجها أن يزوّدها بكل ما تحتاج إليه في الحياة، هي وبيتها وأولادها.

ووفقًا للعادات الشعبية، كانت أمي (مارتين) في حالة وقوع خلاف أو مشادة كلامية بينها وبين أبي روجر، تلجأ إلى الرجال العجائز من حكماء الحيّ، ذوي اللحى الرمادية غير المشذّبة، الذين يجلسون على قارعة الطريق، فيقوم معها الواحد منهم للذهاب معها إلى بيتها، للقيام بدور المصلح الاجتماعي بين المرأة الشاكية وزوجها، وفي نفس الوقت يمكنه أن يحتسي بضع أقداح من نبيذ النخيل مكافأة له، على هامش هذه الأمسية المبهجة.

أما أمي (بولين) فقد كانت أكثر توافقًا مع الذوق العام، رغم أنهم كانوا يعتبرونها غالبًا أكثر جرأة من المعتاد، بالمقارنة بغيرها من النساء في نفس الظروف. كانت مثلًا تستطيع أن تخرج من المنزل في الوقت الذي تريد أن تخرج فيه، دون انتظار أن تحصل على الإذن بالخروج من زوجها. كانت تستطيع حتى أن تدخل حانة مليئة بالرجال، وهي لا تضع عينيها في الأرض أمام الرجال، بل ترفع رأسها وتنظر إلى الرجال في أعينهم، في مجتمع يعتقد أن المرأة هي مخلوق أدنى من الرجل، وأقل منه مكانة. كانت تتعمّد إذَنْ ألا تنحني أمام الرجال، بل تقصد بذلك أن تثير غيظهم، فإذا حاول أحد الرجال الإساءة إليها، قالت: «أنت رجل غير محترم؛ لأنك تخرج وحدك ليلًا إلى الحانات، وتترك زوجتك في المنزل، وهدفك من ذلك اصطياد امرأة».

وبفضل عقليّتها تلك المتحرّرة، أصرّت على أن تكون مستقلّة ماديًّا عن أبي روجر، لذلك استمرّت في العمل في الأسواق، في بيع الفول السوداني والموز، وهو ما مكّنها لاحقًا من شراء قطعة أرض في (الرأس الأسود) في حيّ فونجو، ما اعتبرته دائمًا أكبر إنجاز لها في حياتها. إلا أن أبي روجر لم تكن لديه نفس وجهة النظر فيما يتعلّق بالاستقلال المادي لأمي.

كان أبي روجر يقول: «لا يصحّ أن تكون المرأة المتزوّجة قادرة على كسب المال، وعلى شراء قطعة أرض، بل من المفروض أن تعتمد ماديًّا بشكل كلّي على زوجها».

أما أمي فكانت ترد قائلة: «إن هذا الوضع الاعتمادي للنساء على الرجال، هو الذي يشجّع الرجال على إهانة النساء والتعامل معهنّ كسلعة تُشترى وتُباع، وهنّ صامتات غير قادرات على الرفض أو حتى على الاعتراض».

بعد ذلك بسنوات، عندما كنت تلميذًا في ليسيه المدينة، وهي المدرسة الفرنسية التي لا يقومون فيها بتدريس مادة الدين، علمت أن أبي روجر بدأ في التردّد على امرأة ثالثة، فتساءلت إن كان يمكن اعتبارها منافسة لأمي؟ بدأ بابا روجر، رغم الانضباط المشهور به، في العودة متأخّرا جدًّا في المساء، وهو يقدّم لأمي الذرائع تلو الذرائع، التي كانت مع مرور الأيام قد بدت بوضوح تام متناقضة فيما بينها، مما أثار شكوك المرأتين (مارتين) و(بولين). هو مثلًا عندما يأتي متأخّرا عند (بولين) كان يدّعي أنه اضطر إلى المرور على (مارتين) لسبب عاجل والعكس صحيح. وفي جميع الأحوال هو لا يذكر لواحدة منهما السبب في قوله لماذا كان مضطرًّا إلى المرور على الأخرى.

استمر في هذه اللعبة لبضع أسابيع، ثمّ جاءت (مارتين) ذات يوم إلى منزل (بولين) وأخبرتها أن هناك امرأة ثالثة. هذا النوع من الحقائق لا يمكن إخفاؤه، بل إنه ينتشر بين النساء كالنار في الهشيم. اسم السيّدة سيليستين وكان أبي روجر قد تعرّف إليها مؤخّرا.

قالت (بولين): «هذا إذَنْ هو السبب في أنه لم يعد يلمسني منذ بضع أسابيع، حتى لو تشاركنا في نفس الفراش، وقد تولّدت لديَّ الشكوك بخصوص هذا الموضوع».

قالت (مارتين): «أنا أعرف أنه قد تقدّمت بي السنّ، وبالتالي لم أعد مغرية للرجال، الذين لا ينظرون عادة إلى النساء عندما يبلغن السنّ الذي وصلت إليه، أما أنتِ فلا تزالين شابة، وأنتِ أكثر جمالًا من سيليستين فلماذا يهجركِ من أجلها؟ ثم إنكِ تعملين وتكسبين نقودًا تنفقينها على بيتكِ وعلى ابنكِ، وبالتالي لا تكلّفينه الكثير من المال، بالإضافة إلى أنكِ لا تتسبّبين له في أي مشاكل، فنحن مثلًا أنا وأنتِ لم نتشاجر أبدًا».

كانت أمي مستعدّة دائمًا للدفاع عن أبي روجر، مهما كلّفها هذا من ثمن. لذلك فهي لم تصدّق قصّة المرأة الثالثة، واعتقدت أنها قصّة مختلقة، يُشيعها بعض الحاقدين الحاسدين عن روجر الناجح في عمله وفي زيجاته. لكن مع مرور الأسابيع كانت أمي تفقد بالتدريج ثقتها المطلقة تلك في أبي روجر؛ لذلك حاصرته ذات مرّة في المنزل، وهي تردّد عليه أنها تريد أن تعرف منه هو -وليس من أي شخص آخر- الحقيقة الكاملة لتلك الشائعات.

دافع عن نفسه قائلًا: «ما هذا الذي يحدث لكما أنتِ ومارتين، بحيث تجعلانني غير قادر على النوم لا هنا ولا هناك؟ بل حتى غير قادر على التنفّس، ولا أجد السلام لديكما. بهذه الطريقة أنتما تدفعانني إلى الذهاب بغير رجعة».

قالت أمي: «يمكنك إذَنْ أن تذهب للنوم لدى سيليستين، فأنا لن أقبلك في فراشي بعد الآن. أنت لم تكفك امرأتان، وأنا ماذا أفعل؟ هل تطلب مني مثلًا أن أبحث لنفسي عن عاشق؟»

قال: «يكفي هذا الآن يا بولين. ثم اسمحي لي أن أسألكِ، هل كل هذه الوقاحة هي بسبب أن هذا المنزل باسمكِ؟ هل تكونين بنفس هذه الوقاحة وتقدرين على إهانتي بهذه الطريقة، لو أن هذا المنزل كان باسمي أنا؟ إذا استمر الحال على هذا المنوال، فسأخرج ذات يوم ولن أعود أبدًا».

كان من عادة أبي روجر أن يعدل بين زوجتيه، فيقضي ليلة في منزل الواحدة، والليلة التالية في منزل الأخرى، وكان منزل (مارتين) أكثر اتساعًا ويتكوّن من أربع حجرات، حتى يكون كافيًا للأولاد الثمانية من أنصاف أشقّائي، ولكن ظهور المرأة الثالثة عكّر صفو أجواء المنزلين، فلم تعد أمي بولين مثلًا تتحدّث مع أبي روجر بنفس الطريقة، إذ كانت شرارة خلاف صغير، تكفي أحيانًا لإشعال نار كبيرة، دون أن يلاحظا وجودي داخل هذه النار.

وتعقّد الموقف أكثر فأكثر بين يوم وآخر، فقد اتفقت المرأتان مارتين وبولين على استعمال الأولاد كسلاح في هذه المعركة غير المعلنة، بينهما وبين المرأة الثالثة، فتمّ تكليف الأولاد بالقيام بزيارة المرأة الثالثة، وهكذا شاركت أنا في هذا الصراع، وقد حصلنا من الأُمّيْن على تصريح باستعمال كل الوسائل اللازمة لإصلاح هذا الخطأ الوشيك الوقوع، وهو ما أسميناه (حملة عقابية).

كنّا سبعة من الأولاد، أي أنا إلى جوار ستّة أولاد من أنصاف أشقّائي، عندما ذهبنا إلى منزل المرأة الثالثة، في فترة ما بعد الظهيرة، تلك التي لم نكن نعرف عنها أي شيء باستثناء أن اسمها هو سيليستين. عندما وصلنا أمام المنزل الذي تقيم فيه، وجدنا امرأة عجوزًا تقف أمامه، فاقتربنا منها وسألها (جاستون) أكبرنا سنًّا، إذا كانت تعرف امرأة شابة تقيم هنا اسمها سيليستين؟

أضاف قائلًا: «إذا كانت هي ابنتكِ، فنحن نريد أن نتحدّث إليها».

«ردّت علينا المرأة العجوز بقدر من الجفاء قائلة: «ماذا تريدون منها؟».

شعرت بجسد جاستون ينتفض من الغضب، ورأيت يده وهي تتكوّر وتنقبض، قال بنفس القدر من الجفاء: «هذه ليست مشكلتكِ أيتها المشاكسة العجوز، إلا أننا قد جئنا إلى هنا لنقول لابنتكِ إن عليها أن تهتم بسراويلها، لا بسراويل الآخرين، وأن عليها أن تتوقّف عن معاكسة والدنا، فإذا لم ترتدع فنحن ننوي أن نحطّم لها وجهها».

ثم تساءل: «ألا تشعر هي بالعار؛ لأنها تسلب رجلًا من زوجتيه وأطفاله؟».

قالت: «إذَنْ نفّذوا تهديداتكم الآن على الفور».

قال جاستون: «نحن لم نأتِ إلى هنا من أجل عجوز مثلكِ، بل من أجل ابنتك الشابة، ابعدي إذَنْ عن الباب حتى نستطيع أن ندخل ونتحدّث إليها، فإذا كانت تعتقد أنها تستطيع أن تختبئ منّا، فنحن سنبحث عنها حتى نجدها».

انفجرت العجوز في الضحك وقالت: «ليس هنا إلا سيليستين واحدة هي أنا. ماذا تنتظرون إذَنْ حتى تضربوني؟».

فوجئت بردّ فعل جاستون الذي تراجع خطوتين إلى الوراء، ثم التفت ناظرًا إلينا نحن الواقفين خلفه، ثم عاد لينظر إلى المرأة من جديد لبضع ثوانٍ، فانتبهنا إلى شَعرها الرمادي الدال على تقدّمها في السنّ، والى عويناتها ذات الزجاج السميك الدالة على معاناتها من قِصَر النظر، والى ملابسها الباهتة الألوان الدالة على كثرة الاستعمال، التي يتضح فيها أنها قد أعيدت حياكتها مرّات عديدة، لتناسب التغيّرات المتتالية في حجم الجسد. هذه المرأة هي نموذج للفقر والقُبْح. ثم إنها يمكن أن تكون جدّة لنا.

تلعثم جاستون وهو يسألها: «هل أنتِ حقًّا سيليستين؟».

وقد بدت علينا جميعًا علامات عدم التصديق. لكن قبضة جاستون كانت لا تزال مكوّرة، كأنه لا يزال مستعدًّا لتوجيه لكمة إلى شخصٍ ما.

قالت: «هل أنتم تريدون الاطّلاع على بيانات بطاقتي الشخصية؟ فإذا كنتم لا تزالون تريدون ضربي، فلتعلموا أنكم بذلك ستجلبون لعنات الأسلاف، على أنفسكم وعلى ذرّيتكم حتى نهاية الزمان».

فكّ جاستون قبضة يده والتفت إلينا قائلًا: «لا أستطيع أن أفعل هذا، أن أضرب امرأة متقدّمة إلى هذه الدرجة في السنّ. هل هناك من بينكم مَن لا يزال راغبًا في ضربها؟».

صرخت المرأة كما لو أنها كانت تأمرنا: «أقول لكم اضربوني الآن أو ارحلوا على الفور».

كانت متأكّدة 100% من أن أحدًا لن يجرؤ على ضرب امرأة عجوز متقدّمة في السنّ إلى هذه الدرجة. لم يتحرّك أحدٌ منا أدنى حركة، كأننا تجمّدنا. وجّهنا جميعًا أنظارنا إلى الأرض، كما لو أننا نشعر بالذنب.

عاد جاستون إلى الحديث معها بلهجة بدت فيها ملامح التهديد. قال: «لقد جئنا إلى هنا لتحذيرك، من أنك لو استمرّ دورانك حول أبينا روجر، فستكون نهايتك السيّئة على أيدينا، ولن نضع في الاعتبار مسألة تقدّمك في السنّ».

قالت: «أنتم تعتقدون أنني أدور حول أبيكم روجر، ولا ترون إلا أنني امرأة عجوز جدًّا ذات رائحة كريهة، لكن الحقيقة هي أن أباكم روجر هو الذي يدور حولي، لذلك أنصح كلّ واحد منكم، بالعودة إلى أمّه، ليقول لها إن الغلطة غلطتها؛ لأنها هي التي أهملت الاعتناء بالرجل، مما جعله يأتي إلى هنا بحثًا عن امرأة أخرى».

قالت: «صحيح أنني امرأة عجوز، لكني تعلّمت في شبابي كيفية إدارة رؤوس الرجال، حتى إن زوجي الأخير لم يستطع مقاومة إغراء البقاء إلى جواري في الفراش لمدّة شهر كامل، حتى رفتوه من وظيفته».

قولوا كذلك لأمهاتكم أن عليهنّ الاهتمام بوجبات الطعام التي يقدّمنها للرجل؛ لأن أباكم روجر عندما يأتي إلى هنا تكون علامات الجوع واضحة عليه كأنه لم يأكل منذ سنوات».

والآن إذا لم تخرجوا جميعًا على الفور من فناء منزلي، فسأخلع ملابسي كلها وأبدو أمامكم عارية تمامًا، لتروا بأنفسكم الجسد الذي فضّله أبوكم عل أجساد أمّهاتكم، لديَّ شعر أبيض كثيف في منطقة العانة يمكنكم البقاء هنا إذا أردتم أن تروه».

خرجنا من الفناء جريًا، ونحن نسدّ آذاننا بأصابع أيدينا، حتى لا نسمع المزيد من هذه الأقوال الفاحشة المخلّة بالحياء. عدونا مثل الجراء الصغيرة الخائفة، التي تضع ذيولها بين قوائمها الخلفية. استدرت لحظة واحدة لإلقاء نظرة أخيرة على هذه المرأة، فوجدت أنها فعلًا قد رفعت فستانها حتى عرّت مؤخّرتها، كما يحلو للعجائز أحيانًا أن يفعلوا أمام الأطفال.

.«قال جاستون: «لا تديروا رؤوسكم إلى الخلف، فإن هذا قد يجلب عليكم لعنة الأجداد

لاحقًا عرف أبي روجر بنبأ زيارتنا تلك لسيليستين، وقد روت هي عليه وقائع تلك الزيارة. بالتدريج قلّ ذهابه إليها. خاصة عندما لاحظ أنه مراقب طول الوقت بواسطة أحد أولاده الثمانية، وأن هناك دائمًا واحدًا منهم يتبعه أينما ذهب، لمعرفة إن كان لا يزال يتردّد عليها. بدأنا نحن .الأطفال نطلق عليها لقب (الساحرة)

بعد مرور شهر على زيارتنا لتلك الساحرة، انتهت تمامًا قصّتها، ولم يعد أحدنا يذكرها لا بالخير ولا بالشرّ. عاد أبي روجر إلى انتظامه الدقيق في مواعيد مغادرته المنزل صباحًا وعودته إليه مساءً، مرّة لدى أمي (بولين)، ومرّة لدى أمي (مارتين). عاد كذلك إلى عاداته التقليدية الخاصة بقراءة الجرائد الفرنسية الأسبوعية، في إجازات نهايات الأسابيع، وتركها مكوّمة فوق .المائدة، ولا يزال يعبّر عن دهشته من تجاهل الفرنسيين لأخبار أفريقيا في جرائدهم

(7)

الموت يلاحقه

إذا كان قد تولّد لديَّ الإحساس بأني لم أعرف أبي روجر معرفة جيّدة، فسيكون السبب الأول في ذلك هو أنه لم يتحدّث معي أبدًا عن الأسرة التي نشأ فيها، ولا عن الأصول العائلية لأبيه وأمه. لم أكن حتى أعرف إن كان والداه لا يزالان على قيد الحياة. أما السبب الثاني فهو أنني لم مسقط رأسه. لم يكن هذا الوضع يقلقني، بل في *Ndounga* أضع أبدًا قدميَّ في قرية (ندونجا) الحقيقة إن العكس هو الصحيح، فهذا الوضع كان يريحني. تفسير ذلك هو أنني خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة، كنت أزرع داخل نفسي بذور الكراهية نحو كل ما هو أبوي، بسبب أن أبي الحقيقي (البيولوجي) كان قد تخلّى عن أمي وهجرها تمامًا، في الوقت الذي كانت هي في أشدّ الاحتياج إليه.

كنت أعتبر أن أبي روجر هو كل شيء بالنسبة لي، هو أبي وهو في نفس الوقت جدّي، وهو كلّ مَن أحتاج إليه ليمثّل فرع الذكورة في شجرة عائلتي، الفرع الذي استطاع مقاومة فِعْل الرياح فيه، وتمكّن بالتالي من طرح الثمار في كل المواسم، ولذلك توقّفت تمامًا عن البحث عن أبي الحقيقي الذي ترك بذرته في رحم أمي، وتوقّفت كذلك عن البحث عن أسلافي من جهة الأب.

بفضل أبي روجر كانت طفولتي هنيئة، تغطّيها طبقة رقيقة من أريج عطر التفّاح الأخضر الذي كان يحمله إلينا في نهاية الأسبوع من عمله في الفندق. أن تأكل تفّاحة في كونغو الستّينيات والسبعينيات، كانت ميزة لا تعادلها أي ميزة أخرى، فالتفّاح كان الفاكهة الغرائبية الأكثر إثارة للدهشة؛ لأنه ليست لدينا في أفريقيا الاستوائية أشجار التفّاح، التي تحتاج إلى مناخ بارد حتى تطرح ثمارها.

عندما كنت أقضم التفّاحة بأسناني، كانت تنمو لي أجنحة تنقلني إلى أماكن بعيدة مجهولة. كنت قبل أن أقضم التفّاحة أستنشق أولًا عطرها وأنا مغمض العينين كأنني أرتشف رحيق أزهار، ثم أقضمها بسرعة وشراهة كأنني أخشى أن يحضر أحدٌ ليشاركني إيّاها ويفسد عليَّ متعتي التي كانت تستمر وأنا التهم البذور؛ فإن أحدًا لم يعلّمني أن أترك أي بقايا من هذه الثمرة المحرّمة.

كان أبي روجر يجلس في مواجهتي أثناء التهامي التفّاحة، وتظلّ الابتسامة على شفتيه، وهو يعرف أنه يستطيع أن يحصل مني على أي شيء من الممكن أن يطلبه أب من ابنه، طالما أنه

يقدّم لي هذه التفاحة الواحدة ولو مرّة واحدة في الأسبوع. كنت أصبح أكثر الأطفال ثرثرة أثناء التهام التفّاحة، رغم أن طبيعتي الحقيقية هي أقرب إلى التحفّظ، وهكذا أدركت أمي حجم التلف الذي يحدثه أكل تفّاحة في طباعي المتحفّظة.

ذات مرّة غضبت مني أمي بشدّة غضبًا دفعت أنا ثمنه، وتظلّ حتى الآن ذكرى هذه الواقعة، هي واحدة من أتعس ذكريات طفولتي التي غلب عليها طابع السعادة والهناء العائلي.

قالت: «لقد حكيت لأبيك روجر قصّة ملفّقة، أنت السبب فيها بتلك الثرثرة المعتادة أثناء التهامك التفّاحة. سينتهي بي الأمر إلى الاعتقاد أن داخل ثمار الفاكهة، يوجد مشروب كحولي يفقدك الوعي، لذلك أنا أميل إلى أن الحلّ هو في منعك من التهام التفّاح».

قلت: «أنا لم أفعل أي شيء».

قالت: «إذَنْ ما هذا الذي قلته لبابا روجر بخصوص خروجي مساء أمس مع شخص ما؟ أنا لن أعدّ لك وجبة العشاء هذا المساء، ابحث لنفسك عن طعام يناسبك، قد يكون هذا عقابًا كافيًا، لتتعلم درس ألا تنطق بأكاذيب».

الحقيقة هي أنني كنت فعلًا قد تهوّرت أثناء حديثي مع أبي روجر، عندما همست له في أذنه، أن شخصًا طويلًا نحيفًا، كان قد جاء إلى المنزل في غيابه، فخرجت أمي للقائه في فناء الدار، حيث تحدّثا فيما بينهما لبعض الوقت، وأنهما قد خرجا معًا من فناء الدار، وذهبا إلى الحانة الموجودة في الحيّ لاحتساء قدح ما. كان هذا كافيًا ليدير رأس أبي روجر، وليذهب على الفور إلى أمي بولين يطلب منها تفسيرًا لما حدث.

قال: «كانت لديَّ بعض الشكوك بخصوص هذا الرجل المدعو مارسيل، وكنت أعتقد أن قصّتك مع هذا السخيف قد انتهت... كم كنت أحمق وأبله».

ثم رفض أن يتناول مع أمي العشاء، وذهب مباشرة إلى فراشه لينام فيه. كانت أمي قد تعرّفت بمارسيل في نفس الوقت الذي تعرّفت فيه بأبي روجر، إلا أن شهرة مارسيل بكثرة علاقاته النسائية جعلت أمي تختار روجر. كان مارسيل الطويل النحيف من نوع الرجال الذين تفضّلهم النساء. ووفقًا لما قالته أمي فهي لم تكن في أي وقت على علاقة جنسية بهذا المارسيل. في فناء المنزل أمسكت بحفنة من تراب الأرض في قبضة يدها اليمنى ثم نثرتها في الهواء، وهو ما يعتبر في أعرافنا المحلّية، قسمًا بقول الحقيقة ولا شيء آخر غير الحقيقة، يشهد عليه الأسلاف.

على حدّ علمي لم يحدث أبدًا أن استعمل أحد أفراد قبيلتنا هذا القسم وهو يكذب، إذ إن مَن يجرؤ على الكذب وهو يستعمل هذا القسم، سيصيبه الأسلاف على الفور بصداع مزمن يلزمه الفراش أيامًا طويلة، لا يستطيع معه تحريك رأسه، ولا حتى حمل رأسه بين كتفيه، ثم يصاب بغثيان ويتقيّأ كلّ ما يصل إلى جوفه، ثم يصاب بجفاف في بشرة الجسد التي تبدأ في السقوط في شكل قشور.

في الأيام اللاحقة لم ألاحظ أيًّا من هذه الأعراض المرضية على أمي، فأيقنت أنها تقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، رغم أنني احتفظت في دماغي بقدر من الشكّ. أما أبي روجر فكان على ما يبدو متأكّدا، من أن مارسيل لا يزال يلفّ ويدور حول أمي، طالما أنه لم يتمكّن بعد من أن ينال منها مأربه، وأنه من المحتمل أن هذا المأرب كان في سبيله إلى الحدوث.

كنت في التاسعة من العمر عندما وقع الاشتباك بين الرجلين، في شارع (لوبولو) بحيّ (رِكس). كان خالي ألبير يسكن في هذا الحيّ، ولديه فيه عزوة كبيرة. كان هذا الخال يعمل موظَّفا في مديرية كهرباء المدينة، ويشار كذلك في العائلة إلى أنه كان أول شخص من العائلة يهاجر من قريتنا (لوبولو)؛ ليحصل على الإقامة الدائمة في مدينة (الرأس الأسود).

يعود إلى هذا الخال فضل استضافة العديد من أفراد الأسرة الآخرين عند وصولهم لأول مرّة إلى (الرأس الأسود) بحثًا عن العمل في وظائف حكومية، يقيمون لديه لبعض الوقت لحين عثورهم على سكن دائم في نفس الشارع. كانت أمي هي الشخص الوحيد في العائلة، الذي جاء إلى (الرأس الأسود) دون الاستعانة بالأخ ألبير، بل حاولت أن تهرب من أخيها، حتى تقطع على زوجها الأول أبي البيولوجي كل فرصة للعثور عليها.

جاء إذَنْ إلى المدينة خالي ألبير أولًا، ثم لحق به أخوه الأصغر (رينيه)، ثم وصلت على التوالي أختاه الصغيرتان (دوروتيه) و(سابين)، وهما أكبر سنًّا من أمي، التي جاءت بعدهما إلى المدينة مع أخيها الأصغر (موبيرو) آخر العنقود. كان جدّي لأمي واسمه (جريجوار موكيلا) مزواجًا؛ إذ تزوّج من اثنتي عشرة امرأة، أنجب منهنّ حوالي خمسين طفلًا.

قام إذَنْ خالي (ألبير) بإحضار كلّ إخوته وأخواته بالتدريج واحدًا واحدًا، على مدار سنوات، من قرية (لوبولو) إلى المدينة. فكلّما تحسّن وضعه الوظيفي وزاد مرتّبه، تمكن من إحضار المزيد من أقربائنا من القرية إلى المدينة. هكذا بدأ كذلك في إحضار إخوته غير الأشقّاء، فجاء أحد أخوالي الأقرب إلى قلبي ويُدعى جان بيار ماتيته. هكذا أصبحت هناك حقيقة جغرافية، وهي

أن أغلب سكّان شارع (لوبولو) هم من عائلة واحدة. وكانت هذه الحقيقة هي السبب في تغيير اسم الشارع القديم، ليصبح اسمه هو نفس اسم القرية التي جاء منها أغلب ساكنيه.

ولأن خالي يعمل في مديرية الكهرباء، فقد دخلت التوصيلات الكهربائية مجَّانا إلى كل منازل هذا الشارع التي بناها إخوته وأخواته، وهكذا ترك الجميع استعمال المصابيح الزيتية، التي اعتادوا عليها في القرى. كان من الطبيعي أنه لتحقيق هذا الإنجاز، أن قام خالي بدفع بعض الرشاوي لبعض كبار الموظّفين، وإن كان هذا لم يمنع بعض صغار الموظّفين من المجيء إلى الشارع للمطالبة ببعض الإكراميّات الإضافية، عند توصيل خطوط الكهرباء إلى منزل جديد. أما الاحتفال الأكبر فكان بخصوص تغيير اسم الشارع بنزع لوحة الاسم القديم وتعليق لوحة الاسم الجديد.

وهكذا كان الجميع يشعرون بالامتنان والعرفان بالجميل للخال ألبير، ويمرّ كلٌّ منهم عليه في منزله ولو مرّة واحدة في الأسبوع لتحيّته. وقد استمرّ الخال في تقديم بعض الأوراق المالية بشكل منتظم، إلى إخوته الذين لم يتمكّنوا بعد من الحصول على وظيفة ثابتة. كان هؤلاء يحضرون إلى فناء منزل الخال، فإذا وجدوه نائمًا نومة القيلولة، انتظروا في الفناء مع الابنين التوأم للخال. كانا يفهمان جيدًا أن هؤلاء الأقارب المنتظرين في الفناء، يحصلون من والدهما على مساعدات منتظمة. هذان التوأم كانا شريكين لي في الكثير من مغامرات طفولتي.

كانت أمي كذلك من بين أولئك الذين أقاموا لفترة مؤقّتة في شارع (لوبولو)، بل إنها حتى كانت قد أقامت في منزل ألبير، ولكنها لم تكن من بين مَن يحصلون منه على مساعدات مالية، وإنما العكس هو الصحيح، إذ كانت قادرة على أن تدفع له مساهمات شهرية في مصروفات المنزل. كانت زوجة الخال ألبير قد اشتهرت في الأوساط العائلية بقدرتها على حسن تربية الأطفال وتعليمهم مبادئ التغذية الصحّية. وهكذا حدث أن وجدت نفسي وقد أرسلتني أمي للإقامة لديها لبعض الوقت، وكانت أمي قد اشتكت لها من ضعف شهيّتي للطعام، وإقبالي فقط على التهام قطع اللحم، وإهمالي تناول الخضروات والنشويات.

عندما جاءت أمي لتستردّني من منزل الخال، لاحظتُ أن مارسيل، ذلك العدو اللدود لأبي روجر، ظهر يتسكّع في الجوار، كأنها مصادفة بحتة. من الغريب أن أبي روجر هو كذلك ظهر في الجوار في نهاية يوم عمله، أي أنه حضر مع أمي، رغم أن هذا لم يكن مخطَّطا له، كأنه شعر بالخطر يقترب من زوجته.

كنا أنا وأمي بالكاد عند عتبة باب منزل الخال نستعد للخروج، عندما جاءتنا من الشارع أصوات ضوضاء وفوضى، أدركنا أنها أصوات شجار بين مجموعة من الرجال، إذ كانت تصلنا كذلك أصوات الصبية وهم يهتفون (آلي بوما بيه/ آلي بوما بيه) وهي الهتافات التقليدية التي يطلقها الزائيريون في ملعب (20 مايو) لكرة القدم، عند لقاء الفريق القومي مع الفرق الأجنبية. ولفظ (آلي) هنا هو اسم بطل الملاكمة العالمي محمد علي (آلي) كلاي، وتاريخ (20 مايو) هو يوم تلك المباراة الأسطورية التي التقى فيها كلاي مع منافسه على لقب بطل العالم جورج فورمان.

اندفعنا جميعًا إلى خارج فناء منزل الخال لاستطلاع الخبر، ذاهبين في اتجاه المكان الذي تصدر منه الهتافات، فوجدنا مباراة حقيقية في الملاكمة والمصارعة، بين بابا روجر ومنافسه مارسيل، وقد وقع الاثنان على أرض الشارع، وغطّاهما تمامًا تراب الشارع، وقد خرج سكّان كل المنازل المحيطة لمشاهدة هذه المباراة. لاحظت متعجِّبا أن جسد بابا روجر يعلو جسد خصمه، رغم أن الخصم كان أكبر حجمًا بكثير، إذ يصل طوله إلى حوالي مترين.

الحقيقة هي أن شعب (لوبولو) كلّه كان يقف في صفّ باب روجر ضدّ مارسيل، الذي كلّما حاول أن ينهض ليتفوّق على أبي، أعاق أحدهم حركته بجذبه من طرف سرواله. كان كلّ السكّان يعلمون أن بابا روجر هو زوج (بولين) وأنها أخت ألبير الحبيب إلى قلوبهم. وهكذا استمر مارسيل في فقد توازنه كلّما همّ بالوقوف، حتى انتهى به الأمر إلى فقد قواه تمامًا. أصبح المنتصر هو بابا روجر فقط بفضل هذه المساندة الشعبية.

إن هذه الصدفة القدرية بمجيء الاثنين معًا إلى نفس المكان في نفس الوقت، هو ما سمح بانتشار أخبار في كل أنحاء المدينة، تقول إن روجر قد تمكّن من هزيمة مارسيل، الهزيمة التي كانت بمثابة إعلان عن موت مارسيل المعنوي. يا لها من سعادة ضخمة أشعر بها كلّما تذكّرت هذه المعركة.

«صرخت أمي: «اترك الرجل يا روجر، دعه يذهب».

«روجر: «سأقتله ... حتمًا سأقتله».

واستمر بابا روجر في القبض على رقبة مارسيل بكفّيه، وهو يعلو بجسده فوق جسد مارسيل المطروح أمامه على الأرض. ثمّ بفضل ذلك الجمهور الذي يسانده، استمر بابا روجر في

الإحساس بالحماس والشجاعة، فوقف على قدميه واتخذ وضع الكاراتيه الهجومي الذي شاهدناه معًا أنا وهو في الفيلم السينمائي (المدمّرون)، ووجّه ضربة عنيفة برأسه إلى رأس مارسيل، ثم استأنف توجيه الضربات بقدميه إلى جذع مارسيل وصدره. لم يتوقّف أبي عن الهجوم إلا بعد أن رأى الدماء تسيل من جروح في أماكن مختلفة من جسد مارسيل. وهكذا انتهت المعركة بفرار مارسيل.

ثم حدث بعد ذلك على الفور أن جرى بعض سكّان الشارع خلف مارسيل، ولم أعرف إن كانوا يريدون فقط إخافته، أم أنه كان في نيّتهم استئناف ضربه، خاصة وقد لاحظت أن بعضهم يحمل في يديه العصيّ الخشبيّة والأحجار.

«صرخت أمي: «إنهم ينوون قتله».

«ردّت أصوات من الحشد: «يُستحسن أن يفعلوا».

كانت ساقا مارسيل الطويلتان تساعدانه على سرعة الجري، ورغم ذلك لحق به بعض سكّان الشارع وحاصروه، وبدأوا فعلًا في إصابته بالمزيد من الجروح، بعد أن رموه بما كان في أيديهم من قطع أحجار. هنا أدرك مارسيل أن الموت يلاحقه. تابعنا الموقف من على بعد عشرات الأمتار. تمكّن مارسيل أخيرًا بقفزات عالية سريعة من عبور شارع الاستقلال، ومن الاختفاء خلف تلك المتاهة من الحواري الضيّقة الملتفّة المتقاطعة لحي الثلاثمائة، الذي تقيم فيه فتيات البغاء القادمات من زائير، وهو السبب الذي من أجله يمتنع سكان شارع (لوبولو) عن دخوله.

عدت مع أمي وأبي إلى منزلنا، حيث اندلعت بينهما مشاجرة كلامية عنيفة، كانت أمي تكرّر عبارة أن الصدفة وحدها هي التي جلبت مارسيل إلى شارع (لوبولو)، عندما جاءت هي إلى منزل الخال، وأنه لم يكن بينهما أي اتفاق على ذلك. أما أبي فلم يكن يصدّقها، ويكرّر عبارة أنهما حتمًا كانا قد تواعدا على اللقاء، بل أضاف أن الخال ألبير كان حتمًا على علم بذلك، وبالتالي فمن غير المستبعد أن يكون متواطئًا مع أخته.

قالت: «إذَنْ فسّر لي لماذا كان كلّ المتواطئين معي يقفون في صفّك أنت أثناء المعركة؟ الذين لولا مساعدتهم، لما تمكّنت من قهره؟».

لم يجد أبي ما يردّ به على هذا السؤال الأخير. كان هذا هو الدليل الدامغ على أن سكان الشارع يتعاطفون معه هو وليس مع خصمه. أدرك أبي أن غضبه من أمي ليس مبنيًّا على منطق

سليم.

(8)

الآنسة أمي

كانت الصورة بالأبيض والأسود، متآكلة إلى حدّ ما في طرفها الأسفل إلى اليمين، وتعود إلى زمن نهاية سبعينيات القرن العشرين، تمّ التقاطها بعد ظهيرة يوم ما في حي (جولي سوار) أي المساء الجميل. كنت قد لحقت بأبي وأمي الجالسَيْن إلى إحدى الموائد في إحدى الحانات، وكان كلٌّ منهما يمسك بكأس يرفعها إلى شفتيه، وكانت كأسي أنا موضوعةً أمامي على المائدة، لكن في الحقيقة أنا لم أكن أحتسي الجعة، بل كانت كأسي موضوعةً هكذا على المائدة، فقط حتى لا يعتقد مَن سيرى هذه الصورة لاحقًا أنه لم يكن لي ما أحتسيه، وأنني لم أكن في الحانة إلا فقط حتى يلتقط لنا المصوّر هذه الصورة. كانت أمي كالمخرج السينمائي، الذي يقدّم لمصوّر الفيلم ملحوظاته الأخيرة على المنظر قبيل التقاطه.

أمي: «انتظر أيها السيد المصوّر فنحن لم نجهز بعد؛ إذ علينا أولًا أن نطرد كل هذا الذباب الذي يلفّ ويدور حول المائدة. انتظر حتى تحصل مني على الضوء الأخضر لالتقاط الصورة».

ثم مسحت القاعة بعينيها، حتى تتأكد من أن كلّ شيء في خلفية الصورة على ما يرام. عندما رأت في عمق الحانة بعض العملاء يدخلون من بابها، ويستقرّون حول موائدها، قفزت من مكانها وهي تصرخ:

«هل رأيتم هذا؟ نحن في هذا البلد لم نعد نستطيع أن نلتقط صورة عائلية في مكان عام دون أن يزعجنا الآخرون. هذا يحدث بشكل أكثر وضوحًا منذ موت رئيسنا المحبوب ماريان نجو وابي».

ثم وجّهت حديثها إلى المصور قائلة:

«اطلب من الزبائن هناك في الخلف عدم الدخول الآن إلى الحانة، حتى يتمّ التقاط صورتنا في سلام».

ثم استدارت نحونا أنا وأبي روجر قائلة:

«وأنتما الاثنان تصرّفا بشكل طبيعي، كما لو أن هذا المصوّر الفوتوغرافي غير موجود أمامكما، خاصة أنت يا روجر، إذ إنك عندما يلتقطون لك صورة، تبدو كما لو كنت قوقعًا مزنوقًا

في صدفته. وأنت يا صغيري اجلس مستقيم الظهر، كأيّ رجل شجاع غير خانع لأي ظروف، كأيّ طفل يفخر بالجلوس بين أبيه وأمّه».

كل هذه الاحتياطات والتحذيرات من الأوامر والنواهي الصادرة من فمّ أمي، انتهت بالمصوّر الفوتوغرافي المحترف إلى إظهار ضيقه منها؛ لأنها تتدخّل في صميم عمله، ورغم كلّ ذلك الحرص من طرف أمي فإنها لم تلاحظ وجود كوب رابع على مائدة لا يجلس حولها إلا ثلاثة أشخاص، وهو الكوب الذي كان أبي روجر قد قدّم فيه بعض الجعة إلى المصوّر، فابتلعها في ثانية واحدة، ثم انصرف من جديد على الفور إلى الاهتمام بإعداد آلته للتصوير. يبدو أن كثرة دوران هذا المصوّر طوال النهار حول عشرات الحانات في المدينة لالتقاط رزقه فيها، جعلته قليل التركيز.

بعد التقاط الصورة حصل المصوّر على عنوان منزلنا، الذي سيحمل إليه الصورة مطبوعة في غلاف كارتوني صباح اليوم التالي. وقد دفع أبي روجر جزءًا من الثمن الإجمالي لتكاليف الالتقاط، على أن يدفع الباقي عند الاستلام. كان من عادة المصوّرين كذلك، أن يحملوا إلى الزبون نسخًا من الصورة بعدد الأشخاص الذين يظهرون فيها، حتى يتمكن كلّ شخص منهم بالحصول على نسخة خاصة به يحتفظ بها لنفسه.

عندما جاء إلينا بالنسخ صباح اليوم التالي، تفاخر قائلًا:

«أنا الوحيد في هذه المدينة الذي يستعمل آلة من نوع هاسيلبلاد *Hasselblad*، وهي من نفس نوع آلات التصوير التي استعملها الأمريكيون في التقاط الصور أثناء رحلاتهم إلى الفضاء الخارجي، لذلك أصبح اسم الشهرة الذي يطلقه عليَّ عملائي هو مسيو هاسيلبلاد».

كيف كان لنا أن نتحقّق من صحّة هذه الادّعاءات؟ على أي الأحوال لم يفهم أيّ منا أي شيء من كلّ ما استمرّ هو في قوله بخصوص مزايا هذه الآلة العجيبة؛ لأنها في نظرنا لا تختلف عن غيرها من آلات التصوير، التي يضغط فيها المصوّر على زرار ما فينطلق ضوء خاطف وتلتقط الصورة، دون أيّ مجهود إضافي.

قاطعت أمي استرساله قائلة: «توقّف عن هذا الكلام غير المفيد، واذكر لنا فقط باقي المبلغ الذي يجب علينا الآن دفعه».

هنا انحنى مسيو هاسيلبلاد على آلته، وقد انبعج الجزء الخلفي من جسمه، متَّخذا وضعًا بدا لي أقرب إلى العبث الفكاهي السخيف. عندما سافرت لأول مرة إلى أوروبا، وأخذت معي بعض صور طفولتي، لم تكن هذه الصورة تعني لي الشيء الكثير، إلا أن عودتي في زيارة إلى الكونغو، أعطت لهذه الصورة معنى، إذ ذكّرتني بتفاصيل ذلك اليوم الذي يبعد عني الآن بحوالي أربعين عامًا، في تلك الحانة التي أجهل الآن موقعها.

أعاود النظر إلى التفاصيل فأجد أن تعبير وجه أمي يدلّ على السيطرة التامة على الموقف، فنحن لا ننظر إلا إليها هي، وقد بدت على سجيّتها أكثر من كلينا أنا وأبي، وقد لفّت حول رأسها، على طريقة نساء الكونغو في ذلك الوقت، ثوبًا قماشيًّا وربطته بعقدة أمامية، لتبدو كأنها قد وضعت على رأسها قبّعة قماشية ضخمة. كان من الواضح كذلك أن أمي تشغل الحيّز الأكبر من حافة المائدة، ولا تترك لكلينا إلا حيِّزا ضئيلًا، مما جعلنا نتصارع عليه. أزاحتنا بكتفيها حتى تكون هي في مركز الصورة، وأول ما تقع عليه عين الرائي، أما أنا وأبي فلم نكن إلا من العناصر المساعدة. هي تنظر إلى عين الالتقاط في آلة التصوير بابتسامة مَن عثر لنفسه على وضعه الأمثل.

في الصورة كان فمي مفتوحًا بلا داعٍ. هي مثلًا لم تهتم بهذه المسألة؛ لأنها في انشغالها بنفسها لم تلحظ فمي المفتوح، ولم تلحظ تعبير اللا مبالاة على ملامحي. هي تعتبر أن الفمّ المفتوح لدى طفل هو علامة على سوء التربية، فلو أنها كانت قد التفتت إليَّ لكانت قد قالت لي: ««ألا تلاحظ أننا تُلْتَقط لنا صورة، إذَنْ أغلق فمك».

ليس هذا فقط، بل إنها لم تلاحظ كيف أن قميصي كان مفتوحًا عن آخره، من العنق إلى أسفل البطن. أتساءل الآن هل هذا يعني أنني كنت قد فقدت كلّ أزرار هذا القميص؟ وفي أي ملابسات؟ على أي الأحوال أنا أتذكّر أنني في تلك السنّ، كنت معتادًا على ترك عدد من أزرار قمصاني دون أن تغلق.

يمكنني الآن هنا أن أضيف بعض الملاحظات الأخرى، التي لم تكن قد لفتت انتباهي من قبل. مثلًا كانت كتف أمي اليُمنى تلامس دماغي، كأنها تحاول أن تبعدني عن مركز الصورة الذي تريد أن تشغله وحدها، في حين كان أبي من الناحية الأخرى يحاول أن يبقي شخصيّات الصورة في حالة توازن. لاحظت كذلك أصابع يد أبي روجر على كتف أمي، كأنه يحاول بها أن يضمّها إليه.

الملحوظة الأخيرة هي أن مفرش المائدة لم يكن نظيفًا؛ إذ بدت عليه آثار السوائل التي اندلقت عليه، من زجاجات وأكواب جعة احتساها قبلنا زبائن آخرون.

(9)

الفلاحة الحافية القدمين

كنت أسميّها جدّتي هيلين، لكنها في الحقيقة لم تكن جدّتي بل كانت إحدى خالاتي. كانت هي الأخرى من سكّان شارع (لوبولو)، وتسكن منزلًا يقع بالضبط خلف منزل خالي ألبير. اعتادت طوال حياتها على المشي حافية القدمين. كانت تمشي كلّ يوم بامتداد شارع (لوبولو)، وتتوقّف أمام أفنية منازل أفراد العائلة؛ لتوزّع عليهم طبيخها من الخضراوات والمانيوك، بالإضافة إلى الفواكه وإلى أنصبة متساوية من نبيذ النخيل، تحمله في وعاء ضخم يسع 20 لترًا.

كانت واحدة من أولئك الناس الذين تصوّرت في خيالات طفولتي أنهم ولدوا عجائز، بشَعر رأس رمادي اللون، وبفمّ فقد كلّ أسنانه، وبخطوة مشي ضعيفة متردّدة، ما جعلها تشبه نوعًا من الكائنات الرخوية التي تسقط أمعاؤها في أقدامها. كان من الصعب عليَّ جدًّا، أن أتخيّل أن جدّتي هيلين كانت ذات يوم شابة صغيرة السنّ. هي تجهل تاريخ ميلادها، ولو حتى بشكل تقريبي، ومن المستحيل لأيّ شخص تقدير سنّها. هي لم تكن لديها أبدًا لا شهادة ميلاد، ولا بطاقة تحقيق شخصية. ذلك لأنه عندما ولدت هيلين في الزمن الاستعماري، كان الحصول على هذه الأوراق صعبًا جدًّا.

كان على والدها حتى يحصل على وثيقة رسمية بتاريخ ميلادها، أن يتجه إلى السلطات الاستعمارية، حتى يحصل هو لنفسه أولًا على وثائق رسمية تخصّه، مثل أولًا شهادة تسنين له، يحصل بموجبها ثانيًا على شهادة ميلاد له، وثالثًا على بطاقة شخصية له، ورابعًا على عقد زواج لوالديّ الطفلة، وهو لم تكن لديه أي وثيقة منها. أثناء عملية التسنين كانت تؤخذ كلّ مقاسات الجسم، مثل الطول والعرض والوزن، ثم ينظر في الأسنان العلويّة والسفلية على جانبيّ الفمّ، بعد ذلك يقدّر للشخص سنّه التقريبي، الذي كان يُصاغ غالبًا بمثل هذه العبارة (مولود حوالي عام .....)

وبما أنَّ الحصول على هذه الوثائق كان يستدعي أحيانًا، قطع مسافات طويلة على القدمين إلى أقرب مدينة بها إدارة استعمارية، مثل وحدات تسجيل الأحوال المدنية، من مواليد ووفيّات وزيجات وحالات طلاق، فإن أغلب الناس كانوا لا يرغبون في قطع هذه المسافات على الأقدام، متجاهلين ضرورة وجود مثل هذه الوثائق والأوراق في السجلّات الرسمية.

هذا بالإضافة إلى أن عددًا كبيرًا من رؤساء القبائل المحلّيّة كانت لديهم فكرة مبتكرة لمحاربة هيمنة ونفوذ المستعمر الأوروبي، وهي بإشاعة أن البيض لديهم خطّة سرّية غير معلنة لاستعباد أرواح السود، حتى لو تمكنت دولهم يومًا ما من الحصول على الاستقلال من الاستعمار الأوروبي، وذلك عن طريق حبس أرواح السود، باستخرج شهادات الميلاد لهم، من الجهاز الإداري الأبيض، والذهاب بها إلى أوروبا. وقد يكون مصير هذه الأرواح أسوأ، لو ذهبوا بها إلى أمريكا، حيث يباع السود في أسواق النخاسة، ويظلّون هناك عبيدا يعملون بالسخرة من الصباح إلى المساء حتى مماتهم في حقول القطن تحت لهب سياط أسيادهم البيض التي لا ترحم. هذه هي حيلة المستعمر الأوروبي الأبيض، الذي لم يعد يستطيع السيطرة على الشعوب السوداء بعد استقلالها إلا بالخديعة.

وهكذا انتشرت في البلاد مشاعر الخوف، من كل ما له صلة بالتسجيل في الأوراق الرسمية، وقد ذكّرنا هذا الخوف بنفس المشاعر التي كانت قد انتشرت كذلك، عند وصول أول آلة تصوير ضوئي (فوتوغرافي) إلى البلاد، حين حاول رؤساء القبائل إقناع المواطنين، بأن الأوروبيين ليسوا أبدًا حسني النوايا، بل هم لا يبحثون دائمًا إلا عن كيفية إيذاء السود من مواطني البلاد. والحقيقة هي أن سمعة الأوروبيين البيض كانت قد ساءت جدًّا في البلاد.

وكان من بين ما استطاع رؤساء القبائل إشاعته، القول بأن الأسلاف الذين أجبرهم المستعمر على أن يكونوا أوّل من يقف أمام آلات التصوير الضوئي، عندما التقطت لهم الصور لم يظهروا فيها، أي اتضح أن هذه الصور كانت خالية تمامًا من أشكال أشخاص الأسلاف الذين وقفوا أمامها، وذلك لأن قوّة سحر الأسلاف كانت أقوى من قوّة آلات العلم الحديث، مثل آلات التصوير التي أحضرها المستعمر الأوروبي معه إلى بلادنا.

وهكذا لم يجرؤ أحد على سؤال الجدّة هيلين عن عمرها، ولا عن عمر زوجها؛ وذلك لأنه وفقًا لمعتقداتنا الشعبية، فإن مَن يسأل هذا السؤال، يبدو كما لو أنه يريد أن يقول للشخص المتقدّم في السنّ: إنه قد آن أوان رحيله النهائي إلى البلاد البعيدة، تلك التي يقول أفراد قبائل البيمبيه عنها: إنها بلاد الظلام الدائم، حيث لا توجد شمس مثل شمسنا، تشرق كل صباح وتغرب كل مساء.

كان جوزيف زوج هيلين يبدو في حالة صحّية جيدة، حتى قيل إنه أصغر منها في العمر بسنوات كثيرة، لكنه لم يكن يعمل أي شيء في الحياة، بل يكتفي طول الوقت بالبقاء جالسًا في

شمس النهار أمام عتبة منزلهما، وهو يتأمّل في ما يدور حوله، فيبدو لمَن يراه كما لو كان شخصًا حالمًا.

لم تكن لجوزيف أي فصاحة لغوية، كما أن نور عينه اليسرى انطفأ بسبب أن ورمًا كبيرًا داكن اللون غطّى تمامًا على إنسان العين، وهو بالتالي لم يكن يرى إلا بالعين اليمنى. رغم ذلك لم يكن يفوته التعرّف على التفاصيل الخاصة بأي إنسان يمرّ أمامه. إلا أن العين المغلقة كانت مثار تساؤلات وثرثرات، إذ أشاع السكّان من الجيران أن العجوز جوزيف يستعملها في ظلمات الليل للكشف عن حيل وألاعيب السحرة والساحرات المقيمين في الجوار، ويعمل على إبطال مفعول سحرهم طالما كان في إمكانه القيام بذلك.

كانت ابنتهما جرمين تبدو لي متقدّمة في السنّ مثلهما. مرّة أخرى راجت إشاعات تقول إن هيلين وجوزيف يعرفان أسرار الحياة الطويلة الخاصة بإمكانية الوصول إلى سنّ متقدّمة، وأنهما أخبرا ابنتهما بها. كانت هيلين تعرف أن عمرها قد تخطّى كلّ التوقّعات، فكانت تُتَمْتِم وقد بدت عليها علامات الضيق: «لقد نسانا الزمن أنا وزوجي جوزيف؛ وذلك لأننا نحن أيضًا نسيناه، وهذا هو السر في العمر الطويل، انسوا الزمن يَنْسَكُمْ، لا تحسبوا الأيّام، ولا تنظروا في التقاويم».

كانت شخصية جوزيف ضعيفة أمام شخصية زوجته، خاصة أنها كانت تبدو دائمًا مشغولةً بفعل شيء ما، ولا تترك نفسها أبدًا للفراغ، في حين أنه لم يكن ينشغل إلا بالفراغ. كانت هيلين تهتمّ بحالات البشر الذين قد تبدو عليهم علامات اليأس، فتحاول التسرية عنهم بالاقتراب منهم، والهمس في آذانهم بكلمات مطمئنة، تجعلهم يأملون في أن يكون غدهم أفضل من يومهم.

حصلت الجدّة هيلين بفضل مجهوداتها الإنسانية تلك على لقب الأمّ تيريزا؛ وذلك لأن الجدّة هيلين رغم أنها أنجبت عشرة أطفال، كانوا يكفون جدًّا أن تنشغل بهم أي أمّ، إلا أن الجدّة هيلين لم ترفض أبدًا أي طلب، تقدّم به أيّ أب أو أي أمّ لضمّ ابنه أو ابنته إلى أطفال الجدّة لتعتني بهم، أثناء انشغال الأباء والأمّهات بأمور أخرى مثل كسب الرزق اليومي، وكانت غالبًا ما تهتمّ بأطفال الآخرين أكثر من اهتمامها بأطفالها هي.

لكن مرّة أخرى ظهرت شائعات تُسيء إلى الجدّة هيلين، وتتهمها بأنها مقابل تقديم تلك الخدمات للآباء والأمهات، فإنها تحصل منهم بأساليبها السحرية، على أيام أو شهور من حيواتهم، تضيفها إلى أيام وشهور حياتها هي أو حياة زوجها، وأن هذا هو السبب في الموقف

العدائي تجاهها، من طرف بعض ممن رفضوا أن يدفعوا أيامًا وشهورًا من حيواتهم مقابل خدماتها. هؤلاء هم الذين انتقموا منها لاحقًا بأن أطلقوا عليها لقب (الساحرة).

في الحقيقة منذ تركت الجدّة هيلين قريتها (لوبولو)، وجاءت إلى مدينة (الرأس الأسود) لتستقر فيها، وهي تحاول أن تظلّ محافظة على أخلاق القرية، رغم أنها لم تلحظ أن أخلاق القرية مختلفة كثيرًا عن أخلاق المدينة، ففي كلٍّ من القرية والمدينة، يحدث أحيانًا أن تكون الأفعال الطيّبة حسنة النيّة مصدرًا للشكّ، وذلك رغم أن الناس في القرية يعرف بعضهم بعضًا، وغالبًا ما تكون هذه الأفعال الطيّبة من الواجبات الحتمية تجاه الأقارب والجيران، الذين هم في الغالب ليسوا من بين ناكري الجميل أو الأنانيين. ومع اعترافنا بكلّ هذا، لكن يظل هناك دائمًا بعض الشكّ في النوايا.

كانت الجدّة هيلين مقتنعة نفسيًّا أن ناس شارع (لوبولو)، في مدينة (الرأس الأسود) نجحوا في الاحتفاظ بروح ناس قريتهم (لوبولو) التي جاؤوا منها إلى المدينة، وأن كل ما في الموضوع هو فقط الانتقال الجغرافي. هذا هو ما كانت تبرّر به احتفاظها في مدينة (الرأس الأسود) بالأخلاق التي كانت لها في قرية (لوبولو).

لهذا استمرّت في ممارسة نفس الواجبات الاجتماعية، التي كانت تقوم بها حال إقامتها في القرية، مثل أن تتقاسم مع سكّان الشارع كل الخيرات التي تحصل عليها، بفضل كونها مالكة لقطعة كبيرة من الأرض الزراعية في قريتها. كانت مقتنعة بضرورة أن يقتسم الغني ثروته مع الفقير. لهذا كان أغلب سكّان الشارع يحترمونها، ويعاملونها على أنها إحدى الأمّهات الروحيّات لنا، والعين الحارسة لأفراد أسرتنا الكبيرة.

من بين ممارساتها الخيّرة، أنها اعتادت على إعداد وجبات طعام ضخمة، في أواني الطبخ المصنوعة من الألومنيوم، من أكبر حجم يمكن العثور عليه في الأسواق، ثم تقف بهذه الأواني وفيها تلك الوجبات، في منتصف شارع (لوبولو)؛ لتصطاد الناس العابرين وتقدّم لهم الوجبات الصغيرة أو الكبيرة وفقًا لاحتياجاتهم. أما صغار السنّ فكانت تجعلهم يجلسون أمامها، وتقدّم لهم الصحون الكبيرة الممتلئة عن آخرها بالطعام.

لكن بالطبع كان هناك دائمًا بعض الأشرار أو النصّابين، ممن يُسيئون استغلال كرمها ونواياها الحسنة، فيخفون عنها وضعهم المادي المريح، ويكثرون المرور أمام باب منزلها، في الأوقات التي تقدّم فيها هذه الوجبات، ويحصلون عليها مجَّانا، بدلًا من أن يتركوها للفقراء الحقيقيين. هم

غالبًا من الرجال الأشدّاء متوسّطي العمر، الذين كنت أراهم يشبهون الوعول في شراهتها، أو يشبهون الثعابين الضخمة التي تبتلع ضحاياها دون مضغ.

أما نحن الأطفال في زمن طفولتي، فكنا نحاول أن نتجنّب المرور أمام باب بيتها، في ساعات تقديمها للطعام؛ لأننا كنا نعتبر كرمها وحنانها الزائد عقابًا؛ وذلك لأنه عند الانتهاء من تناول الوجبة، كانت الجدّة تصفّق للواحد منّا تشجيعًا له، لكنها كانت تطلب منه بعد ذلك أن يثبت لها أنه قد استمتع بالوجبة، ودليلها على هذا الاستمتاع هو أن يتكرّع الطفل أمامها بصوت مرتفع. كانت تلك هي عادة أخرى من العادات التي جلبتها معها من القرية، فينبغي على الضيف أن يتكرّع أمام مضيفه، ليثبت له أنه استمتع بالوجبة التي حصل عليها لديه، وإلا فإن وجه المضيف تبدو عليه على الفور علامات الضيق والقلق، ويبدأ في تأنيب زوجته على أنها لم تحسن إعداد وجبة الطعام، وإلا فلماذا لم يتكرّع الضيف، فتبدأ الزوجة في تأنيب نفسها.

لذلك كان الأطفال يتكرّعون، فتبدو ملامح السعادة على وجه الجدّة هيلين، فتعود إلى ملء طبق الطفل من جديد بالطعام، وتجلسه أمامها على الأرض، تنظر إليه حتى ينتهي من هذا الطبق الثاني، ويتكرّع من جديد، بشرط أن تكون التكريعة الثانية أقوى من الأولى. ثم إنها تقوم بتوجيه انتباه الطفل إلى قطع اللحم الأكبر حجمًا في الطبق، حتى يبدأ بالتهامها أولًا، ثم تشجّعه على الإكثار من شرب الماء، حتى تسهّل عليه عملية بلع قطع اللحم، ونزولها إلى المعدة والأمعاء.

ومع استمرار مرور الأشخاص أمام باب بيت الجدّة، تتضاءل كمّيات الطعام في أواني الطهي، فتذهب عائدة بها إلى داخل منزلها، فيعتقد الناس أن طقس تناول الطعام قد انتهى، ويبدأون في الانصراف، فإذا بها تخرج من جديد من منزلها، وهي تحمل نفس أواني الطهي، وقد امتلأت من جديد بالطعام، وهي تحمل في يدها المغرفة الخشبية الكبيرة. هنا تبدأ الجدّة في التلاوة بصوت مرتفع، لقائمة أسماء الأشخاص معتادي تناول الطعام لديها، الذي غابوا عنها هذه الظهيرة، كأنها تستدعيهم من حيث يكونون.

اعتقد بعض الأطفال أنه في حالة عدم وجود شهيّة لديهم للطعام، أنهم وجدوا الطريقة التي يتجنّبون بها الجدّة، وهي أن يمشوا في شارع آخر غير هذا الشارع (لوبولو)، وهو الشارع الموازي لشارع (لوبولو). وقد نجحت هذه الخطّة لبعض الوقت، وقد سمع بعضنا الجدّة وهي تتساءل أين ذهب الأطفال؟ وهل يمنعهم آباؤهم من المجيء؟ ثم تقول إنها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بالوجبة ساخنة. وكان من المحزن لي أن أراها بعد ثلاثة أيام من اختفاء الأطفال، وهي

تذهب ببعض أواني الطبخ إلى المقلب العمومي للقمامة، وتفرغ فيه محتوياتها من الطعام الذي فسد، وقد بدأت كلاب الشوارع في التجمّع هناك. ثم سمعتها تلوم نفسها أنها بتدليلها لهم أفسدت أطفال هذا الجيل ناكري الجميل.

وقد ذهب الطفل المدعو عطيّة الله للوشاية بنا لدى الجدّة، بعد أن أدرك حيلة الأطفال في تغيير طريق العودة إلى المنازل. كان هذا الطفل هو أكثرنا نهمًا وشراهةً إلى الطعام، بالإضافة إلى وضاعة طباعه وخسّتها. هكذا فوجئنا بأن الجدّة لم تعد تكتفي بالوقوف أمام باب منزلها، بل إنها أخذت أواني الطبخ، وذهبت لتقف بها عند تقاطع شارع (لوبولو) مع شارع الاستقلال، وقد أخفت نفسها عنّا خلف جذع ضخم لشجرة مانجو. من مخبئها وقفت تتربّص بنا مثل حيوان جريح يرغب في الانتقام. وعند اقترابنا من موقعها ونحن لا ندري بوجودها، قفزت قفزة لا تتناسب مع عمرها، وأمسكت بأصغرنا سنًّا من قميصه، وجرّته به عائدة إلى بيتها.

سمعناها وهي تصرخ قائلة: «هل تعتقدون أنكم أكثر منّي ذكاءً؟ هل تعرفون ما هو العام الذي ولدت أنا فيه؟ الآن أيها الصغير سأجعلك تدفع ثمن هذا الخداع، بأن أجعلك تأكل ثلاثة أطباق ممتلئة عن آخرها بالطعام، وهي الأطباق التي كان من المفروض أن تأكلها خلال الأيام الثلاثة الماضية، بمعدّل طبق واحد عن كل يوم».

كانت الجدّة هيلين تخاف من الرجال والنساء البيض، وقد تحوّل هذا الخوف عندها إلى وسواس قهري، إلا أنها رغم خوفها منهم لم تكن تشعر نحوهم بالاحترام. وقد حدثت لها واقعة غريبة قبل وفاتها ببضعة أشهر، حكتها لنا بنفسها، إذ جاءتها في ما يشبه الرؤيا، امرأة بيضاء قبّلتها على جبهتها، ثم فتحت لها بابًا وهي تقول إنه المؤدّي إلى العالم الآخر، ثمّ طلبت منها أن تستأنف في ذلك العالم الآخر العمل الذي كانت تمارسه في دنيانا الأرضية، وهو العمل على إشباع الناس بالطعام الذي تطبخه بيديها.

قالت: «البيض هم الذين يقودون البشر إلى العالم الآخر، الذي لا تشرق فيه الشمس أبدًا... أنا كنت أعرف مسبقًا أن مَن ستقودني إلى العالم الآخر هي امرأة بيضاء».

كرّرت الجدّة هذا الكلام أمام بشر مختلفين، في أنحاء متفرّقة من الجوار، خاصة في حالات الوفاة، وقد اعتبر كثيرون أن هذا الكلام ما هو إلا هذيان شخص تقدّمت به السنّ، وتراجعت قدراته الذهنية، واقتربت لحظة رحيله. إلا أن الجدّة كانت تتحدّث إلى الجميع بمنتهى الجدّية،

وتتكلّم بأسلوب واضح ليس فيه أي شيء يدلّ على تراجع في القدرات الذهنية. ثم بدأت في ترتيب أشيائها وأغراضها، قبل أن تُصاب بالمرض الذي سيؤدّي بها إلى شلل الأطراف.

قالت: «أشعر أن جسدي يتخلّى عنّي، ولن أتمكن بعد ذلك من إعداد وجبات الطعام. وقد أصبحت نفس تلك المرأة البيضاء، تأتيني في أحلامي كلّ ليلة، وأرغب بشدّة في أن تمدّ يدها إليَّ اليوم قبل الغدّ لتنتشلني من هذه الدنيا».

ذهبت الجدّة إلى السوق واشترت حقيبتين كبيرتين، إحداهما من الجِلْد، والأخرى من الحديد، ووضعتهما في أحد أركان حجرة مائدة الطعام، فوق قطعة أثاث قديمة. خلال أيام كانت الجدّة قد ملأت هاتين الحقيبتين بأشيائها، ثم سمعناها تهمهم:

«في البلاد التي لا تشرق الشمس فيها أبدًا، أعرف أنني سأستأنف طبخ الطعام للآخرين، لذلك وضعت ملعقتي الخشبية بين أغراضي، أما أواني الطبخ الضخمة فلن أستطيع حملها معي، لكن من المؤكّد أن هناك في العالم الآخر مثيلًا لها».

كان غالبًا ما يحدث أن تستيقظ الجدّة في أثناء اللّيل، لتتأكّد من أن كلّ أغراضها موضوعة في أماكنها داخل الحقيبتين استعدادًا للرحيل، وأنها لم تنسَ وضع أي شيء. فإذا قامت أمام الله بتلاوة لائحة طويلة من الطلبات، اطمأنّت وعادت إلى فراشها، وفردت جسمها فيه وقد وضعت ذراعيها متقاطعتين على صدرها، وأغمضت عينيها وعادت إلى النوم.

في نفس تلك الشهور الأخيرة كان جسدها الضعيف يتآكل، ويلتصق طوال النهار والليل بملاءة فراشها، وعضلات جسدها تتقلّص بسبب الإحساس بالألم، وعيناها تركّزان على حقيبتيها، أو على صورة العذراء مريم المعلّقة أمامها على الحائط. كان كلّ الناس المحيطين بها يعرفون أن لحظة الموت قد ظهرت في الأفق.

غِبْتُ عن البلاد ثلاثة وعشرين عامًا، دون أن أعود إليها ولا مرّة واحدة، وبمصادفة قدرية عجيبة كانت عودتي إلى البلاد بعد هذه الغيبة الطويلة، هي في نفس توقيت الأيام الأخيرة في حياة الجدّة. ذهبت إذَنْ إلى فناء منزلها، حيث قابلتني ابنتها بعواطف مشبوبة بحيث كان من الصعب عليها أن تتغلّب على انفعالاتها.

قالت: «إنها لن تتعرّف عليك بعد كل هذا الغياب الطويل، فهي لم تعد حتى تتعرّف عليَّ أنا ابنتها، بل إنني في كلّ مرّة أقترب منها يبدو عليها الخوف منّي، كما لو أنني أحد الأرواح

«الشرّيرة. هي لم تعد تتعرّف على أحد منذ أن لازمت الفراش، ولم تعد تغادره البتّة.

مع ذلك دخلت المنزل، ووقفت في قاعة الطعام، ولمحت الحقيبتين في أحد الأركان، لكنني شممت رائحة بدت لي مثل رائحة زرائب المواشي، فلا أحد يفكّر في فتح النوافذ للتهوية. عندما اقتربت من الناموسية لمحت على الفراش جسدًا بشريًّا، ينام تحت عدد من الملاءات البيضاء التي تبدو عليها علامات القذارة، جسدًا بشريًّا يهتزّ اهتزازات منتظمة. عندما شعرتْ باقترابي سكن جسدها ولم يعد يتحرّك. لم يستطع أحد أن يخبرني ما المرض الذي أُصيبت به الجدّة ووقعت فريسة له. كلّ ما أدركته هو أن هذا المرض قد أصاب أطرافها الأربعة بالشلل، ومنعها بالتالي من الحركة، فكانت النتيجة المؤلمة هي أنها مضطرّة إلى التبوّل والتبرّز في فراشها.

صحيح أن جميع أفراد العائلة كانوا يتناوبون العمل على مساعدتها في البقاء نظيفة قدر الإمكان، لكنَّ المهمّة المكلّفين بها كانت تفوق إمكانيّاتهم. العبارة التي أنصتت إليها تتكرّر على لسانها هي «إني أتألّم». لقد أصبحت الجدّة حطام إنسان، مجرّد خرقة بشرية. لا يستدلّ على كونها لا تزال على قيد الحياة، إلا بهذا النفَس الضعيف الذي يدخل ويخرج من منخاريها. انكمش جسدها واتخذت الوضع الجنيني بركبتيها وقد لاصقتا بطنها. جثّة ماتت وصاحبتها لا تنتظر سوى الدفن، وهذه الناموسية ما هي إلا زنزانة في سجن.

«قالت ابنتها بتصميم غريب: «إنها لن تتذكّرك، فلا جدوى من محاولة تذكيرها بنفسك.

لم ألتفت لهذه العبارة، بل رفعت الناموسية حتى أرى وجه الجدّة. لدهشتي كانت ملامح الوجه هادئة رائقة. عندما شعرت باقترابي منها وانحنائي عليها، فتحت عينيها. وبحركة لم أتوقّعها بسبب ما قيل لي عن شلل أطرافها، مدّت يدها وأمسكت بيدي.

«قالت: «هل أنت فعلًا مَن أراه الآن هنا أمامي؟.

لم أكن متأكّدا بعد من أنها فعلًا عرفتني، لكني حرّكت رأسي من أعلى إلى أسفل، دليلًا على أن الردّ هو بالإيجاب. ولدهشتي التامة سمعتها تقول: «أنت إذَنْ يا صغيري ترى أنني لم أخطئ عندما تنبّأت لك بمستقبل باهر، كنت محقّة في حسن ظنّي بك، أنا فخورة بنفسي. لقد أفلحت وجبات الطعام التي قدّمتها لك في طفولتك في أن تجعل منك هذا العملاق طويل القامة، فأنت على ما أرى قد وصلت إلى حوالي مترين طولًا. أنا الآن على بعد خطوتين من القبر، وسأموت حتمًا

كما مات كلّ مَن رحلوا قبلنا. أشكر الحظّ الذي ميّزني عنهم، وجعلني أراك الآن مرّة أخرى قبل أن ألحق بهم».

قلت: «أنت لن تموتي الآن يا جدّتي».

قالت: «أنا الآن جثّة هامدة مشلولة الأطراف. هل لا تزال تتذكّر كيف كنت أنا قبل نحو ثلاثة وعشرين عامًا عندما غادرتنا؟ أنا الآن مصدر ألم وحسرة لكل المحيطين بي. أقول لك لو أنني كنت لا أزال قادرة على الحركة دون مساعدة من الآخرين، لوضعت على الفور حدًّا لهذه المعاناة، وأنهيت بنفسي تلك الحياة البائسة، لكن لا أحد يوافقني على ضرورة إنهاء حياتي الآن ومغادرة هذه الأرض، حتى زوجي لا يوافقني».

بدأت ملامحها ترتجفّ وهي تنظر خلفي.

قالت: «أنا أرى ظلّ الموت يقف خلفك».

قلت: «الواقف خلفي ليس هو ظلّ الموت، بل هي صديقتي التي جاءت معي لزيارتك».

قالت: «لا أقصد صديقتك، بل هناك ظلّ الموت يقف خلفها، وقد أصبحت أراه كثيرًا هذه الأيام. هو يغادر المكان على الفور عندما أصلّي إلى الله، وعندما أنطق باسم السيدة العذراء مريم».

قلت: «أؤكّد لكِ أن مَن يقف خلفي هي صديقتي، وليست ظلّ الموت».

قالت: «فهل هي سوداء أم بيضاء؟».

قلت: «بيضاء».

قالت: «هل أنت متأكّد؟».

قلت: «نعم».

قالت: «إذَنْ فقد نجوت، وهذه هي المرأة البيضاء التي أنتظرها منذ سنوات طويلة؛ لتعتقني من هذا الجسد وتخلّص روحي».

(10)

قصر أمّي

عند انعقاد الاجتماع العائلي الذي حضره حوالي ثلاثين شخصًا، في فناء المنزل الذي أقامت فيه أمّي حتى وفاتها، بمناسبة الاحتفال بعودتي لأول مرّة إلى البلاد، بعد غياب دام ثلاثةً وعشرين عامًا، لاحظت أثناء وجودنا حول مائدة الطعام، وجود كرسيّين خاليين أمامي إلى الجهة الأخرى من المائدة لا يشغلهما أحد، بل تركهما الجميع خاليين، رغم أنه قد وضعت أمامهما الأطباق والأكواب اللازمة لتناول الطعام والشراب، حتى أن كوبين من تلك الأكواب تمّ ملؤهما بنبيذ البلح. يبدو أن كل الجالسين حول المائدة كانوا يعرفون تفسير هذه الملاحظة إلا أنا.

سألت: «هل لا يزال هناك شخصان ننتظرهما ولم يحضرا بعد؟».

همست لي إحدى بنات أخوالي في أذني، وهي تشعر بحرج: «إن هذين الكرسيّين اللذين تعتقد أنهما خاليان، هما في الحقيقة لوالدك ووالدتك، اللذين يجلسان أمامنا الآن لكننا لا نراهما».

ثمّ ذكرت لي قائمة طويلة من أسماء الأقارب، الذين ماتوا أثناء فترة غيابي الطويل عن البلاد، وأضافت أنهم موجودون الآن في مدافن (مونت كامبا)، الواقعة على أطراف المدينة، ومخصّصة لبسطاء الناس من متوسّطي الحال. أدرت بصري في فناء المنزل، حيث وُضعت المائدة التي نجلس حولها، وكان الشيء الوحيد الموجود في هذا الفناء عدا المائدة، هو كوخ خشبي صغير يشغل حيِّزًا ضئيلًا من مساحة الفناء في أحد أركانه. كانت كل منازل الجيران مبنية بقوالب الطوب أو بالأحجار، وتدخل إليها أسلاك الكهرباء، إلا هذا الكوخ الخشبي الصغير في زاوية الفناء.

اهتم الجيران كذلك بإحاطة أفنية منازلهم بالأسوار المبنية هي كذلك إما بقوالب الطوب الأحمر وإما بالأحجار. كانت الفكرة السائدة منذ زمن انتشار مبادئ المذهب الشيوعي في البلاد، هي أنه ليس هناك ما يدعو إلى تحديد مساحات أفنية المنازل، فكلّ أراضي الدولة هي ملكية عامة لكل أفراد الشعب. لم تكن الكونغو قد دخلت بعد العصر الحالي للملكيّات الفردية، الذي يهتم فيه كلّ فرد بتسجيل ملكية قطعة الأرض التي أقام عليها منزله. إلا أن الدولة في المرحلة الشيوعية، كانت أحيانًا تعطي لنفسها الحقّ في انتزاع قطع الأرض من المواطنين الذين بنوا منازلهم عليها؛ بحجّة المصلحة العامة.

ثمّ عندما بدأت الدولة في مرحلة لاحقة في بيع قطع الأراضي لمَن يقدر على دفع أثمانها من المواطنين، كان المشترون لا يكتفون بعقود الملكية التي يحصلون عليها من الدولة؛ لأنه بسبب انتشار عمليات النصب التي قام بها موظّفون حكوميّون مرتشون، وتتلخّص في بيع نفس قطعة الأرض لعدد من الأشخاص، كان كلُّ المشترين يحصلون على نفس صورة عقد ملكية نفس قطعة الأرض. لذلك كان الضمان الوحيد للملكية هو بناء مسكن من الطوب أو الأحجار، وإحاطة قطعة الأرض بسور من الطوب أو الأحجار، ثم الإقامة في المنزل وعدم تركه مغلقًا.

إلا أن ما حدث في بعض الحالات، هو عدم قدرة الساكن الفقير على شراء الطوب أو الأحجار اللازمة للبناء، لذلك كان هذا الساكن الفقير مضطرًّا إلى الاكتفاء ببناء كوخ خشبي صغير في زاوية الفناء، يمكن اعتباره مكانًا مؤقّتا، على أمل أن يستطيع يومًا ما إذا توفّر المال أن يبني منزلًا كبيرًا بالطوب أو بالأحجار. كان هذا الكوخ الخشبي الصغير، الذي يشغل إحدى زوايا فناء أمي، هو منزلها المؤقّت الذي أقامت فيه أغلب سنوات حياتها، واضطرّت إلى الاكتفاء به طالما كانت تعاني من ضيق ذات اليد.

كانت أمي قد حصلت على حقّ ملكية قطعة الأرض بعقد رسمي مؤرّخ في فبراير 1979، حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، تلميذًا في مدرسة (العظماء الثلاثة) الإعدادية. أتذكّر تفاصيل عملية شراء قطعة الأرض، التي كان يمتلكها قبلها أحد زعماء قبائل (الفيلي) الذي ساوم أمي طويلًا، قبل أن يتفقا على ثمن الشراء. كان يدّعي أن هناك مَن يعرض عليه سعرًا أفضل من ذلك الذي اقترحته أمي. أعتقد أن هذا العرض لم يكن إلا حيلة للمساومة. وقد كانت لأمي خبرة بعمليات البيع والشراء؛ لذلك أظهرت له أنها قد تصرف النظر عن الشراء إذا أصرّ على السعر الذي يطلبه، وأن هناك مَن يعرض عليها قطعًا من الأرض للشراء في مواقع أفضل في قلب المدينة.

انصرف البائع ثم عاد بعد أسبوع وقد وافق على السعر الذي عرضته أمي. ولم يعد يتحدّث في موضوع الزبائن الكثيرين الذين يتنافسون على شراء قطعة الأرض. لمحت ابتسامة النصر على وجهها. ثم رأيتها تخرج من جيبها أوراقًا ماليةً، تفردها واحدة واحدة أمام البائع، وهي تحسب القيمة الإجمالية للمبلغ بصوت مرتفع، ثم وضع البائع المبلغ في حقيبة بلاستيكية كان يحملها، ثم حدّد يوم الغد للذهاب إلى المكتب الإداري الخاص بتسجيل عمليّات بيع وشراء

الأراضي، وهكذا أصبحنا من ملاّك الأراضي، ولم يعرف أبي روجر بالأمر إلا بعد أن كانت أمي قد انتهت من بناء الكوخ الخشبي، واستعدّت للانتقال إليه بأثاث شقّتنا المتواضع.

أثناء العمل في بناء الكوخ الخشبي، بدأت أمي على الفور في زراعة أرض الفناء بنبات الذرة، لذلك كانت تعاود الذهاب إلى المكان لمتابعة البناء، ولمتابعة نموّ المحصول. كان خالي (موبيرو) الأخ الأصغر لأمي يعمل نجَّارا في البناء، وكنت أذهب مع أمي لمشاهدته أثناء العمل في إضافة الألواح الخشبية واحدًا بعد الآخر، وكنت أساعده أحيانًا بإحضار أدواته إليه، مثل المنشار والمسامير والمثلّث القائم الزاوية، وكنت أشعر بالفخر من فكرة كوني مفيدًا في سرعة إنجاز البناء. كنت مقتنعًا أنني بيديَّ الصغيرتين هاتين ساهمت في بناء المنزل.

في بعض الأيام كنا نقضي وقتًا طويلًا مع خالي، فكانت أمي في أحد أركان الفناء، تنشغل بإعداد وجبة طعام سنتناولها معًا، في فترة الراحة بعد الظهر، قبل أن يستأنف خالي البناء حتى هبوط المساء. حدث كذلك أن كان لدينا اثنان من عمّال البناء المحترفين القادمين من دولة زائير، كان خالي قد استأجرهما بغرض بناء أرضية صلبة للمنزل، تعزله تمامًا عن التربة الموجودة أسفله. عندما أصبح المنزل جاهزًا لاستقبالنا، غادرنا شقّتنا الصغيرة في حيّ (تياتيا) ذات صباح، رغم وجود بوادر في الأفق، تدلّ على أن عاصفة ستهبّ علينا، تدفع أمامها غيومًا تحمل مطرًا غزيرًا.

كان المنزل يتكوّن من حجرتي نوم صغيرتين، إحداهما لي والأخرى لأمي وأبي، وحجرة استقبال ستوضع بها مائدة الطعام. استمرّت إقامة خالي موبيرو معنا في منزلنا الجديد لفترة من الزمن، وكان قد صنع لنفسه فراشًا وضعه في ركن حجرة الاستقبال، ثم جاءت إحدى بنات إخوة أمي من القرية لزيارتنا في المدينة، فأقامت لدينا لفترة من الوقت، فتركتُ لها حجرة نومي، واشتركت مع خالي في فراشه. عند عودتي هذه المرّة إلى هذا المنزل، بعد غياب دام ثلاثة وعشرين عامًا، لم أصدّق أن هذا هو المنزل الذي قضيت فيه أجمل سنوات عمري من المراهقة إلى بداية الشباب، كان من الصعب عليَّ أن أتخيّل أن أقيم في هذا المنزل الآن ولو لليلة واحدة.

أثناء انعقاد ذلك الاجتماع العائلي في الفناء، كانوا جميعًا يوجّهون نظراتهم إلى وجهي، الذي تبدو عليه علامات الاندهاش الشديد بل الذهول. عرفت أنه منذ وفاة أمي كان خالي موبيرو هو الشخص الوحيد الذي يتردّد على هذا المنزل، ويقيم فيه بين وقت وآخر، ثم كان يشغل إحدى حجرتي النوم، وتخلّى عن الحجرة الأخرى لشخص من أصدقائه لا أعرفه. عندما جئت إلى

المكان وطلبت من خالي الدخول لإلقاء نظرة على المنزل، رفض خالي طلبي واحترمت رغبته. بقيت في الفناء أثناء توزيع زجاجات الخمور، وأثناء بداية الضجيج المصاحب لاحتساء زجاجات الخمور.

عندما اقتربت لحظة انفضاض هذا التجمّع العائلي، ملت على أذن ابن خالي أطلب منه الاطلاع على أوراق ملكية قطعة الأرض والمنزل المقام عليها، أو ورقة تسجيل قطعة الأرض باسم أمي في مصلحة المساحة، فقدّمها لي. هي قطعة ورق وردية اللون، عليها اسم أمي الكامل، الذي يرد فيه أسماء الأب والجد واللقب العائلي. ثم الرقم الذي يشير إلى مساحة الأرض بالأمتار المربّعة، وهي تشغل مساحة 400 متر مربع. عندما عدت بنظري إلى الفناء تشكّكت كثيرًا في أن تكون مساحته هي 400 متر مربع. عندما تحدّثت بهذا الشكّ إلى ابن خالي، ذكر لي أن الجيران عندما بنوا الحائط الذي يفصل بيننا وبينهم، اقتطعوا من أرض أمّي مساحة من الجهة الخلفية لصالحهم.

قال بقدر من الخنوع والاستسلام: «السور الذي بنوه في غيابنا يقع في أرضنا ويأكل منها بضعة أمتار».

تذكّرت أنه أثناء مراهقتي لم تكن الأسوار المبنية بالطوب، هي التي تفصل بين قطع الأراضي، بل الحواجز من الأسلاك الشائكة. تذكّرت كذلك أن هؤلاء الجيران كانوا قد بنوا منزلًا خشبيًّا مؤقّتا، أكبر من منزلنا الخشبي بعض الشيء، قبل أن يبنوا منزلهم الحالي بالأحجار الضخمة. مال خالي موبيرو بأذنه ناحيتنا، وأنصتُّ إلى الجمل التي قالها ابنه، ثم قال بصوت لم يعد هامسًا، كأنه يريد أن يستمع الآخرون إلى ما سيقوله، أو كأنه سيدلي بشهادة يريدهم أن يكونوا هم أيضًا شهودًا عليها.

قال: «أنتم تعرفون أنه بعد مرور أقلّ من أسبوعين على دفن أختي بولين، بنى الجيران هذا السور الضخم دون أن يخبرونا بذلك، وهو ما سمح لهم بالتطاول على ملكيّتنا ببضعة أمتار؛ لأن صاحبة الشأن قد ماتت، وأنا أعرف أن هذا ليس شيئًا طبيعيًّا، فقد استولوا عنوة على قطعة من أرضنا».

هنا حدثت حالة من الهرج والمرج بين كلّ الحضور، الذين بدأوا يتكلّمون جميعًا في نفس الوقت، للتعبير عن عدم رضاهم عمّا حدث من ظلم، وكانوا جميعًا ينتظرون معرفة كيف سيكون ردّ فعلي.

قلت مؤكّدا: «غدًا سأذهب إلى مصلحة تسجيل الأراضي، لتحديد مساحة الأرض التي استولى عليها الجيران. لن أترك هذه المسألة تمرّ دون حساب، فهذه سرقة علنية».

فوجئت بسيل من التصفيق الحار من جميع الحضور، إلا أنني لاحظت أن ابن خالي الجالس إلى جواري لم يشارك في هذا التصفيق، رغم تأكّدي من موافقته على ما اعتزمت فعله. أشار لي برأسه أن أتبعه، ووقف فوقفت ومشيت خلفه مبتعدين عن الآخرين، حتى وصلنا إلى أحد أركان الفناء، خلف الكوخ بعيدًا عن الآخرين. كان لون وجهه قد ازداد قتامة، مما يدلّ على أنه سيعترف لي بشيء خطير. وضع يده على كتفي اليُسرى.

«قال: «أرجوك ألا تفعل ما تقول إنك نويت على فعله غدًا».

«قلت: «لا أفهم ما الذي تقصده بهذا؟».

«قال: «لا تذهب إلى مصلحة تسجيل الأراضي».

قلت: «هل هذا موضع هزر؟ هل تجد من الطبيعي أن يسرقوا من أرضنا بضعة أمتار مربّعة؟ قل لي الحقيقة هل هم دفعوا لك مبلغًا من المال مقابل السكوت عن تلك الأمتار المسروقة؟».

«قال: «لم يحدث هذا مطلقًا، كيف يمكنك أن تعتقد أنني بعت جزءًا من أرض خالتي؟».

«قلت: «أين إذَنْ هي المشكلة؟».

سكت لحظة ونظر إلى أولئك الذين بدأوا في الانصراف من الفناء، في حين انشغل آخرون بالنظر إلينا، متسائلين عن ذلك الحوار الذي يدور بيننا في ركن الفناء.

تنحنح ابن خالتي وقال: «أعتقد أنه ينبغي عليَّ أن أذكر لك شيئًا على قدر كبير من الأهمية، إذ يبدو لي أنك بعدت تمامًا عن حقائق هذا المكان، منذ هجرت الحياة في هذه البلاد».

لم أره أبدًا على هذه الدرجة من الجدّية، ويبدو أن موت والدته التي كانت أكبر سنًّا من أمي، قد وضعه أمام مسؤوليات جديدة؛ لأنه أكبر إخوته العشرة سنًّا، لهذا السبب يضطر أحيانًا إلى أن يتخذ هو القرارات الصعبة.

قال: «هؤلاء الجيران الذين تريد أنت مهاجمتهم، هم أيضًا من عائلتنا، إلا أن المالك مسيو جوما، الذي مات بعد موت والدتك بعام واحد، كان متزوّجا من امرأة غريبة عن العائلة، قام إخوته الذكور بطردها من المنزل كما لو كانت كلبة مصابة بداء الجرب، أما الأطفال الذين أنجبتهم منه، فتمّ توزيعهم على أقارب للأم، ومن بين هؤلاء الأطفال توجد فتاتان تمكّنتا من

الذهاب إلى لندن ومنها إلى باريس، حيث اختفتا ولم نعد نسمع عنهما أي أخبار، والباقون لا يزالون موجودين هنا، وهم تقريبًا في مثل سنّك، ومن المحتمل أنكم كنتم أصدقاء في مرحلة الطفولة، ولعبتم معًا في فنائنا أو في فنائهم، وتناولتم وجبات الطعام معًا إما عندنا أو عندهم. إن الذي يشغل هذا المنزل الآن هو الأخ الأصغر لمسيو جوما، وهو الذي منع الآخرين من بيع المنزل، وبذلك حافظ للأبناء على ميراثهم».

«لو كان هذا هو فقط فضله الوحيد، لكنت اكتفيت به حتى أظهر له كل احترامي، ألم تلاحظ أنه قد أتى إليك قائلًا لك صباح الخير؟ ألم تلاحظ وجوده في الاحتفال الذي أقمناه لك؟ وكيف أنه تعمّد أن يظهر معنا في الصور الفوتوغرافية الجماعية التي التقطت لنا؟ لقد عرفك طفلًا صغيرًا لذلك جاء لتحيّتك كأنه أحد أفراد العائلة. ما الذي سننتفع به لو ذهبنا الآن إلى دور المحاكم لمواجهته قضائيًّا؟ أنت سترحل إلى أوروبا أو أمريكا وتترك لنا هذه القضيّة الساخنة لنعالجها نحن ونتحمّل تبعاتها. مع ملاحظة أن كلّ تلك الممتلكات المادية سنتركها في هذا العالم الأرضي، عند رحيلنا النهائي منه إلى العالم الآخر. لذلك لا أرى سببًا معقولًا لإعلان الحرب على الجيران من أجل بضعة أمتار، لن تفيدنا في أي شيء».

انحبس صوتي، وعاد ابن الخال إلى بقيّة الأهل، في حين ظللت أنا معلّق الأبصار بالكوخ الخشبي الصغير، ثم قمت بالدوران حوله، لألاحظ أن الألواح الخشبية العجوز لا تزال متراصة بعضها إلى جوار بعض، في تضامن راسخ وطيد يتحدّى الزمن. لاحظت أنه من ناحية واجهة المنزل، لا تزال هناك الأحجار التي وضعت كدرجات سلّم يؤدّي إلى الباب رغم أنها تآكلت بفعل الزمن.

أرى كيف أن الخشب تفوّق على الحجر في تحدّي الزمن. إلى يسار الباب توجد النافذة الوحيدة التي تآكلت حوافها بفعل الاستعمال، وتساقطت أخشابها المتآكلة على الأرض، ولم يفكّر أحد في جمعها. أما السقف المعدني للكوخ، فقد ربطت صفائحه المعدنية بالحبال ووضعت فوقها قوالب الطوب، حتى لا تطير بفعل عواصف الرياح. لاحظت أن الجزء الأسفل من الإطار الخشبي للباب قد تآكل بفعل الديدان آكلة الخشب.

نعم لقد سكنت هذا الكوخ خلال سنوات طويلة، وكنت أنام فيه أثناء الليل، ولكن كانت أحلامي أوسع بكثير من تلك المساحة الضيّقة داخل الكوخ. كنت بمجرّد أن أستغرق في النوم، ينبت لي في مكان ذراعيّ جناحان يحملانني فوق السحب، كمغامر رحّالة عبر ممالك شاسعة، أكبر آلاف

المرّات من تلك المساحة الضيّقة المخنوقة داخل الكوخ، الذي يذكّرني بالصيّاد العجوز في رواية (العجوز والبحر)، أو في رواية (العجوز الذي يقرأ الروايات الغرامية).

عند حلول الظلام توقّفت سيّارة أجرة أمام فناء الدار. إنه الخال ماتيتيه الذي طلب لي بالهاتف سيّارة أجرة. كنت أستعدّ للدخول في السيّارة عندما لحق بي ابن الخال.

قال: «أخي... إن هذا الكوخ الخشبي العجوز أصبح عارًا على العائلة، ونحن ننتوي هدمه وبناء منزل حجري مكانه».

نظرت إليه كأنني أوجّه إليه طلقات نارية.

قلت: «لا أوافق على الإطلاق، بل على العكس أنا أفكّر في ترميمه. فهذا المكان كله لن يصبح له أي معنى لو لم يعد هذا الكوخ موجودًا».

بعد لحظة صمت أضفت: «إنه بالنسبة لذكرى أمّي أنا أعتبره قصرًا فاخرًا».

نظر إليَّ بشفقة كأنه لا يفهم سرّ تعلّقي بهذا الكوخ. أضفت المزيد إلى خيبة أمله، عندما قلت: «سأعود العام القادم من أجل عمليات الترميم»».

انطلقت بي سيّارة الأجرة، بينما أخوالي يتمنّون لي سلامة الوصول.

سأعود إلى هنا حتمًا يومًا ما.

(11)

من أجل حفنة دولارات

كنت أتسكّع في حيّ (فونجو) في نهاية فترة ما بعد الظهيرة؛ ربّما في محاولة للعثور على إشارات تدلّني على المناطق التي كنت أتجوّل فيها أثناء طفولتي. كنت في بعض اللحظات أتجمّد تمامًا في مكاني لمدّة بضع ثوانٍ، وأغلق عينيّ، مقتنعًا أنه ليس بهاتين العينين يمكنني أن أرى مواقع الصبا، ليس بهاتين العينين يمكنني الكشف عن الوجه الحقيقي للأشياء التي تتزاحم في ذاكرتي، تلك الأشياء التي أصبحت حدود ملامحها الخارجية غير واضحة الآن في دماغي، بسبب الغياب ثلاثةً وعشرين عامًا.

إن كلّ الذين تتقاطع طرقي مع طرقهم، يشعرون أنني لست منتميًا إلى هذا المكان، حيث إنه من بين سكّان هذه المدينة، لا يوجد شخص واحد يتوقّف أمام الخرائب وأكوام الرديم، باستثناء مجانين المدينة. كنت أتوقّف كذلك أمام الهياكل العظمية لحيوانات المدينة مثل الأحصنة والحمير، التي اختفى جلدها ولم يعد لها إلا عظمها، ولم يفكّر أحد في رفعها من الشوارع. أتوقّف كذلك أمام قأقأة الفراخ التي تجري بين مناضد السوق الكبير المهجور في الوقت الحالي، ولا أعرف مَن جاء بها إلى هنا ولماذا؟

أفراد العائلة الذين قابلتهم أمس خلال الاجتماع العائلي، في فناء منزل والدتي، لا يعرفون أنني عدت أتجوّل في نفس الحيّ، صباح اليوم التالي للاجتماع، فقط على بعد مائتي متر من منزل والدتي، مثل المجرم الذي يعود إلى مسرح الجريمة يحوم حوله، حتى يتأكّد من أنه لم يترك أي أثر يمكن الاستدلال به عليه، وأن الجريمة التي ارتكبها هي الجريمة الكاملة. فهؤلاء الأقارب لو شاهدوني الآن أحوم في المكان، لدعوني من جديد إلى اجتماع عائلي في أحد أفنية منازلهم، يقومون بارتجاله في التوّ واللحظة، على أن يتركوا كالمعتاد كرسيّين خاليين هما لذكرى أبي وأمي. لذلك حرصت على السير لا في الشوارع التي تمرّ أمام منازل أفراد العائلة، بل في الشوارع التي تمرّ خلف منازلهم، وبالتالي تجنّبت السير في شارع (لوبولو)، ثم إنني كبست غطاء رأسي حتى يغطّي أكبر جزء من جبهتي والحاجبين، وذلك كنوع من محاولة التخفّي.

في اللحظة التي وصلت فيها إلى أحد التقاطعات، في طريقي متَّجها إلى السوق الكبير، تركت سيّارتي أجرة تعبران التقاطع قبلي، حتى أعبره بعد ذلك وحدي في هدوء، هنا جاءني صوت

نسائي لسيّدة صرخت ثلاث مرّات بنفس العبارة «أخي الأصغر»، فرفعت رأسي نحوها ورأيت جورجيت، التي تقف في منتصف الشرفة الخارجية لإحدى حانات الميدان. جورجيت هي الثانية في الترتيب من حيث السن، من بين إخوتي الثمانية غير الأشقّاء الذين أنجبهم أبي روجر من زوجته الأولى ماما مارتين.

لمحت كذلك أخاها يايا جاستون جالسًا إلى مائدة عليها زجاجة جعة (بلفورث)، ويضع على عينيه نظّارة شمس، ويرتدي طقمًا غريبًا من الملابس برتقالية اللون، هي من نفس نوع ولون أطقم الملابس التي يرتديها عمّال المخازن في الميناء البحري للمدينة، وقد بدت على ملابسه ملامح الإهمال، وقد تلطّخت ببقع من الشحم الأسود. هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أنه لا يغيّر هذه الملابس أبدًا، أي أنه يستعملها عند ذهابه إلى العمل في الميناء، ويستعملها كذلك عند ذهابه للتسكّع في وسط المدينة بعد انتهاء العمل. إنه يدعوني بحركة من يده للانضمام إليهما.

كان من الغريب أن أعثر عليهما بهذه الصدفة، وقلت في نفسي: إن مثل هذه المصادفات لا تحدث إلا في أفلام الغرب الأمريكي، حين يظهر الخصمان اللدودان فجأة وجهًا لوجه، فيتبادلان كلمتين قاسيتين، ثم يخرجان مسدّسيهما ويطلق كلٌّ منهما النار على الآخر في نفس اللحظة.

«قالت: «تعالَ انضم إلينا وخذ مشروبًا معنا».

وجهها لم تظهر عليه علامات السعادة برؤيتي، لذلك دخلت الحانة متردِّدا. جورجيت تعدّت بوضوح سنّ الخمسين، لكنها ترفض حكم السنوات عليها، فهي تلطّخ وجهها بالمساحيق البيضاء، وتصبغ شَعر رأسها، ولكننا نلمح الشعيرات البيضاء أو الرمادية تحت الصبغة، على شَعر الصدغين والرقبة. إنها تحمل ملامح وجه أبيها روجر، مع بعض الإضافات النسائية، لهذا كنّا في طفولتي نناديها بلقب طبق الأصل (فوتوكوبي)، وكان هذا اللقب يغضبها. أما يايا جاستون فيبدو أنه أكثر قبولًا منها لحكم الزمن عليه، فهو لا يقاوم فعل الزمن في وجهه، وتبدو شفتاه محمرّتين بسبب إدمان الخمور، ولديه ذقن صغير من شعر غير مهذّب. عندما حاول أن يقف ليقبّلني لم يستطع الوقوف، وكاد أن يفقد توازنه.

«قالت له: «ابقَ جالسا».

هي تحاول أن تخفي عنّي أن أخاها ثمل. يبدو أن هذه هي حالته الطبيعية طول الوقت. قدّمت لي كرسيًّا خفيفًا فجلست عليه، ثم طلبت لي من النادل زجاجة بيرة. حاولت أن تجعل وجهها

مغلقًا، فلا أستطيع أن أرى مشاعر المرارة عليه.

«قالت: «ماذا جئت تفعل في هذه المدينة؟ هل تعتقد أننا لا نزال في احتياج إليك؟».

تلقّيت الصفعة دون ردّ. فاستأنفت الكلام وصولًا إلى بغيتها.

قالت: «أنت في (الرأس الأسود) منذ أيّام عديدة، ومع ذلك فأنت لم تفكّر في الحضور إلى منزلنا لزيارتنا».

قاطعها أخوها الأكبر محاولًا إنقاذي منها.

«قال: «لقد شاهدتك قبل يومين في المؤتمر الذي عقدته في المعهد الفرنسي».

نعم قابلته هناك، وهي مقابلة تركت في نفسي أثرًا سيِّئا، وأعادت إلى ذهني ذكريات مزعجة. صحيح أنني شعرت بالألم من أجل تدهور أحواله، لكني شعرت كذلك بالألم من ذكرى والدنا روجر. في تلك الليلة لم ألحظ وجوده بين جمهور الحضور، إلا في اللحظة التي كانوا ينوون فيها طرده من القاعة بسبب الإزعاج الذي سبّبه للآخرين، وهي اللحظة التي أمسك فيها بالميكروفون، ليتحدّث فيه رغم ضحكات الجمهور الساخرة منه، الذي أدرك أفراده أن جاستون يحافظ بصعوبة على توازنه واقفًا بسبب كونه مخمورًا. عندما أعطوه الميكروفون لم يقل أي شيء أكثر من تكرار كلمة (آلو) كأنّه فنّي يقوم بتجربة الآلة، ثم نجح أخيرًا في أن يقول شيئًا.

قال: «أنا اسمي جاستون، وأنا هو نفس الشخص الذي يظهر بنفس الاسم في رواية (غدًا سأبلغ سنّ العشرين)، التي تتحدّث أيضًا عن والدنا المتوفى (بابا روجر)، فأنا إذَنْ الأخ الأكبر لهذا الأستاذ الجالس على المنصّة، الكاتب المشهور الموجود أمامكم، فأنا وهو لدينا نفس الأب ونفس الأم».

حدثت في القاعة حالة من البلبلة والتشوّش، وتوالت من جهة الجمهور صيحات الإهانة، ثم انتزعوا من يده الميكروفون. عندما شاهدت رجال الأمن يقتربون منه؛ لإجباره بالقوّة الجسمانية على الخروج من القاعة، أمسكت بالميكروفون وقلت: «اتركوه يرحل في سلام؛ فهو فعلًا أخي الأكبر».

هنا حلّ صمت المقابر لبضع ثوانٍ، ثم جاءت صيحات الانتصار من فم جاستون.

قال: «هذا هو ما كنت أودّ أن تنصتوا إليه وأنا أقوله لكم، وقد أقرّ أمامكم بأنني أخوه الأكبر، إذَنْ أقول لكم يجب أن تحترمونني، فأنا أحد أشخاص رواياته، وسيظل الناس يعرفونني حتى بعد

موتي. دعوني أسألكم كم شخص هنا بينكم الآن في شهرتي، ويمكنه أن يقول عن نفسه إنه شخصية روائية؟ ولا شخص واحد. الآن يمكنك أن تستمر يا أخي الصغير في مؤتمرك، ويمكنك أن تستأنف الكلام فأنا سأصمت الآن تمامًا، وسأنتظرك في نهاية المؤتمر».

اتفقنا أنا وهو على موعد نلتقي فيه، في منزل والدنا، خلال الأيام القليلة التالية.

قال: «أعطني نقودًا للمواصلات».

أعطيته ورقة مالية فئة العشرة آلاف فرنك كونغولي، وضعها على الفور في جيبه، ثم استدار وأعطاني ظهره، وهو يغمغم: «أنت تعرف أن أمي مارتين لم تعد تعيش في (بوانت نوار)، منذ وفاة بابا روجر، بل هي انسحبت عائدة إلى قريتها لتعيش فيها، لكني سأحمل إليها النقود التي ستجلبها أنت لها. واسمح لي أن أعلن خبر زيارتك لمنزل الأسرة على جميع أفراد الأسرة».

في الليلة التالية على ذلك اللقاء في المعهد الفرنسي لم يغمض لي جفن. انشغلت بعدّ الحشرات التي تصطدم بالمصباح الكبير المعلّق فوق رأسي. هل كان أخي في حاجة فعلًا إلى أن يشير إلى علاقتنا الأسرية هكذا علنًا أمام كلّ هذا الحشد الذي يعرف أغلب أفراده أنني طفل أمي الوحيد بلا أخ أو أخت؟ ما هدفه من تكرار كلمة أننا من نفس الأب؟ ثم إنه كذب فيما يتعلّق بكوننا من نفس الأم. هل يعتقد أن رابطة الدمّ هي القادرة وحدها فقط على التقريب بين شخصين؟

هو على الأقل كان مقتنعًا أن الإعلان عن رابطة الدمّ بيني وبينه، سيرفع من شأنه أمام جمهور المؤتمر، وأنه لو كان قد قال إن أباه الحقيقي هو الذي تبنّاني بعد زواجه من أمي، لكان كلامه هذا سيُحسب عليه ولا يضاف إلى حسابه بل يخصم منه.

الحقيقة هي أن رؤيتي ليايا جاستون مرتديًا مثل تلك الثياب الرثّة التي كانت على جسده، أثّرت في نفسيّتي تأثيرًا قويًّا، بالإضافة إلى أن سخرية هذا الحشد العلنية منه، جعلتني أشعر بضيق في صدري؛ لأنني بصفتي أخًا له أتحمّل أنا أيضًا جزءًا من هذه السخرية نفسها. وقد أدرك الجمهور انفعالي الشديد بسبب هذا الموقف، عندما أردت أن أتكلّم فتحشرج صوتي. ثم حدث بعد ذلك الموقف المحرج، أن فقدت تمامًا حماسي لاستئناف الردّ على أسئلة الجمهور، ذلك الحماس الذي كان باديًا بوضوح على أسلوبي في الكلام في بداية المؤتمر.

لم يكن يايا جاستون شخصًا عابرًا في حياتي، ولهذا السبب اخترت أن يكون إحدى الشخصيّات الهامة في روايتي (غدًا سأبلغ سنّ العشرين)، جعلته فيها أخًا أكبر بكلّ المقاييس،

وبطلًا ونموذجًا يُقْتَدى به، وشخصًا مهووسًا بالنظافة الشخصية. عندما كنتُ طفلًا كان يأخذني تحت جناحه، فأنام في حمايته في حجرته، رغم معرفته بأن هذا يجعل كلّ إخوته الأصغر منه يشعرون نحوي بالغيرة، وهم إخوته الحقيقيّون الأشقّاء من نفس الأب ومن نفس الأم، وليس مثل حالتي مجرّد طفلٍ تبنّاه والده.

لا تزال ذكريات تلك الفترة من حياتي تطاردني، فأتذكّر مثلًا كيف أن يايا جاستون كانت لديه رفيقات كثيرات مغرمات به من بين فتيات المدينة، يأتين إلى حجرته ليشغلن أماكنهنّ فوق التي كانت تتميّز بالكرم الشديد في ،*Genevieve* فراشه واحدة بعد الأخرى. أتذكّر منهنّ جينيفييف عطائها كعشيقة وكأم. كنتُ حقًّا أريد زيارة هذا الأخ الأكبر يايا جاستون، المحاط بكل هذه الذكريات، وحسنا فعلت بتحديد مكان الزيارة في منزل بابا روجر، فهو نفس المنزل الذي عرفني في طفولتي، وهو المكان الوحيد الذي يمكننا فيه أن نتبادل أطراف الحديث بهدوء، بعيدًا عن حالة الهياج والاستثارة التي كان عليها في ليلة المؤتمر.

إلا أنه لم ينتظر الموعد المحدّد للزيارة المنزلية المتّفق عليها ليلة المؤتمر، بل عاود الظهور في حياتي هكذا فجأة في شرفة تلك الحانة مع أخته جورجيت. أتساءل هل تعمّدا اختيار الجلوس في شرفة هذه الحانة، التي تقع على مرمى البصر من منزل والدتي، على أمل أن يلمحا طيفي عند خروجي منه أو دخولي فيه؟ لم تكن علاقتي حميمة بجورجيت، مثلما هي حميمة مع يايا جاستون، إذ عندما كنت طفلًا في منزلهم، كانت هي تميل إلى قضاء أغلب الوقت مع أصدقائها وصديقاتها خارج منزل أسرتها، لذلك لم أكن أجدها هناك عند ذهابي إليهم. وكان بابا روجر غاضبًا منها، ويشتكي من أن فترات غيابها عن المنزل تطول مرّة بعد أخرى.

ثم إنها كانت في صراع دائم مع أمها مارتين، ومع أخيها الأكبر جاستون، الذي كان ينبغي علينا جميعًا احترامه بصفته الأخ الأكبر. لذلك كنت أعتبر جورجيت فتاة عصرية متحرّرة متمرّدة على التقاليد، وفقًا للسياقات المجتمعية في بلادنا، أثناء مراهقتها في نهاية الستّينيات وبداية السبعينيات. لذلك كانت ترتدي ثيابًا أقرب إلى التعبير عن روحها المتمرّدة، وهي ثياب كان مجتمع ذلك الوقت يعتبرها غير لائقة؛ لأنها أقرب إلى ذوق الملابس الغربية، ونموذج الأناقة الغربية، التي بدأ الشباب الأفريقي وقتها في تقليدها. كان أغلب عشّاق جورجيت هم من بين الفتيان الذين أطلقنا عليهم لقب (الباريسيّين)، لكونهم ذهبوا من الكونغو إلى باريس ثم عادوا منها، وكانوا يرتدون آخر صيحات الملابس الباريسية.

كانت من بين أعجب عادات هذا الشباب تبييض البشرة السوداء، باستعمال مستحضرات كيميائية من مادة (الهيدروكينون)، على غرار ما فعله بعض نجوم الغناء الأمريكيين. عدا ذلك كانت هناك أيضًا عادة ملء المعدة والأمعاء بالطعام الكثير، حتى تتكوّر البطون، وهو ما كان يُنظر إليه على أنه علامة من علامات الرخاء الاقتصادي، بدلًا من البطون المسطّحة التي لم تكن تدلّ إلا على الجوع والفقر، ثم إن البطن المكوّر يُسَهّل عملية ربط الأحزمة. كانت عودة الشباب الباريسي إلى (الرأس الأسود) مصدر قلق للعائلات؛ لأن الفتيات كنّ يفقدن رؤوسهنّ بسهولة أمام الشباب (الباريسي)، ويقضين الليل بطوله في مرافقة الشباب (الباريسي) في الحانات.

عندما شاهدت جورجيت مع يايا جاستون في شرفة تلك الحانة، أدركت أنها هي التي خطّطت لهذا اللقاء الذي يبدو عشوائيًّا، هذه الأحبولة التي يراد بها اصطيادي؛ لأن جاستون كان في حالة سكر بيّن، لا يعي تمامًا ما تفعله. وضع النادل زجاجة جعة على المائدة أمامي.

قالت: «اشربها هكذا باردة».

بدت جورجيت هادئة الأعصاب. بدأت في تنفيذ طلبها فبدت على وجهها ملامح الانتصار.

قالت: «كنا نعرف أنا وأخي أنك ستدور حتمًا تتسكّع في هذه النواحي، وهذا هو السبب في أننا اتخذنا من شرفة هذه الحانة مقرًّا لنا. نحن نعرف أن محبّتك لوالدتك ولمنزلها كانت أكبر من محبّتك لبابا روجر ولمنزله».

هنا انضمّ إلى مائدتنا فجأةً شاب لا أعرفه، في حوالي الثلاثين من عمره.

قالت: «إنه ابن عمّ لنا، طلبت منه أن يمرّ علينا هنا في هذا التوقيت، فهو الذي سيأخذ منك النقود، التي كان من المحتّم عليك أن تعطيها لأبينا روجر، لو أنه كان لا يزال باقيًا على قيد الحياة».

حرّك جاستون رأسه بعلامة الموافقة ثم قال: «لا تغضب يا أخي الأصغر، يمكنك أن تكتفي بإعطائه خمسين ألفًا من الفرنكات الكونغولية، وسيكون ابن العمّ هذا راضيًا تمامًا».

قفزت جورجيت من مكانها قائلة: «ماذا تقول؟ خمسون ألفًا من الفرنكات الكونغولية؟ هل تدرك يا جاستون ما قلته للتوّ؟ هل مبلغ تافه كهذا هو الذي سيعيد أبانا روجر إلى الأرض؟ وأنا كم ينوي أن يدفع لي أنا؟ هل يعتقد أنني سأقبل بمثل هذا المبلغ؟».

قال: «اهدئي يا أختي أنا متأكّد من أن أخي الأصغر لن يبخل عليكِ بمائة ألف فرنك كونغولي، أنا أعرف كم هو كريم».

قالت: «ليس هناك أي مجال للشكّ في ذلك، فأنا أرفض أن يسخر منّي، ولن أقبل مبلغًا أقلّ من هذا، خاصة بعد غيابه كلّ هذه السنوات، خارج البلاد دون أن يفكّر في العودة مرّة واحدة لرؤيتنا، ولم يرسل إلينا أي شيء منذ سفره... بل دعني أقول لك إنني كنت أطمع في أن أحصل على مبلغ مليون فرنك كونغولي؛ لأننا قمنا وحدنا بدفن والدنا روجر، وقد كلّفنا هذا الكثير من المال والجهد، لم يتكلّف هو منه أي شيء. هل تعتقد حقًّا أنني جورجيت سأقبل بمبلغ مائة ألف فرنك كونغولي؟ أنت واهم. فإذا كان هذا هو المبلغ الذي ينوي أن يعطيني إيّاه فسألقي بالنقود في عرض الطريق».

كنت في أثناء ذلك الحوار بينهما، أقوم بعمل حساباتي في رأسي، فأنا لم يكن معي في جيبي إلا حوالي ثلاثين ألف فرنك كونغولي، وهو يبتعد كثيرًا عن المبلغ الخرافي الذي قدّرت أختي أنني سأعطيها إيّاه. بدأت أشعر نحوها بالكراهية. لم أعد قادرًا على أن أنظر إليها في عينيها؛ لأنني لم أعد أعتبرها أختي بل هي مجرّد امرأة غريبة. هي لا تقيم أي وزن للعواطف؛ لأنها لا تتكلّم إلا عن المال، ولم تتكلّم حتى عن ذكرى أبينا روجر. هل هي تعتقد فعلًا أن عليَّ أنا وحدي، أن أسدّد من مالي الخاص كلّ مصاريف جنازة أبي روجر؟ حاولت أن أتغلّب على شعوري بالغيظ الشديد.

لاحظت أن الشاب الذي لا أعرفه، وهو من المفترض أن يكون أحد أبناء العمومة، ينظر بين وقت وآخر إلى حذائي، ثم خرج من صمته الطويل قائلًا: «هل تترك لي حذاءك هذا هديّة منك؟».

في نفس اللحظة اتجهت أنظار يايا جاستون إلى حذائي الذي اخترته لأنه فعلًا يناسب الأجواء الحارة. قال: «أخي الأصغر، أعتقد أنك لن تعطي هذا الحذاء لأحدٍ غيري، أما ابن العمّ هذا فيمكنه أن يشتري حذاءً آخر مثله من الأسواق بالمال الذي سوف تتركه له».

هنا اتجهت أنظار المدعو ابن العمّ إلى قميصي الأبيض وإلى بنطالي الجينز، لكن قبل أن يفتح فمه سبقه يايا جاستون إلى القول: «القميص والبنطال هما أيضًا لي، وعلى أخي الأصغر أن يعطيني كذلك سترة تتفق مع القميص والبنطال، وحبّذا لو كانت تلك السترة التي كان يرتديها يوم مؤتمر المعهد الفرنسي».

لم أعد أعرف كيف سأخرج من هذا الفخّ الذي أوقعوني فيه. يجب أن أجد على الفور عذرًا يسمح لي بمغادرة المكان. هنا خاطرت بالقول: «هل موعدنا في منزل أبي روجر لا يزال قائمًا؟».

أجابت جورجيت: «نعم طبعًا وبكلّ تأكيد، ولقد أخطرنا الجميع به، وكلّ واحدٍ منهم ينتظر بفروغ صبر نصيبه في النقود التي ستعطيها لكلٍّ منّا. أمّا أنا فيجب أن أحصل على نصيبي وحدي الآن؛ لأنني كما تعلم لا أحبّ الاختلاط بالآخرين، خاصةً وهم يستعدّون للاشتباك في عراك طويل بسببك».

قلت: «أنا ليس لديَّ الآن أيّ نقود في جيوبي، فأنا لم أكن أتوقّع أن أقابلكم هنا».

قاطعني يايا جاستون: «اسمع أخي الأصغر، حتى لو لم يكن معك الآن إلا بضع عشرات الآلاف من الفرنكات الكونغولية، فلنأخذها منك الآن مقابل مصاريف انتقالاتنا، والباقي يمكن أن نحصل عليه منك في يوم موعد لقائنا مع الآخرين في منزل أبي روجر».

لم تكن جورجيت موافقة على هذا الرأي.

هي: «ألا يمكنك يا جاستون أن تغلق فمك بين وقت وآخر؟ هل أنت سمعت ما قلته أنا الآن؟ هل تريد من أخينا الأصغر أن يعطيني المبلغ الذي طلبته منه، أي المليون فرنك كونغولي، أمام كل الآخرين؟ هل أنت لا تدرك حجم المتاعب التي يمكن أن تحدث؟».

قال المدعو ابن العم: «يمكن حلّ هذه المشكلة لو أنه حضر إلى منزل أبي روجر ساعة قبل الموعد المحدّد للآخرين، ثم تذهبين معه إلى ركن هادئ في أحد المشارب حيث يعطيكِ المبلغ الذي تريدينه منه قبل حضور الآخرين».

أكّد يايا جاستون موافقته على الفكرة بالقول: «إنها فكرة لا بأس بها».

حاولت جورجيت أن تبحث عن طريقة أخرى تعارض بها هذا الاقتراح، إلا أنها على ما يبدو لم تجد حلًّا آخر، لذلك استسلمت للفكرة وقالت: «اتفقنا، إذَنْ هذا هو ما سنفعله. أما الآن فيمكننا أن نحصل على الفكّة التي معك لزوم مصاريف انتقالاتنا».

أنا أعرف أن مصاريف المواصلات اللازمة لثلاثتهم للعودة من هذا المكان الذي نحن فيه الآن، إلى منزل أبي روجر، لا تكلّف أكثر من ألف فرنك كونغولي، ولكن لأني لم أرغب في التفاوض في السعر، وضعت يدي في جيب سروالي، وأخرجت منه ورقتين ماليّتين من فئة

العشرة آلاف فرنك كونغولي، ووضعتهما على المائدة أمامهما، فأخذتهما جورجيت على الفور، دون أن يجرؤ الآخران على قول أي شيء. هكذا بقيت معي ورقة مالية من فئة العشرة آلاف فرنك كونغولي، تكفي للذهاب إلى مطعم جاسبار لتناول الطعام، ثم العودة بسيّارة أجرة إلى الفندق.

عند مغادرتي شرفة الحانة، كنت أعرف مسبقًا أنني لن أذهب إلى ذلك الاجتماع العائلي، المزمع إقامته في منزل أبي روجر. كنت أعرف أنني حتى اليوم الذي سأغادر فيه (الرأس الأسود) لن أحاول مجدًّدا أن أرى يايا جاستون بسبب أخته جورجيت. غادرت شرفة الحانة بينما كان الثلاثة مشغولين، بمعرفة الطريقة التي سيقتسمون بها فيما بينهم، مبلغ العشرين ألف فرنك كونغولي. هم ظنّوا أنني لم أعد موجودًا، بدليل أنني سمعت صيحة جورجيت وهي توبّخ الرجلين وتقول: «أنا سأحصل وحدي على اثني عشر ألف فرنك كونغولي، ويمكنكما أن تقتسما فيما بينكما الثمانية آلاف فرنك المتبقّية».

(12)

المرأة ذات الوجهين

لي ابنة عم تحمل اسم بيانفونو، وهو ما يعني أهلًا وسهلًا، مرضت فأدخلوها مستشفى (أدولف سيسيه)، هاتفني أخوها التوأم جيلبرت تليفونيًّا قبل دقائق لإبلاغي بالنبأ. هو: «.... وحيث إنك تسكن بالقرب من المستشفى، يمكنك أن تذهب لتراها، فهذه الزيارة ستسعدها».

ألحّ عليَّ بنفس هذه الطريقة عدّة مرات للذهاب، ولم تكن لديَّ في الحقيقة الشجاعة اللازمة للذهاب، رغم أنني أستطيع فعلًا من شرفتي في الشقّة التي أسكنها، أن أرى مبنى هذا المستشفى الذي تبدو عليه ملامح المعمار في العصر الاستعماري، وقد تركت عليه السنوات آثار مرورها، وقد أدار هذا المبنى المنعزل عن المدينة ظهره للمحيط الأطلنطي. كنت كلّ صباح أقف في شرفة الشقّة وفي يدي فنجانٌ من القهوة، ألقي نظرة على المستشفى. لاحظت أنه كلما جاءت سيّارة الإسعاف تحمل أحد المرضى إلى المستشفى، ظهرت الغربان السود فوق سطحه. في طفولتي كان أهل المدينة يطلقون على هذا المكان المتداعي الألقاب الجديرة بمكان للموت لا بمكان للاستشفاء.

كنت في مرحلة المراهقة تلميذًا في ليسيه (كارل ماركس)، وهو ما يعني أنني أثناء ذهابي صباحًا من المنزل إلى المدرسة، وعودتي بعد الظهر من المدرسة إلى المنزل، أمرّ في كلّ مرّة أمام هذا المستشفى، وتنعقد أمعائي في كلّ مرّة بسبب هذا الإحساس بالكرب أو بالغم، الذي يوحي به إليَّ مجرّد مروري أمام المستشفى، لذلك اعتقدت أنه لتجنّب سوء الطالع الذي ينبعث من هذا المكان، من الأفضل لمَن يمرّ أمامه ألا ينظر إليه، بل عليه أن يحوّل نظره عنه.

بل إن الكبار كانوا يجعلوننا نعتقد أن الجنّ والعفاريت يسكنون هذا المبنى، وأنهم قادرون على حفظ ملامح وجوه كلّ مَن ينظرون إلى المبنى، وعلى الانتقام منهم لاحقًا عندما يمرضون ويحضرهم ذووهم إلى المستشفى. كان هذا هو السبب في تصرّف بعض التلاميذ الغريب أثناء المرور أمام المستشفى، إذ يرفعون قمصانهم ويغطّون بها وجوههم، حتى لا يتمكّن الجنّ من التعرّف عليهم، أو يديرون لواجهة المستشفى ظهورهم.

كلّ مشاعر الخوف تلك كان يغذّيها في الحقيقة شخص اسمه بازيل، يشغل وظيفة العامل المسؤول عن مشرحة المستشفى، وكان مشهورًا عنه القيام ببعض الممارسات غير الطبيعية، مثل تبادل أطراف الحديث مع الموتى، وأن يعاقب بالضرب بالسياط الجثث التي لا تحافظ على هدوئها في الثلاجات. ثم إنه كان يصل إلى قمّة غضبه عندما يتعلّق الأمر بجثث فتيات يشاع عنهنّ أنهنّ خلال حيواتهنّ لم يكنّ مستقيمات أخلاقيًّا، فكان يعاقبهنّ بالصفع على الوجوه، وبحشرهنّ جميعًا معًا في ثلاجة واحدة تضيق بهنّ.

كانوا يسمعونه في المستشفى وهو يتحدّث إلى جثث أولئك الفتيات، وهو يوجّه إليهنّ الأسئلة مثل: «أين زهو الواحدة منكنّ بجسدها؟) و(هل كانت الواحدة منكنّ تعتقد أنها ناجية من الموت؟»، ثم يقول إنه بالنسبة إلى مَن يقوم بوظيفته فإن كلّ إنسان في الحقيقة هو ليس إلا كومة من العظام، فهذا هو كلّ ما يتبقّى من أي إنسان بعد أن يأكل الدود لحمه وأمعاءه.

عندما كنا نقابل بازيل في شوارع الأحياء الشعبية، كنا نسمعه يتحدّث مع شخصيّات غير مرئيّة، وهو يحرّك ذراعيه في كل اتجاه، وهو ما كان يدعو كلاب الشوارع إلى ملاحقته، ولكن عن بعد فهي أيضًا كانت تخشى الاقتراب منه. من ضمن أقواله المأثورة: إنه لا يأكل لحوم المواشي من بقر وخلافه؛ لأنه لا يجد أي فرق بين لحوم البقر ولحوم البشر.

قال جيلبرت بصوت واهن: «إن بيانفونو تقيم في الحجرة رقم واحد، وهي نفس الحجرة التي مات فيها أبونا روجر».

كأن هذا هو نوع من التسليم بالقدر، والإقرار بالمصير المحتوم الذي ينتظر أخته التوأم. وبما أنني لم أعرف ما الكلمات التي ينبغي استعمالها الآن لتهدئة مشاعره، لذلك اكتفيت بالقول: ««أليست هناك حجرات أخرى خالية غير الحجرة الحالية رقم واحد؟».

قال: «كلّ الحجرات الأخرى مشغولة، والسبب الحقيقي في أن الحجرة رقم واحد تكون دائمًا متاحة، هو أن أهل المرضى عندما يعرفون أن مريضهم سيوضع في الحجرة رقم واحد، يرفضون تركه في المستشفى، ويفضّلون على ذلك العودة به إلى بيته. أما أنا فلم يكن لديَّ أي خيار؛ لأن أختي كانت متألّمة جدًّا».

قال: «إن أوّل من مات في هذه الحجرة هو الخال ألبرت، منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، ثم جاء بعده اثنان من أولاد الأعمام. وفي جميع حالات الوفاة تُقال دائمًا نفس العبارات: انتقل إلى

رحمة الله بعد صراع طويل مع المرض. وهو التعليق الذي يمنع الأقارب من الاستفهام عن السبب الحقيقي في الوفاة. الأدهى من ذلك هو أنه منذ أن جاءت بيانفونو إلى المستشفى، لم يهتم أي طبيب بالكشف عليها، ويدّعون أنهم غير مؤهّلين لعلاج مرضها، حتى إنني اتصلت بابن عمّ يعمل طبيبًا في مستشفى برازافيل الجامعي، أطلب منه الحضور إلى (الرأس الأسود)، وقال إنه لن يستطيع الحضور قبل مرور ثلاثة أيام، لذلك فإن بيانفونو لا تحصل حاليًا على أي علاج إلا الأسبرين».

قلت: «كل شيء سيكون على ما يرام، وأرجو ألا تنسى أنكما توأم، وأنكما في البداية كنتما جسدًا واحدًا، ولذلك فعن طريقك أنت، وبواسطة قوّتك أنت، يمكنها أن تتجاوز أزمتها تلك».

نجحت تلك الكلمات في مواساة ابن خالي، بدليل أنه أطلق من صدره زفيرًا طويلًا، ليس له إلا معنى واحد هو أنه بهذا الزفير يتخلّص من أحمال ثقيلة على كتفيه. في اليوم السابق على دخول بيانفونو المستشفى، كانت قد أرتني صورة فوتوغرافية لها وهي شابة صغيرة. كنت أفهم أنها كانت تريد أن تريني كيف أنها كانت شابة جميلة، قادرة على إدارة رؤوس الرجال، وأنها ليست هذه العجوز النحيفة التي أراها أمامي الآن. أو كأن هذا التصرّف هو للاعتذار عن الحالة التي وصلت إليها الآن.

أتذكّر أنه عندما كنا في الثانية عشرة من العمر، أننا كنّا ننام معًا في فراش واحد، أنا وهي وتوأمها جيلبرت، إذ كان وجودي بينهما يجعل الأمور متوازنة بعض الشيء؛ لأنني كنت الحاجز بينهما، الذي جعل كلًّا منهما في مرحلة لاحقة من العمر، قادرًا على اتخاذ الخطوات الأولى نحو الاستقلال عن الآخر. كنا نكوّن ثالوثًا لا ينفصل ليلًا ونهارًا. كان جيلبرت طفلًا أنانيًّا مدلّلًا، يحتفظ بألعابه لنفسه لا يشرك أحدًا غيره فيها، وأنا كنت الاستثناء الوحيد، إذ كان يعتزّ بصداقتنا إلى درجة أنه كان يعيرني ألعاب طفولته التي يتعلّق بها، مثل ذلك القطار الكهربائي الذي كان في نظرنا كأطفال أجمل لعبة أطفال في العالم، الذي كان يمكننا أن نعبر به فوق الكباري، ونجتاز به مناطق تعجّ بالسكّان الأصليين للبلاد من قبائل الهنود الحمر.

كنا أثناء الليل في الفراش، ندخل في معارك ملحميّة ضد أشباح أعداء وهميّين، كان جيلبرت يستعملني فيها كحائط صدّ ضدّ تجاوزاته التي يمكن أن يلام عليها. أتذكّر بشكل خاص خوفه المرضي من الظلام، وكان العمّ ألبير يطفئ الأنوار كلّما أمكنه ذلك، بغرض التوفير في استهلاك

الطاقة الكهربائية، وهو ما لم يكن يسمح لجيلبرت بالبقاء هادئًا ساكنًا، ولذلك كان يتحرّك كثيرًا في الفراش بسبب إحساسه بالقلق.

كان لدى جيلبرت اعتقاد جازم بوجود وحش ثلاثي الرؤوس، يسكن في مواسير الصرف الصحّي في شارع (لوبولو)، الذي يطلّ عليه منزل والديه، وأن هذا الوحش حتمًا سيظهر لنا في منتصف الليل بغرض ابتلاعنا. السبب الحقيقي في ظهور هذا الوحش في خيالات جيلبرت هو أن إخوته الأكبر منه كانت لديهم آلة عرض سينمائي، اشتراها لهم بابا روجر، قاموا بتشغيلها ذات يوم في فناء الدار، لعرض فيلم ظهرت فيه شخصية هذا الوحش الثلاثي الرؤوس. في نفس ذلك الفيلم تظهر شخصية سيّدة قادمة من كوكب آخر ليس هو كوكب الأرض، كانت قادرة على التنبّؤ بنزول تنّين خرافي بثلاثة رؤوس من الفضاء الخارجي إلى كوكب الأرض، اسمه الملك غيدورا، يقول الفيلم إن الأمل الوحيد لإنقاذ سكّان الأرض من انتقام التنّين هو في يد جودزيلا، الذي يجب أولًا أن تتحد جهوده مع موترا.

أما جيلبرت فكان واثقا من أن جهود جودزيلا وموترا لن تصل إلى شارع (لوبولو)؛ ببساطة لأنه ليس موجودا على أي خريطة من خرائط المدينة، لذلك هما سيتركاننا نقع فريسة في يدّ التنّين ثلاثي الرؤوس. لذلك كان يفضّل أن ينام في الوسط بيني أنا من ناحية وأخته من ناحية، على أن يغطّي جسمه ورأسه تمامًا بأغطية الفراش حتى صباح اليوم التالي. هذا الخوف نفسه هو الذي كان يمنعه من مغادرة الفراش، للتبوّل في وعاء البول الذي يضعه لنا الأعمام إلى جوار الفراش؛ لأن خروجه من مخبئه حتمًا سيؤدّي إلى وقوعه فريسة بين أسنان التنّين، وهكذا كان يبلّل فراشنا بالسائل الساخن.

وصباح اليوم التالي يدّعي أنني السبب في وجود هذا البلل بالفراش، ولا تتدخّل أخته التوأم لإنقاذي من يد العم ألبير. كان صمتي وخجلي يكتفانني، ويمنعانني من الدفاع عن نفسي والتصريح بالحقيقة، وكان جيلبرت ينتهز الفرصة فيهدّدني إن أنا قلت الحقيقة، أن يمنعني من اللعب بقطاره الكهربائي، أو يهدّدني بشيء أفدح وهو ألا يتركني لاحقًا أنام معهما.

كان العم ألبيرت يحيط الفتاة بقدر من رعايته، أكبر من ذلك القدر الذي كان يخصّ به الفتى، وهو ما كان يغيظ جيلبرت، فيظل جالسًا في ركنه يغمغم بكلام غير مفهوم، حتى تأتي أخته لمصالحته، وتجعله يشاركها كلّ هدايا العمّ لها من مأكولات ومشروبات وخلافه. حتى أمي كانت تظهر بوضوح تفضيلها للفتاة على أخيها التوأم، وتخصّها بالكثير من مشاعر الحنان، فهي

بمجرّد أن تذهب لزيارة العم ألبيرت تسأله: «أين هي ابنتي بيانفونو؟» فتخرج الفتاة من حجرتها مندفعة إلى أحضان أمي وبين ذراعيها، فتطلب أمي من إحدى الخالات أن تتركها تأخذ الفتاة لقضاء النهار معها في السوق الكبير.

فتردّ الخالة: «يا بولين، لماذا تطلبين مني هذا الطلب بأن أأذن لكِ باصطحاب الفتاة فهي ابنتكِ».

عندما تعود بيانفونو في المساء من السوق الكبير، تكون محمّلة بهدايا أمي لها مما يجعلني أشعر نحوها بالغيرة، خاصة وأن أمي لم تجعلني أبدًا أقضي النهار كله معها في السوق، حيث كان سيثير اهتمامي حتمًا كل الحوارات التي تدور بينها وبين الزبائن من مشتري بضائعها، بالإضافة إلى لذّة قضم حبّات الفول السوداني، وأكل الموز الناضج، واحتساء عصير الزنجبيل الطازج.

في الحقيقة إننا إذا كنّا نخاف من بيانفونو؛ فليس ذلك لأنها ذات طباع عاصفة متقلّبة غير متوقّعة، ولكن بسبب معتقداتنا القبائلية الخاصة بالتوائم وكل ما يُشاع عنهم، ومنها مثلًا أن الفتيات التوائم أكثر قوّة جسمانية من إخوتهم الذكور، وهكذا كنا نهرب من أمامها بمجرّد أن تكون في حالة غضب، حتى تهدأ وتأتي من نفسها إلينا تبحث عنا، وتطمئنّا بأنها لن تؤذي أيًّا منا. كما أن هناك الاعتقاد بأنها قادرة على سدّ آذاننا وحرماننا من حاسة السمع. أما الأخ التوأم الذكر فكنّا نجهل تمامًا أن تكون له قدرات خاصة تميّزه عمّن عداه من الفتيان في مثل سنّه.

على أي الأحوال عندما التقيت بها هذه المرّة، بعد الغياب الذي دام ثلاثة وعشرين عامًا، كانت بيانفونو سعيدة برؤيتي، وبعرض صور مراهقتها وشبابها عليَّ، ولم تذكر لا هي ولا هو أي شيء عن الذهاب صباح اليوم التالي لهذا اللقاء إلى المستشفى. أخفيا عني تمامًا موضوع استفحال مرضها، ولعب جيلبرت أمامي دور الشخص اللا مبالي هادئ الأعصاب، في مقابل عيني أخته اللامعتين بمشاعر حنينها إلى ذكريات وصور الماضي.

سألتني: «ماذا فعلت خلال سنوات غيابك الطويل؟ لقد نسيت شكلك تمامًا، حتى أنني لم أعد أتذكّر أنك كنت أطول قامة من جيلبرت».

طلبت بيانفونو من أخيها أن يحضر لها المزيد من الصور الفوتوغرافية لفترة شبابها، كانت معلّقة على الحوائط، كأن الصور الموجود في الألبومات لتلك الفترة من حياتها، لم تكن كافية

لتذكيري كم كانت جميلة في فترة شبابها الأوّل.

«قالت: «أريدك أن تصوّرني الآن وأنا أمسك بهذه الصورة القديمة بين يديَّ.

ثم جلست على الكرسي المريح في قاعة الاستقبال، وقد وضعت الصورة الفوتوغرافية القديمة فوق ركبتيها، ونظرت إليَّ بقدر من التحفّظ والحذر، وأنا آخذ لها صورة جديدة، لمحت فيها عند تأمّلها لاحقًا نظرة قويّة شجاعة لشخصية قادرة على مواجهة الصعاب، لا يزال لديها ما يكفي من طاقة، لمواجهة المرض الذي كان مقدَّرا لها أن تُصاب به.

«قلت: «أنا واثق من أنك ستنتصرين على مرضكِ».

أشارت إلى ساقيها المتورّمتين وهي تقول: «لم يعد الدم يسلك طريقه الطبيعي في دورته الدموية، بسبب نوع من الانسداد في كليتيّ».

هربتُ بعينيَّ إلى سقف الحجرة، الذي تآكل من أثر تراكم مياه الأمطار فوق سطحه، حتى أنه بات يهدّد بالانهيار.

«لمح جيلبرت نظرتي إلى السقف، قال: «أعرف أن ينبغي إجراء بعض التجديدات في المبنى».

مالت الشمس إلى المغيب، فقبّلت بيانفونو وكذلك أطفال العائلة الذين تصادف وجودهم في المنزل، وأراد جيلبرت اصطحابي إلى شارع الاستقلال، ومن هناك يمكنني أن أحصل على سيّارة أجرة إلى الفندق. وقفت بيانفونو على عتبة باب المنزل ومعها ابنتها، وعدد من أطفال إخوتها وأخواتها، وغالبًا هي كانت تقول لنفسها: إنها ربّما المرّة الأخيرة التي تراني فيها.

كنت أقف في الشرفة عندما جاء غراب أسود للوقوف فوق سطح المستشفى. أنا لا أعتقد أن وجود هذا الغراب الأسود أمامي الآن يعني أنه نذير شؤم، يعلن لي خبرًا سيِّئا. كان لديَّ إحساس داخلي متزايد بأن بيانفونو ستتغلّب على مرضها. الغراب ينظر في اتجاهي، ثم يفرد جناحيه كما لو أنه كانت لديه نيّة الطيران نحوي. ليست هناك سيّارة واحدة تعبر الطريق أمام مبنى المعهد الفرنسي. حالة مفاجئة من عدم القدرة على فهم الأحداث تسيطر عليَّ. أفرغت المتبقّي من فنجان القهوة في جوفي، ثم عدت إلى حجرتي في شقّتي. عدت إلى قراءة الملاحظات التي كتبتها بخصوص موضوع هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن أيها القارئ.

(13)

أطفال الجنّة

أصبح لديَّ الآن الكثير من أبناء وبنات الإخوة والأخوات، فأنا عمّ وخال لعدد كبير من الأطفال والمراهقين والشباب، تحيط بي مجموعة منهم في منزل العم ألبير. أعينٌ كبيرة تلتهمني وأيادٍ صغيرة تتجاذب أطراف قميصي، في محاولة من كلٍّ منهم لجذب انتباهي. بمجرّد أن أتحرّك خطوة في أي اتجاه، تتبعني هذه القبيلة الصغيرة، ويُصْدِر أفرادها طنينًا غير مفهوم من الأصوات الضعيفة المتداخلة.

بمجرّد أن أتوقّف يتوقّفون؛ خوفًا من أن أختفي فجأةً من أمامهم، فأنا في نظر هؤلاء الأطفال المساكين، أقرب إلى أن أكون رؤيا علوية سماوية، أو ظلّ شخص لا يعرفونه، سيختفي من الوجود بمجرّد أن تختفي شمس النهار. أنا في عقولهم الصغيرة شخص تمّ بناؤه بمهارة، بواسطة عدد من البشر، من بينهم آباء وأمهات هؤلاء الأطفال المساكين، شخص قادر على الإتيان بمعجزات، مثل أن أشفي شخصًا مريضًا بشلل الأطفال، أو أن أشفي من العمى شخصًا وُلِدَ أعمى.

أحد هؤلاء الأطفال وهو أكبرهم حجمًا، كان يشمّني بأنفه كما لو كان كلبًا يحاول أن يتعرّف على رائحة سيّده، الذي ظلّ غائبًا عنه لمدّة طويلة. كان كل طفل من هؤلاء الأطفال يريد أن يكون الطفل الوحيد الذي يتحدّث معي، أو على الأقل أن يكون أول طفل يتحدّث معي. أحد الأطفال طلب مني صندلًا جديدًا، ثم بدأ يشرح لي بكلام مبهم غامض لماذا يحتاج هذا الصندل الجديد.

قال: «السبب أيها العمّ كما تعلم هو أنه إذا لم يكن لديك صندل جديد، فأنت لا تستطيع أن تصل في موعدك في بداية اليوم المدرسي، وذلك لانشغالك طوال الطريق بمحاولة إصلاح صندلك القديم التالف، فتصل متأخِّرا ساعتين عن موعد بداية حصصك المدرسية، وأنت إذا حاولت أن تشرح هذا لمدرّسك، فهو لا يريد أن ينصت إليك، ثم يقول إنك لست إلا كذّابا صغيرًا، في حين أنني لا أكذب بل أقول الحقيقة. أنت تصدّقني أيّها العمّ أليس كذلك؟».

أنا: «نعم أصدّقك يا أنطوان».

هنا يقفز فرحًا لأني أصدّقه، في نفس الوقت يأتي من خلفي صوت ضعيف لفتاة صغيرة خجولة.

«هي: «أيّها العمّ أنا أريد فستانًا مثل ذلك الذي ترتديه أورسولا».

«أنا: «ومَن هي أورسولا تلك؟».

هي: «لا أستطيع أن أقول لك من هي الآن، فهناك حولنا عدد كبير من الأشخاص، الذين حتمًا سيسخرون مني».

«أنا: «إذَنْ قولي لي هذا في أذني».

أشرت إلى الآخرين بالابتعاد قليلًا، ثم انحنيت بنصف جذعي حتى أقترب قدر الإمكان بأذني من فمّ الصغيرة، التي اسمها جولي.

هي: «إن أورسولا شرّيرة، إنها عدوّتي، فقد استولت على صديقي، ثم إن والد هذا الصديق اشترى لها فستانًا أحمر اللون مزخرفًا بزهور صفراء، وأنا أريد لنفسي مثل هذا الثوب».

كان انحنائي على فم جولي السبب في شعور الأطفال الآخرين بالغيرة منها، لقد أدركت هذا من ملامح وجوه أغلبهم المقطبة العابسة. هم اعتقدوا بذلك أن جولي حصلت مني على معاملة متميّزة، وبالتالي أصبح كل واحد منهم يريد هو الآخر أن أنحني عليه بنصف جذعي حتى يكلّمني في أذني وأكلّمه في أذنه، لذلك قمت من مكاني.

ثم انفرط عقدهم عندما بدأوا كلهم يصيحون في نفس الوقت، بتفاصيل قوائم الهدايا التي ينتظرها كلٌّ منهم منّي. بعض الطلبات كانت مقبولة، مثلًا سيليستين طلبت نوعًا من الحلوى يُسمَّى كوجاك، في حين طلب طفل آخر لعبة من ألعاب الفيديو. لكن ظهر طفلٌ مدِّع دفع الحشد إلى المبالغة في الطلبات.

قال: «خالي، أنا أكثر هؤلاء الأطفال ذكاءً، لذلك يجب عليك أن تشتري لي حاسبًا آليًّا شخصيًّا، من النوع المحمول المسمّى *laptop* (لاب توب)».

عارضه طفل آخر قائلًا: «خالي لا تنصت إليه لأنه كاذب، فهو راسب في الصف الثاني الابتدائي، وفي الحقيقة فإن أكثر الأطفال ذكاءً هنا هو أنا، لذلك أطلب منك أن تأخذني معك في رحلة إلى فرنسا، ثم منها نذهب إلى أمريكا».

كنت أجهل كم هو عدد هؤلاء الأطفال الموجودين هنا، لكني كنت أعرف أن هناك المزيد منهم الذين لم يحضروا بعد لمقابلتي. كانت أعداد الأطفال تتزايد كلما التقيت بعدد منهم، مرّة بعد أخرى، وبالتالي كانت قوائم طلباتهم تتزايد مرة بعد أخرى.

جاءت ذات مرة ابنة خال لم أكن أعرفها، ودفعت بابنها أمامي قائلة: «اسمه جادن، ويجب عليك ألا تنساه عند توزيع الحصص بالتساوي على أولاد وبنات إخوتك وأخواتك».

خجل الصبي من تصرّف أمّه، وحاول أن يختبئ خلفها، ولمحت في عينيه نوعًا من لمعة الذكاء.

قالت: «هيّا يا جادن قل لخالك ماذا تريده أن يشتري لك».

كان لا يزال يشعر بالخجل حتى أنه وضع إصبعه في فمه. ثم صدر منه صوت أقرب إلى مواء القطط. قال: «أنا أريد من عمّي أن يشتري لي سيّارة».

قلت: «حاضر سأشتري لك سيّارة لعبة من الأسواق».

هنا زاد بريق عينيه، وأخرج إصبعه من فمه وصاح: «أنا لا أريد سيّارة لعبة، بل أريد سيّارة حقيقية، مثل تلك التي يقودها الكبار في الشوارع، بمقود حقيقي وبآلة تنبيه حقيقية».

داعبت أمه قمّة رأسه وهي تقول: «أنت لا تزال صغيرًا جدًّا على قيادة سيّارات الكبار».

قال: «سأحتفظ بالسيّارة من الآن حتى أصبح كبيرًا وأستطيع قيادتها».

وحيث إن الأم لم تعد تعرف كيف تردّ على ابنها، استسلمت له. قالت: «سيشتريها لك خالك الآن، وسيضعها في مرأب سيّارات في فرنسا، فهم يحرسون السيّارات جيِّدا في فرنسا، ولا يسرق أحد سيّارة أحد، وحين تصبح كبيرًا سيدعوك خالك إلى فرنسا، فتذهب إليه هناك وتحصل منه على سيّارتك، هذا بالإضافة طبعًا إلى تذكرة الطائرة التي سيشتريها لك خالك من فرنسا، وسيقدّمها لك خالك لتذهب بها إلى فرنسا».

حرّك الطفل رأسه بعلامة التكذيب. قال: «خالي هذا سيسافر ولن يعود إلينا أبدًا بعد ذلك».

الأم: «لماذا تقول هذا؟».

الطفل: «إنكِ أنتِ من قال إن خالي هذا عندما سافر أول مرة عند البيض، لم يعد إلا بعد ثلاثة وعشرين عامًا، ولهذا فإنه هذه المرّة كذلك، لن يعود إلى هنا مرّة أخرى إلا بعد ثلاثة وعشرين عامًا، عندها أكون قد أصبحت رجلًا عجوزًا».

لاحظت أن كلّ الأطفال يدعونني خالهم، رغم أن العلاقات الأسرية الحقيقية غير واضحة. إذَنْ فإن هذا النداء بخالي أو بعمي لا يضايق أحدًا. أنا لم أكن أعرف أحدًا من كلّ هؤلاء الصغار، وسأنسى كلّ وجوههم بمجرّد أن آخذ طائرة العودة إلى باريس. إن من كان مثلي بلا أخ ولا

أخت، قد يشعر بما أشعر به الآن ببعض الفخر، أن يناديني كل هؤلاء الأطفال بهذا اللقب (خالي)، لكني لا أعرف بالتحديد مصدر الفخر الذي أشعر به بفضل هذا اللقب. كان الصغير جادن على حقّ عندما قال إنني لن أعود مرّة أخرى قبل مرور سنوات كثيرة. في كل بيت من بيوت هذه المدينة هناك شخص سافر ولم يعد أبدًا.

رغم ذلك حاولت أن أتذكّر أكبر قدر من أسماء هؤلاء الأطفال الصغار، حتى لو أنني أراهم للمرّة الأولى، ولن أراهم غالبًا بعد ذلك أبدًا. يجب عليَّ أن أتعرّف على أسماء هؤلاء الملائكة الصغار، لأستطيع أن أنادي كلّ واحدٍ منهم باسمه، ولا أخلط الأسماء بعضها ببعض، حتى لا يشعروا بالإهانة. أنا أعرف أن هناك قطرة من دمي تجري في أوردتهم. أكثر الأطفال الذين تعرّفت عليهم كانوا من بين ذرّية جيلبرت وبيانفونو، وقد شعر هؤلاء الأطفال نحوي بالاحترام، وكانوا أكثر الأطفال رغبة في التقاط صور فوتوغرافية لي معهم.

ثم إنهم اختاروا لي على مائدة الطعام، المكان الذي كنت أجلس فيه في طفولتي، وكانت العمّة مانجودي توقع عليَّ فيه العقاب، عندما لا أتمكّن من إنهاء كلّ كمّية الطعام التي تضعها في طبقي، مع ذلك كان من السهل إدراك حجم المحبّة التي تكنّها لي. كانت هي مَن قال لعمّي: إن البول في الفراش ليس بسببي أنا، بل بسبب جيلبرت. عندما أراد العمّ التأكّد من صحّة كلام العمّة، تعرّض هذا الصبي لأسوأ تجربة مرّت به في طفولته، إذ أجبروه على النوم وحده في الفراش، بل في الحجرة كلها، وذهبنا أنا وبيانفونو للنوم في قاعة الاستقبال. في صباح اليوم التالي كانت نتيجة الاختبار واضحة.

عندما كانت أمي بولين تجد أن مزاجي متقلّب، وأنني ألعب لعبة الطفل الوحيد المدلّل، ولا آكل طعامي، كانت تذهب بي إلى منزل العمّة مانجودي وتتركني هناك لإعادتي إلى الاستقامة. كانت العمة تنظر لي نظرة بها الكثير من التحدّي، ثم تؤكّد على أمّي قائلة: «ثقي تمامًا في أنه هنا سيأكل كلّ طعامه، أنا سأتكفّل بتحقيق هذا الهدف، ولو فشلت أنا معه وهذا مستبعد جدًّا، سأرسله إلى الجدّة هيلين».

انشغلت العمّة بانهماك شديد في تحضير حساء لحم البقر، وأردت الاختباء منها، لكنها نظرت إليَّ بنظرة سوداء جعلتني أتجمّد في مكاني. وضعت أمامي طبق الحساء ساخنًا يتصاعد منه الدخّان، ثم وضعت طبقًا آخر به عجينة خضروات مع زيت النخيل، لكن لم تكن لديَّ شهيّة لتناول

هذا الطعام. وقفت العمّة أمامي وقد أمسكت في يدها بسوط من المطّاط، فأجبرت نفسي على بلع الطعام، ولم أشعر به أثناء نزوله إلى المعدة، وكنت أمنع نفسي بصعوبة من البكاء.

لكن رغبتي في العطس أفسدت عليَّ كلَّ شيء، إذ تقيّأت ما كان في فمي. أمرتني العمّة بالاستمرار في تناول الطعام، وهي تضربني ضربًا خفيفًا بالسوط. كان من النادر أن أراها تضحك، ولم أكن أجرؤ على النظر في عينيها بل كنت أوجّه بصري إلى الأرض، وهو ما يعني الاستسلام التام، أو على الأقل عدم القدرة على المواجهة.

كنا في طفولتنا نظنّ أن العمّة مانجودي دائمة البحث عن المتاعب، فحتى لو أنهينا وجبات طعامنا، فهناك الصحون التي يجب أن تغسل، والفناء الذي يجب أن يكنس، وزجاجات المشروبات التي يجب أن تعاد فارغة إلى الحانة؛ وذلك لأن الثمن المدفوع في زجاجة مشروبات هو فقط ثمن المشروب الموجود بداخلها، ولا يشمل ثمن الزجاجة نفسها.

لم تكن العمّة قاسية عليَّ أنا وحدي، بل كانت حتى أكثر قسوة مع أطفالها هي مقارنة بأطفال الآخرين، فكنّا نراها تجلد أطفالها بحماس أكبر من حماسها في جلدي أنا أو في جلد أطفال الآخرين. هي كانت تعتبر أطفالها يخصّونها، أما أطفال الآخرين فلا يخصّونها. وهكذا كان أطفالها يشعرون بهذا الفرق، وينتقمون مني بقرصي في أذني.

في قاعة المعهد الفرنسي قابلت صديقًا كونغوليًّا كنت قد تعرّفت إليه في فرنسا، عندما عرضت عليه الصور الفوتوغرافية التي التقطت لي مع أطفال العائلة، من أبناء وبنات إخوتي وأخواتي، علّق على الصور قائلًا: إن هؤلاء الأطفال مثل كل أطفال (الرأس الأسود)، يعيشون في جنّة متخيّلة، وسط كل هذا البؤس.

ثم انطلق يتحدّث كما لو كان يخطب أمام حشد من الناس، كأنه يلقي خطبة عصماء، عن مساوئ الحياة في أفريقيا السوداء، مثل كل أولئك الذين بسبب استقرار حياتهم في أوروبا، لم يعودوا يحتفظون في أذهانهم لهذه القارة السوداء، إلا بالصور السلبية التي تتناقلها وسائل الإعلام. كنت أنظر إليه بشفقة، فهو يتحدّث كأنما نسي من أين جاء، ويعتقد أن سعادة الشعوب الأفريقية هي في انتقال عادات المجتمعات الأوروبية إليها. لم يكن يدرك أن القيود التي لا تزال تكبّله، هي نفسها التي تجعله يعتقد أن الخلاص هو في أوروبا. لكن أحلام أفراد قبيلتي الصغيرة مختلفة في شارع (لوبولو).

من المؤكّد طبعًا أن هذا الصديق الأفريقي المتفرنس، يرتدي هنا في البلاد كلّ يوم سترة جديدة، ويضع ربطة عنق جديدة محكمة العقد، ويضع قدميه في زوج من الأحذية الملمّعة جيدًا. أمّا عندما أقابله في فرنسا، فأنا لا أراه بنفس هذه الهيئة. هنا في أفريقيا هو يبدو كما لو كان يلعب دورًا في شريط سينمائي، يدعو إلى تخليد فكرة أن خلاص الإنسان الكونغولي، يجب أن يمرّ عبر أوروبا. أما هناك في أوروبا فهو يواجه الحقيقة، تلك التي يخفيها عن الشباب المتسكّع في شوارع (الرأس الأسود. حقيقة أنه في أوروبا يعيش في شقة ضيّقة لا تتعدّى مساحتها عشرين مترًا مربًّعا. حقيقة أنه يجب عليه كلّ يوم أن يقاتل حتى يحصل على شرعية البقاء في فرنسا، وأن عليه كلّ يوم أن يستيقظ في الصباح الباكر، وأن يذهب إلى وكالة التشغيل إلى جوار محطّة قطارات شمال باريس، لاختطاف وظيفة مؤقّتة تكفيه شر السؤال.

أما هؤلاء الأطفال فإنهم يعرفون بفضل ذكائهم الفطري، كيفية البقاء على قَيْد هذه الحياة القاسية، وكيفية العثور على النقاط المضيئة في الصور القاتمة. احتجت بعض الوقت لأفهم كيف يعثرون على السعادة. أدركت أنني عندما كنت في سنّهم كنت سعيدًا مثلهم، إذ يكفي أحيانًا الحصول على طبق مدخّن في المطبخ كمصدر للسعادة، أو الانصات إلى صوت زقزقة العصافير، أو الاستلقاء على الأعشاب الخضراء في الحدائق، أو التطلّع إلى لوحة الإعلانات عن برنامج الأفلام السينمائية الهندية التي تعرض حاليًا في القاعات المحلّية، أو الوقوف في طابور أمام نافذة التذاكر، الساعة العاشرة من صباح أيام الإجازات، لحضور عرض فيلم في الفترة الصباحية.

وفي جميع الأحوال كان الابتعاد عن إزعاج الأب والأم هو مصدر من مصادر السعادة، رغم أنه كانت لدينا في الآباء والأمهات الثقة التامة، في أنهم يعرفون كيف يخفون عنّا، قلقهم من الصعوبات التي يواجهونها للحصول على الاحتياجات الرئيسة للمنزل، وقلقهم من عدم القدرة على الوصول بالدخل المتواضع من بدايات الشهور إلى نهاياتها. كان الآباء والأمهات يفعلون المستحيل حتى لا تنزعج براءة طفولتنا.

عند التفكير في مرحلة الطفولة، تعود إلى الذهن صورتنا ونحن نحاول الاختباء في الحقول القريبة من مطار المدينة الذي يحمل اسم (آجوستينو نيتو)، حيث ننشغل بمحاولة اقتفاء أثر الحشرات الطائرة من ذوات الألف لون ولون، أو ننشغل بمحاولة اصطياد الأسماك الصغيرة

(البساريا) ونحن على إحدى ضفّتي نهر (تشينوكا). ثم انظروا كيف كان ردّي على ذلك الصديق الباريسي الأسود المتفرنس المتعجرف.

قلت له: «صغاري ليسوا في الجنّة البائسة، بل هم يستمتعون بطفولتهم البريئة، هذه البراءة التي ليس لها بالنسبة إليهم أي بديل، لا يستبدلون بها أي شيء آخر مهما ارتفع ثمنه، فكلّ يوم يخرج الأولاد والبنات في طابور طويل إلى شارع (لوبولو)، حيث يلعبون بإطارات السيّارات القديمة، التي يتخيّلونها ضخمة جدًّا بحيث تسع كلّ أحلامهم البريئة. إن سعادتهم بسيطة جدًّا حتى أنها تكمن في مثل هذه الإطارات القديمة. إن أكوابهم صغيرة ولكنها ملكٌ لهم، في حين أن كوبك أنت كبير إلا أنه ليس لك، ولكي تشرب فيه تطلب أولًا الإذن بذلك».

(14)

صائدو الفتيات

إن اسمه الحقيقي هو ألفونس بيدينكو، ولكننا لم نكن نناديه إلا باسم الشهرة وهو بوبي الكبير، رغم أننا لا نعرف معنى هذا الاسم، ولا نعرف من أين جاءه. وجدته أمامي يوم الاجتماع العائلي في فناء منزل أمي، وفوجئت بأن ملامح وجهه لم تتغيّر على الإطلاق، فليست لديه في وجهه أي تجاعيد تدلّ على التقدّم في السن، وعلى ما يبدو فإنه حتى يوم وفاته سيظلّ على هذا الشكل القديم الذي عرفته به، بنفس حجم جسمه الصغير وبجبهة وجهه البارزة، وبعينيه اللتين تشعّان ذكاءً ومكرًا. الشيء الوحيد المختلف فيه هو أنه ترك شاربين رقيقين ينموان، وبغرض ألا أفقد إحساسي الطفولي به، حاولت أن أتجاهل هذين الشاربين، اللذين يمكنهما أن يصنعا جدارًا يفصل بيني وبينه.

هو ابن عمّ أمّي، جاء في نهاية سبعينيات القرن العشرين من الأرياف البعيدة ليسكن (الرأس الأسود)، جاء ليسكن معنا في منزل أمي، ويستأنف دراسته الثانوية، ومنذ اليوم الأول الذي قابلته فيه وقعت أسيرًا لصوته العميق، ولطريقته في نطق الكلمات، أو بالتحديد لطريقته في الفصل بين الكلمات المنطوقة. كنت قد التحقت بالمدرسة الإعدادية، وكنا نستيقظ صباحًا فنرتدي ثيابنا المدرسية، وكان الزيّ الرسمي لتلاميذ المدارس الثانوية باللون الكاكي وبسراويل طويلة، أما الزيّ الرسمي لتلاميذ المدارس الإعدادية فكان باللون الأزرق السماوي وبسراويل قصيرة، على أن يضع كل تلاميذ المرحلتين الإعدادية والثانوية المناديل الحمراء حول أعناقهم، وهي إشارة الانتماء إلى ما عرف باسم (قادة الثورة الكونغولية).

أثناء مشينا اليومي في الذهاب إلى المدرستين وفي الإياب منهما، كان دائمًا أسرع مني في المشي، ويسبقني ببضع خطوات، لذلك كان يستدير بين وقت وآخر، ليحثّني على الإسراع في المشي، وهو ما لم أكن قادرًا على أن أجاريه فيه، فرغم قِصَر قامته وقِصَر سيقانه، إلا أنه كان سريع الحركة، رغم أن الطريق في جزء كبير منه كان يميل إلى الصعود، مما يجعل رحلة الذهاب أكثر مشقّة من رحلة العودة، وهكذا كنا في رحلة الذهاب نجد على جانبي الطريق، الكثير من التلاميذ المرهقين يجلسون على الأرض في استراحة قصيرة.

ثم بعد هذه المرحلة من السير المشترك، كان طريقانا يفترقان عند نقطة تقاطع شارع جان فيليكس مع شارع باك أوبانجو، فيقوم لبعض لحظات بلعب دور الأخ الأكبر، طالبًا مني أن أنتبه إلى حركة السيّارات فيما تبقّى لي من طريق، ثم يعطيني عملة معدنية من فئة الخمسة والعشرين فرنكًا كونغوليًّا، قائلًا: «يمكنك أن تشتري بها قطعة من الحلوى أثناء الفسحة المدرسية، ولا تترك الآخرين الأكبر منك يسرقون مالك». كنت أتوقّف لحظة وهو يدير ظهره لي مبتعدًا عنّي متخذًا لنفسه طريقًا في الشارع الآخر. بعد بضع دقائق يتحوّل إلى نقطة سوداء صغيرة تغرق في بحر تلاميذ المدرسة. أستأنف أنا سيري إلى مدرسة (العظماء الثلاثة)، حيث أصل في الوقت المناسب لأنضمّ إلى زملائي في طابور الصباح، في لحظة رفع العلم وانطلاق حناجرنا بغناء كلمات النشيد القومي، الذي كنا نحفظه عن ظهر قلب

قف على قدميك أيها الوطن الشجاع/ الذي تمكّن في ثلاثة أيام عظيمة

من اقتناص علمه ورفعه عاليًا/ من أجل كونغو حرّة جديدة

هذا العلم لن يسقط بعد ذلك أبدًا/ ولن يخيفه بعد ذلك أحد

لقد حطّمنا قيودنا/ وسنعمل جاهدين بلا تعب

فنحن أمّة تملك مصيرها/ فإذا كان العدو سيقتلني

أو إذا أصابت الرصاصة قلبي/ فإن زميلي الشجاع سيقتنص سلامي

وستغضب قمم جبالنا وأنهارنا/ وتدفع إلى الخلف مَن يغزو بلادنا

ها هنا يبدأ الوطن/ حيث كل إنسان له نفس القيمة

وقائدنا الوحيد هو شعبنا/ هو وحده القادر على استرداد كرامته

كان بوبي الكبير يهتم كثيرًا بملابسه، فيختار لقمصانه وسراويله قماش (التِّرجال)، ويهتم بغسلها وكيّها بنفسه في إجازات نهاية الأسبوع. ثم إنه كان يقصّ شَعر رأسه وفقًا لأحدث اتجاهات نجوم السينما الأمريكية من ذوي الأصول الأفريقية السوداء، الذين كانت تُباع الصور الفوتوغرافية لوجوههم (البورتريه) بمقاسات كبيرة على أرصفة شارع الاستقلال أمام دور (سينما رِكس وريو وروي)، ليعلّقها الشباب على حوائط حجراتهم (بوستر).

كان اشتراك ابن عمّ أمّي معنا في الحياة داخل نفس المنزل قد أدخل بعض التعديلات على أسلوب حياتنا السابق؛ فقد ضاق الفضاء الداخلي للمنزل بحجراته الثلاث، التي تشغل واحدة منها

اثنتان من خالاتي العديدات، ويشغل الثانية أبي وأمي، وهكذا تتبقى الثالثة لي ولبقية أفراد عائلة أمي العديدين، الذين كانوا يصلون تباعًا إلى منزلنا لوقت طال أو قصر، وكانوا غالبًا يتخذون من أحد أركان قاعة الطعام مكانًا يفرشون فيه ملاءة على الأرض، مع ملاحظة أن العم موبيرو كان يضع فراشه في ركنّ محدّد من أركان القاعة، ويصرّ على ألا يحرّكه أحد من مكانه.

وقد قلب وصول بوبي الكبير إلى المنزل كلّ عاداتي رأسًا على عقب، فأنا لم أعد أنام في نفس الفراش مع العم موبيرو، بل فضّلت عليه أن أشارك بوبي الملاءة التي يفترشها على الأرض؛ حتى أستمع إلى كلّ مغامراته الغرامية التي تنتهي دائمًا باستسلام الفتاة الجميلة له، ويحكيها لي في الفراش قبل النوم، ما لم يتدخّل العمّ موبيرو فارضًا على الجميع الالتزام بالصمت. وقد يحدث أن ينفجر العم موبيرو غاضبًا من بوبي قائلًا إن صوت بوبي يمنعه من النوم، ويهدّده بأنه سيذهب لإيقاظ أمي لتضع حدًّا لهذه الضوضاء.

ثم يقول: «منذ أن جئت إلى هنا وأنت لا تتوقّف عن ملء رأس الصغير بالأكاذيب، من أين تأتي بكل هذه الأعداد من الفتيات اللائي تتفاخر بإيقاعهنّ في شباكك؟».

هنا يهمس بوبي في أذني: «فلننم الآن على أن أكمل لك بقيّة هذه القصّة غدًا، فالعمّ موبيرو لا يعرف مَن هو بوبي الكبير، ولا يعرف حجم قدرته في الإيقاع بالنساء».

في الأيام التي لم تكن لنا فيها فصول دراسية، كان يقترح عليَّ أن أصاحبه في جولة على الأقدام داخل الحيّ.

يقول: «سترى بنفسك كيف يمكنك أن تتقرّب من أيّ فتاة، وسأجعلك تشاهد بنفسك نماذج من التصرّفات المختلفة مع فتيات مختلفات، فبمجرّد أن ألمح فتاة أتجه نحوها وأحدّثها، وهناك علامة لا يمكن أن تخطئ، وهي أنني إذا وضعت يدي على كتفها اليُمنى ولم ترفعها، فهذا يعني أنها في جيبي».

ظللنا أنا وهو واقفين عند تقاطع طرق، يبعد حوالي مائتي متر عن منزل أمي، وهو موقع استراتيجي يمكن منه تخطيط العمليات، ويسمح بمراقبة عدد كبير من فتيات الحيّ عند ذهابهنّ إلى الأسواق. بعض الفتيات يرتدين تنّورات فضفاضة متعدّدة الألوان، وبعضهنّ يرتدين سراويل ضيّقة تلتصق بأفخاذهنّ وبسيقانهنّ، وبعضهنّ يرتدين قمصانًا ضيّقة جدًّا تكاد تصل إلى حدّ البذاءة.

عندما تلفت واحدة منهنّ انتباه بوبي الكبير، وتجعله يتحمّس لاصطيادها، يستعدّ لها بأن يرفع ياقة قميصه، ويمرّر يده على شَعر رأسه ذي القَصّة الأمريكية، ثم يضع سريعًا كمّية من العطر أسفل إبطيه وخلف أذنيه، وأحيانًا حتى داخل فمه، ثم يقول لي: «لا تتحرّك من هنا سأعود إليك».

ثم يتقدّم بجرأة نحو الفتاة، وهو يقلّد في مشيته بطريقة ساخرة مشية الممثل الإيطالي آلدو ماتشوني، كما رأيناه في فيلم (المغامرة هي المغامرة). أراه وهو يبتعد عنّي، وهو يهزّ جسمه يمينًا ويسارًا، ويرفع سرواله الذي ينزلق منه بسبب اهتزاز الجسم، ثم يضع على وجهه أكبر ابتسامة متاحة، ثم يصل إلى الفتاة فيضع يده على كتفها اليُمنى، حتى قبل أن يتكلّم معها، ويستدير نحوي وهو يغمز لي بعينه. وبما أنَّ الفتاة موضوع الغزوة لم تزح يده من على كتفها، كنت أقول في نفسي إن بوبي محقّ في كل ما يقوله لي؛ إذ إن هذه الحيلة لا تفشل أبدًا. لكنني لم أتساءل أبدًا ماذا يحدث لو أن الفتاة أزاحت يده من على كتفها؟ لم يكن لديَّ أدنى شكّ في قدرته على مواجهة مثل هذه المواقف الصعبة، وعلى ارتجال ردّ الفعل الذي يناسب الموقف.

من المؤكّد أنه قد عثر على صياغات أكثر إتقانًا، وقد أدرك بفطنته أيّها تكون أكثر كفاءة، ليتأكّد من كسب المعركة التي يشنّها حاليًا. كنت أقول في نفسي إنه لو شعر بداخله باحتمال فشل الهجوم، فإنه سيتراجع عن المغامرة، لئلا يصطدم بحائط. قد يكون هذا التحليل هو التفسير لما حدث ذات مرّة، حين اتجه بوبي في آخر لحظة نحو فتاة قبيحة الشكل، تقف على الرصيف في المكان الذي تمرّ بالقرب منه فتاة جميلة، كانت قد تكرّمت علينا بابتسامة مثيرة، لكنه شعر بحاسته أنها لن تتجاوب معه، فقرّر في آخر لحظة تغيير الهدف. فإذا أردت في مثل هذه الحالة أن أخاطر بسؤاله عن السبب في تغيير الخطّة، اتخذ سمت الرجل الحكيم.

قال: «إن الابتسامة وحدها ليست كافية، بل يجب أن تنتظر منها علامات أخرى، مثل أن تلمس شَعر رأسها، أو أن توجّه بصرها إلى الأرض. وبما أنَّ هذا لم يحدث مع تلك الفتاة، فأنا لم أرغب في تبديد طاقتي».

قال: «فلتعلم أن الجميلات لا تهتم الواحدة منهنّ إلا بالفتى الذي لا يراها، وهي مستعدّة أن تفعل أي شيء حتى يراها».

قال: «إذا أنت قابلت فتاتين معًا إحداهما جميلة والأخرى قبيحة، فابدأ أولًا بالمحاولة مع القبيحة، وسترى بنفسك كيف أن الجميلة ستحاول في اليوم التالي أن تلفت انتباهك فقط لتتحدّى

زميلتها، هذا هو ما أسمّيه تقنية البلياردو، وهي لعبة كرة المائدة، فمن أجل أن تصل إلى كرة وتسقطها في الحفرة، يجب أن تضربها بكرة أخرى، ويا لسعادتك لو تمكّنت من إسقاط كرتين في نفس الحفرة بضربة واحدة، ولكنك حتى تصل إلى هذا المستوى من الكفاءة في الأداء، تلزمك خبرة طويلة، وأنت لا تزال أمردَ بلا لحية».

قلت: «وإن كانت الفتاتان على نفس الدرجة من الجمال، فعلى من منهما نبدأ بالهجوم؟».

قال: «لا بدّ أن تكون واحدة منهما أجمل من الأخرى».

كنت أحيانًا من خلف ظهره، أفتح الكرّاسة الصغيرة التي يضع فيها أسماء الفتيات اللائي يعرفهنّ، وقد جاءت مع بعض الأسماء عبارة (للطبخ على نار هادئة) التي أثارت فضولي، فتهوّرت ذات ليلة وسألته عن معناها، فقفز بوبي في مكانه وقد بان على وجهه تعبير يدلّ على خيبة الأمل.

قال: «منذ متى وأنت تفتّش في أغراضي؟».

كان قد رفع صوته في وجهي، لكنه عندما لاحظ بريق الدمع في عينيَّ، هدأت نبرة صوته في محاولة لتهدئتي. قال: «إن هذا التباكي لن يفيدك في شيء، فإن ما فعلته قد فعلته، لكن في مستقبل الأيام لا تعد إلى مثل هذه التصرّفات، وسأشرح لك ما أقصده بعبارة (الطبخ على نار هادئة)».

ثم أخرج كرّاسة من حقيبة كرّاساته وفتحها.

قال: «انظر معي هنا، فأنا أضع في الصفحة إلى اليسار أسماء الفتيات اللائي كانت لي معهنّ محاولات انتهت بالنجاح، أما في الصفحة إلى اليمين، فأنا أضع أسماء الفتيات اللائي لا أزال أحاول معهنّ، ولم أصل بعد إلى نتيجة. بين أولئك الفتيات إلى اليمين، هناك البعض من متقلّبات المزاج، أي مَن نجحت في تقبيلهنّ على شفاههنّ، ورغم ذلك فهنّ يتمادين في التمنّع، ويدّعين أنهنّ لا يرغبن في الوصول إلى ما هو أبعد من التقبيل على الشفاه. في مثل هذه الحالة قد أتوقّف أنا أيضًا عند هذا الحدّ، وأجعل الفتاة تفهم أنني قد زهدت فيها، وأنني بسبب انشغالاتي العديدة، لن أكرّس لها المزيد من الوقت، وهكذا أتركها تتقلّب على النار الهادئة اللازمة لكمال استواء الطبخ، وغالبًا ما ينتهي الأمر بالنتيجة المرجوّة، بأن تبدأ هذه الفتاة في الجري خلفي، وهكذا أصبح أنا من جديد سيّد الموقف».

لم أكن أمينا على أسرار بوبي الكبير، ولا وفيًّا مخلصًا له؛ وذلك لأني عاودت الاطلاع على كرّاسة أسراره الغرامية دون علمه، واكتشفت أنه لم يكن يسجّل فقط أسماء جميلاته، ولكنه كان وهو اسم القرية التي عاش فيها قبل مجيئه للإقامة ،*Sibiti* يسجّل كذلك ذكرياته عن (سيبيتي) معنا، ولا أزال حتى الآن أتذكّر جيدًا تفاصيل تلك الفقرات التي يوجّه فيها الحديث إلى شخص يُسمَّى شيلوس، يحكي فيها عن مصيره، وهي فقرات تبدأ دائمًا بنفس الصياغة:

«عزيزي وصديقي المفضّل شيلوس، متخذًا من القمر شاهدًا لي، سأقصّ عليك هنا حكاية جديدة من حكايات ركني الصغير ومسقط رأسي (سيبيتي)».

تساءلت كثيرًا إن كان شيلوس هذا شخصية حقيقية، أو أنه شخصية خلقها خيال المؤلّف.

كان بوبي يكتب ليلًا عندما نكون جميعًا نيامًا. يبدأ أولًا بإضاءة شمعة، ثم يفتح إحدى كرّاساته، ويبحث عن أحد أقلام الحبر الجاف، ثم يبدأ في تسويد الصفحات العذراء، الواحدة بعد الأخرى بسرعة مذهلة. اكتشفت وجود بعض القصص اللاذعة، التي تتعلّق بامرأة اسمها ماسيكا وعشيقها واسمه بوسكو.

كانت ماسيكا قد أكّدت على بوسكو، أن زوجها يسافر لحضور مراسم دفن أحد أقاربه في قرية ما، وأنه سيقضي الليلة هناك، ولن يعود إلا في نهار اليوم التالي. وهكذا عند حلول المساء وصل بوسكو إلى منزل ماسيكا لقضاء الليلة معها، وبدآ السهرة بتناول وجبة العشاء معًا، ثم انتقلت اليمامتان العاشقتان إلى احتساء كؤوس نبيذ النخيل، وهما يضحكان من الزوج المخدوع (هازئَيْن به، مثل حيوانين شرسين من حيوانات الضباع).

عند منتصف الليل دخلا إلى حجرة النوم، وبدآ فاصلًا من المرح واللهو، حتى جاءت فجأةً (دقّات عنيفة لحوح على باب المنزل، لم تعرف ماسيكا مَن هذا الطارق السخيف المجهول في مثل هذه الساعة المتأخّرة من الليل، واختارت أن تتجاهل هذا الطارق، حتى يملّ من الإلحاح ويرحل. إلا أن الطارق لم يرحل، بل تزايدت دقّاته عنفًا، ثم بدأ في الصياح باسم ماسيكا بصوت مرتفع، (عندها أدركت ماسيكا أنه صوت زوجها.

«قال: «افتحي لي الباب فأنا لا أجد مفتاحي».

«قالت: «أنت إذَنْ لم تبقَ لقضاء الليلة هناك؟».

«قال: «سأشرح لكِ ما حدث، لكن افتحي لي هذا الباب أولًا».

لم يسمح الوقت لبوسكو بالهروب، بل بالكاد سمح له بالاختباء تحت السرير، في نفس) اللحظة التي دخل فيها الزوج المخدوع إلى حجرة النوم، ووضع حقيبته على أرضيّتها. اشتكى الزوج من آلام في قدميه وطلب من زوجته أن تعدّ له الماء الساخن. بعد قليل جاءت الزوجة بجردل ممتلئ بالماء الساخن الذي يتصاعد منه البخار، حمله الزوج عنها ودلقه فجأة تحت الفراش، وهنا صدرت صرخة ملتاعة شقّت سكون الليل، وخرج بوسكو من مخبئه عاريًا تمامًا مثل ديدان الأرض، فوجّه على الفور لكمة قويّة للزوج، جعلت الزوج يترنّح ويسقط على الأرض، مما سمح لبوسكو بالهروب من المنزل وتبعته الزوجة الخائنة. عندما حاول الزوج أن يلحق بهما خرج المنزل، كانا قد تبخّرا في عتمة الليل. لم يجد الزوج ما ينصت إليه إلا نباح الكلاب التي أثارها مرأى هذين الآدميّين في لباس آدم وحوّاء).

يبدو لي الآن أن بوبي الكبير كان في الحقيقة يحلم بأن يصبح أديبًا كاتبًا. كان بوبي موجودًا إذَنْ في ذلك الاجتماع العائلي في فناء منزل أمي، وفي تلك الليلة طلب مني تحديد موعد جديد يكون لزيارة خاصة له وحده فقط لا غير. عندما التقيت به من جديد، قبّلته على وجنتيه، ثم أدركت أن هناك امرأة تقف خلفه، يبدو لي وجهها مألوفًا، فمدّدت لها يدًا مترددّة، مما جعل بوبي يندهش قال: «ما هذا السلوك؟ هل ستكتفي بتقديم يدك إليها دون أن تقبّلها على وجنتيها؟ ألم تتعرّف عليها بعد؟».

نظرت إلى وجه المرأة من جديد، فوجدتها تبتسم لي، لكن هناك كذلك تعبير عن خيبة الأمل.

قال: «لقد تكبّدت مشقّة الانتقال لمسافة طويلة، حتى وصلت معي هنا إلى منزل أمك، لا لشيء إلا لتراك... إنها ألفونسين، ويمكنك الآن أن تقبّلها».

هذا الاسم جعلني ألتفت نحوها من جديد، ثم بدأت الذكريات تتداعى، فشعرت فجأة بفداحة خطئي في حقّها، وأدركت أنني أمام شخص كان له تأثير قوي عليَّ، وهنا أضاء وجه ألفونسين، مما جعل بوبي ينظر إليَّ نظرة ماكرة.

عدت بذاكرتي إلى الزمن القديم، فرأيتها وهي تقوم بتضفير شَعر أمي. لم أكن أرغب في ترك المنزل طوال وقت زياراتها لنا مهما طالت، لأنني كنت أحبّها، وكان بوبي يحثّني على إلقاء نفسي في بحر الغرام والهيام دون تحفّظ، ويكتب لي العبارات التي وفقًا له ينبغي أن أقولها لها، ويقدّم لي النصائح. إلا أنني أمام ألفونسين كنت أشعر كأن شللًا قد أصابني، وكنت أتلعثم حتى في

نطق أبسط الكلمات، وأفقد كلّ إمكانيات التعبير. هي في تلك الحالات، بسبب اضطرابها هي الأخرى، كانت تفضّل أن تسرع بالانسحاب.

استطعت ذات يوم أن أضع يدي على كتفها ولم تزحها، فبدأت أكتب لها خطابات وأشعارًا بتوجيه من بوبي، كان يراجعها لي، لكني لم أحصل أبدًا على أيّ ردّ. في تلك المراسلات الملتهبة ذات الاتجاه الواحد، وصفت نظراتها لي بأنها رطبة ومتموّجة، كأنني كنت أصف مياه المحيط الأطلنطي، ووصفت بشرتها بأنها صافية ومضيئة، وقلت كأن الأديم الذي قُدّت منه بشرتها كانت بفضل رئيس الملائكة ميخائيل الذي جاء من خلف والديها وهي رضيعة ولمسها.

كان بوبي هو الذي يقوم بتوصيل خطاباتي إليها يدًا بيد، أو هذا هو على الأقل ما كان يقسم لي به عند عودته إلى المنزل، ساخرًا من جُبْني وقلّة حيلتي، وعلى شفتيه نفس ابتسامته التقليدية الماكرة. كان يقول: إن الفونسين مستعدّة منذ مدّة طويلة أن تبادلني عواطفي بعواطف مثلها، وإنني لهذا السبب ينبغي أن أسرع الخطى نحوها، وإلا فإن الإغواء قد يأتي من رجل آخر يفسد عليَّ لعبتي. قال: «ولن تعود عيناك تنفعانك إلا في البكاء».

لكنني لم أذهب بعيدًا، بل تحرّكت ببطءٍ السلحفاة، في هذه العلاقة التي اعتبرتها السبب في عذابي خلال مرحلة مراهقتي. لم أتمكن في أي وقت من الوقوف وجهًا لوجه أمام ألفونسين لمدّة تزيد عن عشر دقائق، ثم أفقد تمامًا تماسك أفكاري. قرب نهاية المراهقة تركت (الرأس الأسود)، وذهبت للإقامة في العاصمة (برازافيل)، بينما استمرّت هي في الإقامة في (الرأس الأسود)، وبالتالي فقد كلٌّ منا أثر الآخر. وقد اكتفيت في هذه العلاقة ببقائها في المرحلة الأفلاطونية، حتى دون القدرة على أخذ قُبلة واحدة. وها هي ذي الآن أمامي امرأة ناضجة، وقد وقف ابناها خلفها وهما مستقيما الظهر.

ظلّ بوبي الكبير محتفظًا بابتسامته الماكرة الساخرة، حتى اللحظة التي لم يعد يستطيع فيها أن يتمالك نفسه، فانفجر في الضحك.

قال: «يا صغيري إن ألفونسين أصبحت منذ مدّة طويلة فردًا من العائلة، لقد استدركت الموقف القديم واستعدتها وتزوّجتها، وهكذا أصبح لنا هذان الطفلان اللذان تراهما هنا أمامك، ويمكنك اعتبارهما كما لو كانا من بين أبناء إخوتك وأخواتك، والواجب عليك أن تعتني بهما، هذا بالإضافة إلى أن لدينا فتاة هي أكبر أولادنا، تدرس حاليًا بالفرنسية في جامعة في المغرب. نحن نسكن الآن في ضواحي (الرأس الأسود)».

انفجرت بدوري في الضحك، قبل أن أقذف نحوه بعبارتي.

قلت: «أنت إذَنْ كنت ماكرًا جدًّا يا بوبي، فبينما كنت تقدّم لي النصائح للإيقاع بألفونسين، كنت تخطّط للاستحواذ عليها لنفسك».

لم تعد ألفونسين تستطيع مواجهة نظراتي، فوضعت عينيها في الأرض.

قلت: «قل لي يا بوبي، لماذا تنظر زوجتك إلى الأرض؟ ولماذا تلمس شَعر رأسها؟ ماذا يمكنني أن أستنتج من هذا؟».

هنا كان لي الحقّ في مزحة جديدة من ابن عمّ أمي.

قال: «أنت إذَنْ لم تنسَ بعد الذكريات القديمة؟».

في نهاية الزيارة وعند خروجنا إلى الطريق سألته: «ما مصير الأخ شيلوس؟».

ثم أضفت: «إذا كنت لا تزال تحتفظ بمخطوطاتك في كرّاساتك القديمة يمكنني أن أعثر لك على ناشر في فرنسا».

قال: «انسَ هذه المسألة يا صغيري، فأنا ليست لديَّ في جوفي تلك الدودة المنفردة التي توجد في أحشاء جميع المؤلّفين، فتجعلهم لا يهنأون بدقيقة واحدة من الراحة وخلو البال، إلا إذا طرحوا ما في جوفهم على الأوراق. صحيح أن الكتابة عملية صعبة، إلا أن الأصعب منها هو أن يدرك مَن يكتب أنه لن يصبح أبدًا كاتبًا حقيقيًّا بمعنى الكلمة، وبالتالي التخلّي عن فكرة أنه لن يترك على هذه الأرض قبل أن يرحل شيئًا له قيمة، أنا تسعدني قراءة ما تكتبه أنت وتنشره، لقد أصبحت أنت الكاتب الذي أردت يومًا أن أكونه أنا، ورواياتك متقنة الحبكة. أنا لا أعرف ماذا ستكتب أنت ذات يوم عن لقاءاتنا تلك، لكني أنتظر منك أن تسيء إليَّ إساءة بالغة، أكثر من الإساءة التي كانت من نصيبي في روايتك (البازار الأسود)، حتى أن الشباب الذين أقابلهم الآن، بعد أن يكونوا قد قرأوا روايتك، يعتقدون أنني لا أزال قادرًا على أن أعطيهم النصائح المفيدة في علاقاتهم الغرامية».

(15)

خالي

منذ وفاة أمي، أصبح الخال موبيرو عميدًا للعائلة، وهو يلعب هذا الدور بجدّية تامة، ولم يعد أحد يجرؤ أن يعترض على قيامه بهذا الدور. يجلس على عتبة باب منزل أمي، يراقب كلّ المتحرّكين أمام فناء المنزل، في حركة مستمرّة من ذهاب وإياب، وليس بالشيء النادر أن نسمع صوته يرتفع طالبًا الهدوء من الأطفال الذين يتشاجرون في الفناء، وبمجرّد مرور أي سيارة في الشارع يقفز من مكانه للاطمئنان على أن أصغر الأطفال في مأمن من أخطارها. في الحقيقة إن أي ضوضاء في الشارع صادرة من أيّ تجمّع بشري تثير فضوله لمعرفة أسبابها، فيتغلّب على فتوره وخموله، ويذهب ليتدخّل في المسألة، لو شعر أن هذا التدخّل ضروريٌّ.

أدركت اليوم كل هذه الأمور، عندما تناقشت مع كيهواري ابن الخال، عند باب الفناء على الشارع قبل دخولي إلى المنزل، حيث اقترب منا الخال بخطوات خفيفة تقريبًا غير مسموعة، ووصل إلينا دون أن نشعر عند باب الفناء حيث نقف، ثم دون أن يتحدّث معي عاد إلى الداخل، وجلس في قاعة الاستقبال، ينتظر أن أدخل إلى المنزل وأقترب منه لتحيّته، بعد أن أكون قد انتهيت من النقاش مع الآخرين.

لاحظت أنه في كلّ مرّة يدخل شخص جديد إلى قاعة الاستقبال، تظهر علامات القلق واليأس على وجه خالي، كأنه يتوقّع مع كلّ قادم جديد، الإعلان عن المزيد من الأخبار السيّئة، المتعلّقة غالبًا بموت أحد الأقارب، إذ إن مثل هذه الأخبار تأتي إليه هنا، وهو جالس في هذا المكان، الأخبار المتتالية لموت إخوته وأخواته العديدين والعديدات، خلال العشرين عامًا الماضية، وهؤلاء الموتى بالترتيب الزمني لرحيلهم، هم العم ألبير، ثم العمّة سابين، ثم أمي بولين، ثم العمّة دوروتيه، والعم رينيه.

وقفت أمامه في مواجهته، ورغم أنه يعرف أنني لست من بين من اعتادوا على أن ينقلوا إليه الأخبار السيّئة، إلا أن الابتسامة التي ظهرت على وجهه ضايقتني، لأنها كانت ابتسامة حذرة ومتحفّظة. هذا الوجه لا يحمل أيّ تجاعيد بين الحاجبين أو على الجبهة، تتناسب مع سنّه المتقدّمة. شَعر الرأس محلوق تمامًا حتى يبدو الرجل نظيفًا أمامي. الحذاء الأسود الذي ينتعله

يبدو نظيفًا لامعًا، كأنه لا يلمس تراب الأرض التي يسير عليها. القميص الذي يرتديه هو الآخر يبدو نظيفًا جميلًا أبيض اللون بخطوط طولية بنّيّة اللون.

كانت أمي قد ماتت في سنّ مبكّرة، قبل أن يتحوّل شَعر رأسها إلى اللون الرمادي. إن لون شَعر رأس خالي الآن وقد تعدّى سنّ الستّين، يمكن أن يوحي إليَّ بما كان من المحتمل أن يصبح عليه لون شَعر أمي، لو أنها وصلت إلى نفس هذه السنّ.

إلا أنني متأكّد من أن أمي في سنّ الستّين، ما كان لها أن تجلس كامرأة عجوز، على عتبة باب المنزل كما يفعل هو؛ لتراقب طوال النهار العالم الذي يدور خارج المنزل.

ما كان لأمّي أن تتخلّى أبدًا عن نشاطها وحركتها الدائبة، ولاستمرّت في الذهاب كل يوم إلى السوق الكبير، لتبيع هناك الفول السوداني والموز، كما اعتادت طوال حياتها أن تفعل. كلّ ما في الأمر أنه قد يغلبها النعاس وهي جالسة على الأرض خلف بضاعتها، كما تفعل كل السيّدات المتقدّمات في السن المستمرّات في الذهاب للبيع في السوق الكبير.

إذا كانت أمي لا تزال على قيد الحياة عند عودتي إلى المنزل بعد غياب دام ثلاثة وعشرين عامًا، لكانت قد تهلّلت من الفرح، ولاندفعت نحوي تقذف بنفسها بين ذراعيَّ بشكل غير متحفّظ، ولكانت قد نجحت في الاحتفاظ بوجه باسم يثبت لي أنها تتغلّب على الزمن.

أعتقد أن هذا هو الانطباع الذي تمنّى خالي موبيرو أن يتركه في ذاكرتي عن لقائي به في ذلك اليوم. هو لم يخبرني بأي شيء يتعلّق بحالته الصحّية المتدهورة. هو لم يخبرني عن كلّ ما عاناه خلال سنوات غيابي الطويل التي لم أتبادل معه خلالها أي أخبار.

كان بوبي الكبير قد أسرَّ إليَّ بأن الخال يتألّم، وأنه قد أُجريت له مؤخَّرا عملية إزالة الزائدة الدودية الملتهبة، لم تكن على قدر كافٍ من الإتقان، ولذلك فإن موضع الجراحة في جسده يؤلمه، ويكفي أن تدير ظهرك له لحظة واحدة، حتى يظهر على وجهه التعبير الدال على الألم والمعاناة، والملامح الدالة على سنّه الحقيقية. ثم فجأةً بان الهم على وجه بوبي.

قال: «إنه منذ أن سمع بنبأ عودتك، ألقى جانبًا بمظهره المريض. هو يفعل مثلما فعلت والدتك منذ لحظة دخولها المستشفى إلى لحظة وفاتها، عندما أرادت أن نخفي عنك كلّ شيء، فمنعتنا من الاتصال بك وإبلاغك بالنبأ، وقد جعلنا خالك نقسم أمامه أننا لن نخبرك بتفاصيل مرضه».

عندما تحدّث إليَّ خالي، رفع رأسه إلى سقف الحجرة، وهي العلامة التي لا أزال أتذكّر أنها تعني أنه يرغب في ألا يقاطعه أحد.

قال: «لا أزال أنا نفس الرجل، الذي كان يأخذ بيدك وأنت طفل صغير، خلال الليالي التي كانت تسكنك فيها روح شرّيرة، فتظنّ أنت أن ظلمات الليل مليئة بالموتى العائدين إلى الحياة من آكلي لحوم البشر، الذين يخرجون ليلًا من مقابر منطقة المدافن، ليهاجموا الأطفال».

قال: «أقول لك إنه رغم موت أمّك، إلا أنها بالنسبة لي لا تزال تعيش، هي تعيش معي داخل جسدي هذا، وتترك ما يكفي من أنفاسها داخل رئتي، مما حثّني على انتظار عودتك مهما طال الزمن، فموعدك معها لم يسمح به الربّ، أما موعدك معي فقد سمح به».

قال: «إنها ليست صدفة وليس لك أن تلوم نفسك على أنك لم تكن موجودًا عندما سالت دموعنا عليها، لكني أعرف أنك بكيت عليها حيث كنت في غربتك؛ لأني أعرف كل ما يحدث داخل روحك وداخل جسدك، حتى ولو كنت بعيدًا عني كل هذا البعد؛ لأنك لستَ ابن أختي، بل في الحقيقة أنت ابني أنا، الابن الذي لم أنجبه».

قال: «كلما تقدُّمت في السنّ، أدركت أن السبب في مجيئي إلى هذه الأرض، كان حمايتك أنت أقرب إنسان إليَّ، ولم أكن أريد ذرّية خوفًا من أن تبعدني عنك، فتعتبرني أحد أعمامك أو أخوالك، وأنني لست أبًا لك. هل تعتقد أنها صدفة أن أباك البيولوجي الذي زرع بذرتك في أمّك قد هجركما أنت وأمك؟ إنها ليست صدفة، بل إنه القدر الذي أراد أن أكون أنا والدك».

قال: «أنت في حياتك كان لديك ثلاثة آباء، الأول هو الأب البيولوجي الذي تخلّى عنك، وأنت لا تزال جنينًا في بطن أمك، وهو الأب الذي يمكنك أن تحذفه تمامًا من ذاكرتك، فالأوغاد لا يستحقّون الاحترام. والأب الثاني هو روجر الذي تزوّج أمك، وكان معكما رجلًا كريمًا، إذ تكفّل بك وبالسيّدة والدتك، ويجب عليك أن تحترمه وتبجّله، حتى يدرك الجميع أن تخلّي الآباء البيولوجيون من زارعي البذور الأنذال عن فلذات أكبادهم، لا يعني بالضرورة فشل فلذات الأكباد في مستقبل حيواتهم.

قال: «أما الأب الثالث فهو أنا، الضلع الأخير في ثالوث مصيرك، إذ يمكنك أن تبتعد عني عشرات السنوات، ثم تعود فجأةً لتجدني لا أزال موجودًا في نفس المكان الذي تركتني فيه، جالسًا أحيانًا على عتبة الزمن، وأحيانًا أخرى أتجوّل على ضفاف الصبر رغم عنف الرياح

العاصفة. سأنفخ بكل ما في صدري من قوّة، حتى تظلّ الجمرات المشتعلة تلتهب. أملي الوحيد هو أن تعود أنت لتستقرّ من جديد في هذه المدينة، وترث موقعي هنا على رأس هذه العائلة، التي لو لم تجد رأسًا لها، ستتفتت إلى شظايا، هذا الحطام الذي يحاول أفراد العائلة أن يخفوه عنك في اللحظة الحالية».

قال: «انظر إلى أفراد العائلة الموجودين هنا الآن، وهم يحاولون أن يظهروا أمامك في صورة عائلة متماسكة، فلو أننا حفرنا قليلًا تحت هذه القشرة الظاهرية، لوجدنا الكثير من الكراهية والعداوة، التي أحاول أن أتغلّب عليها، فأحدهم يتهم الآخرين بأنهم كانوا السبب في التعجيل بوفاة والدته، بينما يتنازع آخرون فيما بينهم تركة أخي ألبير، منذ موته في سبعينيات القرن الماضي! هل هذه هي عائلة متحابة متماسكة؟».

قال: «إن خالك رينيه مات بسبب جشع الآخرين، رغم أنني ألوم عليه هو الآخر نفس الشيء أي الجشع، فهو لم يكن مثلًا يُحتذى به في هذا المجال؛ لأنه استولى على المنزل الذي كان من المفترض أن يكون ضمن إرث أبناء خالك جيلبرت وخالتك بيانفونو. أنا أسامحه الآن على هذا الخطأ، رغم أنني آسف على بيع هذا المنزل في الخفاء، على يد ابن أختي الكبرى سابينا، دون أن يحصل أبناء ألبير على ملّيم واحد من ثمن البيع. الآن أنا أنتظر منك أن تقوم بعملية تطهير حقيقية لهذه العائلة، باستعمال أقوى المطهّرات الصناعية، ماء جافيل *Eau de Javel*».

قال: « لا تكن لطيفًا مهذَّبا معهم، لأنهم يعتبرون اللطف والتهذيب نوعًا من الضعف، لاحظ أن الأسلوب المهذّب قد يكلّفك حياتك. أنا قد أُنهكت تمامًا بسبب هذه الصراعات التي خضتها بمفردي. هذه المرّة أنت وجدتني في نفس المكان الذي تركتني فيه قبل سفرك منذ ثلاثة وعشرين عامًا، إلا أن هذا الوضع لن يدوم، فالمرّة القادمة عندما تعود مجدَّدا بعد بضع سنوات، لن تجدني؛ فأنا أيضًا سأرحل لألحق بإخوتي وأخواتي».

سكت رغم اعتقادي أنه الآن كان يريد أن يحدّثني عن أمي، وعن أيامها الأخيرة معه. قد يكون سكوته هذا هو بسبب بحثه عن الكلمات المناسبة، أو بسبب عدم معرفته أين يبدأ الحكاية. هو عندما رأى الآن ملامح الحزن على وجهي، أدرك أن هذا ليس هو الوقت المناسب للخوض في تفاصيل هذا الجزء من الرواية.

عند مغادرتنا المنزل، كان خالي يسبقني بخطوة في الفناء، ثم استدار نحوي وقَلَبَ باطن يديه قائلًا:

أنت تتذكّر أن هذين اليدين هما اللتان بنتا هذا المنزل، وأنت أردت أن تكون مفيدًا لذلك» ساعدتني في البناء... أنت تلاحظ أن ما يتبقى من المنزل الذي بنيانه هو النصف، فقد فصلت عن المنزل الحجرة التي كانت تقيم فيها أمّك».

ثم لمس الألواح الخشبية بحنان بالغ، وانتبه من جديد.

قال: «هذه الألواح الخشبية تحدّثني أثناء الليل، هل تعلم أننا نستعمل نفس هذا النوع من الألواح في صنع توابيت الموتى؟».

هززت رأسي بعلامة الإيجاب.

كان خالي هذا هو أحد أهم نجّاري البناء في المدينة، والكثير من منازلها تدين له بهياكلها الخشبية، لكني لم أكن أفتخر كثيرًا بكونه أيضًا صانع توابيت، ولم أكن أحب منظر أهالي الموتى وهم ينتظرون خارج منزله، حتى يصنع لهم التوابيت المناسبة لموتاهم. لمست بدوري نفس تلك الألواح الخشبية، وقد أعجبت خالي تلك الحركة، فقال:

«المسهم جيدًا فهم سعداء بعودتك، وهم موجودون هنا من قبل أن نوجد نحن».

سكت قليلًا، ثم أضاف:

«عندما تئنّ هذه الألواح الخشبية مع تغيّر درجات حرارة الجوّ، أتخيّل أن هذا هو صوت أنين والدتك المحتضرة، وأنها تخاطبني داعية إيَّاي إلى اللحاق بها حيث هي الآن».

لم أقاطعه أبدًا أثناء حكيه؛ لأني أعرف أن لديه الكثير من الأفكار التي كان ينتظر منذ زمن طويل حضوري حتى يهمس لي بها.

قال: «لماذا حصد الموت كلّ هؤلاء الأحبّاء من عائلتنا؟ هل هذا المنزل قد أُصيب بلعنة بسبب سلوكي تجاه الكلب ميجيل؟ نعم أنا نادم نهارًا وليلًا على العذاب الذي جعلت هذا الكلب يتحمّله، إذ تعترض صورة هذا الكلب مسار أفكاري، فأسمعه وهو ينبح، ثم وهو يعوي بسبب الجوع والعطش. هذا الكلب الذي مات إلى جوار جذع شجرة مانجو ضخمة كانت في منتصف الفناء. هل أدرك الجيران السبب في العواء اليائس لهذا الكلب؟ وهذه الشجرة التي كانت شاهدة على ما حدث لماذا لم تساعد هذا الكلب المسكين في محنته؟».

كانت أمي بولين تحب هذا الكلب، وهو هديّة من إحدى صديقاتها التي أرادت أن تتخلّص من جرو صغير ولدته كلبتها، وقيل إنها لم تتمكن من إهداء كلّ الجراء الصغيرة التي ولدتها كلبتها،

فاضطرّت إلى قذف بعضٍ منها في مياه نهر تشينوكا. كنت أنا مَن أعطاه اسم ميجيل، وبفضل اللبن الذي كنت أسقيه إيّاه، كان ينمو سريعًا في الحجم، وكان تقديم الغذاء له بمثابة لعبة. يطاردني الحيوان طوال النهار للحصول على المزيد من الطعام، ينصت إليَّ وهو يضع أذنيه منتصبتين في وضع رأسي، يحرّك ذيله حركة اهتزازية سريعة مثل حركة مسّاحات الزجاج.

مع هذا الكلب تعلّمت كيفية حساب سنوات العمر الحقيقي للكلاب، فعندما أصبح عمره عامًا، كان هذا معناه أنه أكبر مني كطفل في العاشرة من العمر. كنت فخورًا عندما علّقت عند مدخل الفناء لوحة مكتوبا عليها (احترس فهنا كلب مفترس).

كنت أتجوّل معه جولات حرّة في شوارع وحواري حيّ (فونجو)، وأنا مطمئن إلى أنه سيدافع عني ضدّ أيّ اعتداءات محتملة. لكن للأسف حدث أنه عندما بدأ بعض صبية الشوارع في مثل سنّي، في إلقاء أحجار نحونا أنا وميجيل، أن حاول ميجيل أن يختبئ خلفي ليحمي نفسه، بدلًا من أن يندفع نحوهم ويعضّهم، كما يفعل عادة عندما يأتي أشخاص إلى داخل منزلنا فيندفع نحوهم ليعضّهم.

أدركت أن أغلب الكلاب المنزلية لا تكون شجاعة إلا إذا ظلّت داخل حدود فناء منزل أصحابها. كم مرّة شاهدت فيها كلبنا وهو خائف من شيء ما خارج المنزل، فيندفع إلى داخله وقد أصابه الذهول، ويضع ذيله بين قائمتيه الخلفيتين، ليبدأ هنا فور شعوره بالأمان في النباح على هواه وبكلّ قوّته حتى يحطّم لنا طبلة الأذن.

ورغم إحساسي بأنه كلب جبان رعديد إلا أنني أحببته، إذ كان يتجاوب معي في عواطف المحبّة تلك، بلعق أصابع يديّ الصغيرتين، أو بالوقوف على قائمتيه الخلفيّتين.

هذه السعادة مع هذا الكلب ستنقطع يوم قرّرت أمي أن تغيب عن المنزل لمدّة شهر، وكنا في الإجازة الصيفية من المدارس، فأرسلتني أمي خلال هذا الشهر إلى العاصمة (برازافيل)، حيث أقمت عند أخيها مولوندا الجندي في الجيش، وذهب أبي روجر لقضاء هذا الشهر لدى أمي مارتين. حتى بوبي الكبير كان قد عاد إلى قرية مسقط رأسه (سيبيتي)، والخالات عدن إلى قرية (لوبولو) حيث عملن في الحقول.

وهكذا أصبح منزلنا فارغًا، إلا من الخال موبيرو، الذي أوصته أمي بالاهتمام بالكلب ميجيل، وبضرورة تقديم ثلاث وجبات من الطعام له كلّ يوم، وبأخذه في نزهة على الأقدام إلى خارج

المنزل، على الأقل مرّة واحدة في اليوم عند غروب الشمس حتى يقضي حاجته. هذا هو ما فعله الخال ثلاثة أو أربعة أيام، ثم جاءه عمل مؤقّت لبناء مدرسة ابتدائية في (دوليزي)، وهي ثالث مدينة في البلاد من حيث عدد السكّان، وتبعد ثلاثمائة كيلومتر عن بوانت نوار.

غادر موبيرو المنزل، وبدلًا من أن يترك ميجيل حرًّا طليقًا في فناء المنزل ليتصرّف بمعرفته في الحصول على غذائه اليومي وفي قضاء حاجاته اليومية، قرر الخال أن يربط الكلب بحبل غليظ في جذع شجرة المانجو. لاحقًا قال الخال: إنه كان ينوي فكّ الكلب قبل سفره، إلا أنه نسي أن يفعل. عند عودة موبيرو إلى المنزل بعد ثلاثة شهور، كان الكلب قد مات، وظلّت جثّته مربوطة بالحبل الغليظ إلى جذع شجرة المانجو.

عندما علم كلٌ من بابا روجر وماما بولين بما حدث، صرخا في صوت واحد قائلين إن ما حدث هو جريمة قتل. عند عودتي في اليوم التالي اعتقدا أنهما يستطيعان إخفاء ما حدث عنّي، إلا أن سؤالي الأول لهما كان: «أين الكلب ميجيل؟». اقترح الخال موبيرو شراء كلب جديد، فاعترضت أمي بالقول، إذا كنا قد أثبتنا عدم قدرتنا على الحفاظ على الكلب الأول، فليست هناك أي ضمانات أننا لن نفعل نفس الشيء مع الكلب الثاني. حاولوا أن يقنعوني بأن الكلب قد مات بسبب أزمة قلبية، فردّدت بسذاجة: «إن الكلاب لا تموت بأزمة قلبية؛ لأنهم ليس لديهم في قلوبهم مشاكل كثيرة مثل تلك التي توجد في قلوب البشر».

أخذني الخال موبيرو إلى أحد الأركان وقال: «معك حقّ يا صغيري فإن الكلاب لا تموت بأزمات قلبية، لقد مات ميجيل بسبب حماقتي؛ لأنني عندما غادرت المنزل إلى دوليزي، نسيت تمامًا مسألة أنني تركته مربوطا إلى جذع شجرة في الفناء، ومنعته بذلك من أن يظلّ حرًّا طليقًا، ليتمكّن من البقاء على قيد الحياة. هذه هي غلطتي وأرجوك ألا تحقد عليَّ. أمك لا تريد أن أشتري لك كلبًا جديدًا، أما لو أنك راغب في اقتناء كلب جديد فسأشتريه لك».

«قلت: «لكننا لم نحصل على ميجيل بالشراء، بل إنه كان هديّة من إحدى صديقات أمي.

قال: «يمكنني أن أذهب لمقابلة تلك المرأة، لأرى إن كانت كلبتها قد أنجبت المزيد من الجراء، فنحصل على واحد منها يكون من نفس عائلة ميجيل».

قلت: «لقد كان ميجيل مَن أحببت، وأنا لا أريد اقتناء أي كلب آخر بعد ذلك طوال حياتي، وهكذا فعندما أفكّر في الكلاب لا أفكّر إلا فيه».

قال: «نعم يا صغيري ما تقوله صحيح، فأنا لا أتوقّف عن رؤية صورة ميجيل في الفناء، تمامًا كما أرى صورة أمّك، وفي اجتماعنا العائلي معك لم أستطع أن أبوح بهذا السرّ، لكننا هنا الآن أنا وأنت وجهًا لوجه، لذلك أبوح لك بهذا السرّ. أطلب منك أن تسامحني، ساعدني على محو هذه اللعنة، سأركع أمامك الآن حتى تسامحني».

ثم وضع ركبته اليمنى فعلًا على الأرض، وهمّ بوضع ركبته اليسرى فمنعته.

قلت: «ليست هناك لعنة في هذا المنزل حتى نعمل على محوها».

قال: «وماذا تعرف أنت عن وجود أو غياب لعنة في هذا المنزل؟ إن الحيوانات التي تعيش معنا في منازلنا هم من بين أفراد العائلة، هم قرائننا، وهذا الكلب ميجيل كان قرينًا لي، وأنت كتبت شيئًا قريبًا من هذا المعنى في روايتك (حكاية شيهم)، وهي رواية قصيرة عن نوع من الخنازير».

قلت: «أنا لم أفعل أكثر من مجرّد تسجيل ما كانت أمّي تحكيه لي، إلا أنني أقول لك إن هناك قرائن لطيفة، وميجيل هو أحد تلك القرائن اللطيفة، وأنا واثق من أنه سامحك على فعلتك نحوه».

قال: «إذَنْ فأنت أيضًا تسامحني؟».

قلت: «أنا لم أدِنْكَ في أي شيء بخصوص هذه الحكاية، ولذلك فأنت لا تحتاج إلى أن أسامحك».

مسح بلل عينيه بظهر يده اليمنى. لا شكّ في أن هذه الدموع كانت بسبب الألم الذي شعر به الآن، وأنا أنتزع للتوّ الشوكة من قدمه. لم تكن هناك اجتماعات عائلية هذه الليلة.

قال: «لقد بحث عنك أخي أمس في ذلك الفندق الذي يجعلك البيض تقيم فيه في مركز المدينة، ولم يجدك إذ قيل له إنك كثير الخروج كلّ يوم، إنه يريدك لشيء مهم يجب أن يقابلك من أجله، فاقبل منه كلّ ما سيقوله لك، وأعطه ما سيطلبه منك، لقد تحدّثنا أنا وهو في ذلك الأمر، أما أنا فلن أطلب منك إلا مبلغ خمسة آلاف فرنك كونغولي، لزوم شراء بعض المستلزمات البسيطة، مثل أمواس الحلاقة ومعاجين الأسنان والصابون». ابتسمت له، وأخرجت المبلغ من جيبي.

(16)

لقاءات مع النوع الثالث

هناك مَن يطرق على الباب عندما أفتحه، أجد الخال ماتيته. لقد أحضر معه هدية سباطة موز وضعها على الأرض في منتصف القاعة، فأخذتها من هناك ووضعتها في المطبخ، بينما كان هو يستكشف المكان دون أن يخفي انبهاره.

قال: «هل البيض هم الذين يدفعون لك ثمن إقامتك في هذا المنزل؟».

أشرح له كيف أن المعهد الفرنسي يستضيفني لبضعة أيام بهدف إلقاء محاضرات، ثم كيف أنني قرّرت بعد ذلك إطالة مدّة بقائي في المدينة، بهدف الالتقاء بكلّ أفراد عائلتي الكبيرة، الذين أنوي أن أؤلّف عنهم كتابًا.

قال وهو يتجه نحو الشرفة: «وكم ثمن إقامتك في مثل هذا المنزل؟».

قلت: «إنها شقّة يضعها المعهد الفرنسي تحت تصرّف الكتّاب والفنّانين الذين يستضيفهم المعهد، فأنا لا أدفع شيئًا».

قال: «جئتُ أمس إلى هنا أبحث عنك ولم أجدك، أنت لم تكن هنا أليس كذلك؟».

ودون أن ينتظر ردّي، أشار بإصبعه إلى البناية التي تقع إلى الجهة الأخرى من الشارع.

قال: «يمكننا بسهولة أن نرى من هنا، حتى لو كان الوقت ليلًا، مستشفى (ألفونس سيسيه)، هل قمت بزيارة بيانفونو التي تُعالج حاليًا هناك؟».

قلت: «لا. لم أفعل بعد».

قال: «أنا أفهم السبب، فأنا أيضًا خائف من دخول الحجرة رقم واحد، فكل مَن يدخل فيها حتى ولو كان زائرًا لمريض، يعود حتمًا إليها مريضًا، وينتهي به الحال حتمًا إلى الوفاة».

ثم قال: «إن انطباعي الشخصي عن هذا المستشفى، هو أنه عند مشاهدته ليلًا من الخارج، يبدو كما لو كان منزلًا مسكونًا بالأشباح، بإضاءة واهنة متفرّقة، قادمة من بعض النوافذ المتروكة مفتوحة».

صمت الخال وهو يمسح بيده على رأسه المحلوق تمامًا، الذي كان يلمع في هذا الليل البهيم بفضل ضوء القمر، رغم اختفائه الجزئي خلف الغمام الأسود الذي يغطّي سماء المدينة. أستطيع

أن أتخيّل الأفكار التي في رأسه، وإلى أين يمكنها أن تقوده. كان حاجباه رماديين تمامًا، حتى أنني تساءلت من منهما هو الأكبر ماتيته أم موبيرو؟

هذا الخال لا يزال يراني طفلًا صغيرًا في العاشرة من العمر في قرية (لوبولو)، أذهب معه لأول مرّة في حياتي إلى الأحراش، التي كان الخال ماتيته معتادًا على الذهاب إليها كل بضعة أيام للصيد. كانت أمي معترضة تمامًا على فكرة ذهابي معه إلى الأحراش، إلا أن تدخّل الجدّ هو الذي حسم الموقف.

قال: «دعيهما يذهبان، فلن يحدث لهما أي شيء، فستسهر الأرواح الحارسة على حمايتهما، ثم إنه قد آن الأوان لهذا الصغير أن يذهب إلى هناك؛ لأنه لا يصحّ له أن ينتظر أكثر من ذلك».

لم أنسَ أبدًا طوال حياتي تلك المغامرة الليليّة الطائشة، التي عدت منها محمولا على كتفي خالي، بسبب التسلّخات التي أصابتني في ساقيَّ، ولدغات الحشرات التي ملأت وجهي. كنا في تلك الليلة قد غادرنا القرية عند منتصف الليل، وقد استعار الخال ماتيته من الجدّ بندقيّته. قبيل الرحيل كان الخال قد اتخذ احتياطاته، أولًا بدهن وجهينا بالرماد، وهي الحيلة التي ادّعى خالي أنها تمنع حيوانات الغابة من التعرّف علينا. ثانيًا بربط أعشاب لم أعرف نوعها حول كعوب أقدامنا، وقد ادّعى خالي أن هذا يجعل الثعابين التي قد نقابلها في طريقنا غير قادرة على تمييز أقدامنا.

مشينا في دروب مطروقة تشقّ الغابة، قال خالي إنه يعرفها كما يعرف جيوب سراويله. بعد مشي كيلومترات عديدة، وصلنا إلى نهر كان يمرّ بين صخور، عند هذا الحدّ من المغامرة همس لي خالي بألا أنطق بكلمة واحدة، وبأن أترك الناموس يقرص وجهي دون أن أحاول سحقه بيدي. هنا وعلى بعد مائة متر، شاهدنا وَعْلًا وغزالة يشربان من ماء النهر. توقّعت أن يتخذ خالي وضع إطلاق النار لاصطياد أحدهما على الأقل. ركع فعلًا على إحدى ركبتيه، وبدأ في تلاوة كلمات غير مفهومة. لاحظ هذان الحيوانان وجودنا، رغم هذا البعد بيننا، ولم تبدُ عليهما أيّ علامات تدلّ على انزعاجهما من هذا الوجود.

كانت الصلاة التي يتلوها الخال ماتيته لم تنتهِ بعد، بل بدت لي كما لو كانت بلا نهاية. لاحظت تكرار إيقاع نفس الجمل، مع ورود أسماء لأفراد من عائلتنا، ذكّرني هذا بما يفعله مدرّسو الفصول عندما يقرأون قائمة أسماء التلاميذ بشكل رتيب في بدايات الحصص، لحصر حالات الغياب. في الفصول كنّا نردّ بما يفيد حضورنا، أما هنا فلم يردّ أحد على نداءات خالي. أنصت

الحيوانان بانتباه إلى صوت خالي الرتيب، وكانا بين وقت وآخر يهزّان رأسيهما من أعلى إلى أسفل، كأنهما يبديان موافقتهما على ما يقول.

ثم في نهاية الصلاة صدر من الحيوانين صوتٌ، يبدو كما لو كان الردّ الذي تنطق به جوقة المؤمنين، كنوع من التأمين على ما ورد في الصلاة الجماعية. ترك الحيوانان ضفّة النهر، وأخذا يبتعدان حتى اختفيا في الأحراش. في فترة الصمت التي تلت رحيلهما، شعرت بنوع من البرودة في أطرافي، واستطاع خالي تخمين التساؤلات التي تدور في رأسي، فاستبقني قائلًا:

«سأشرح لك كلّ شيء غدًا، أما الآن فعليك أن تتبعني، إذ يجب أن أعثر على أيّ شيء يمكننا أن نعود به إلى المنزل، ويمكننا الآن أن نعبر النهر، بعد أن حصلنا على الإذن بذلك».

بعد عبور النهر استأنفنا اختراق المزيد من الأحراش، ثم حدث أن أدرت رأسي ونظرت خلفي، رغبة في محاولة تقدير المسافة التي قطعناها، هنا قال لي الخال هامسًا: «في الأحراش لا يصحّ للمرء أن ينظر خلفه»

قلت قلقًا: «أخشى أن نتوه في الغابة، ونفقد طريق العودة إلى المنزل».

قال: «هل يمكن لأحد أن يتوه في بيته، هذه الغابة هي بيتي».

قلت: «حتى لو كانت هذه الغابة شاسعة الاتساع».

قال: «هذه الغابة لا تخصّني أنا وحدي، بل هي تخصّ كذلك كلّ سكّان قريتنا، وكلّنا نعرفها كما نعرف ظهور أيدينا».

عندما وصلنا إلى موقع في الغابة انكشفت فيه السماء، جاءتنا أصوات صاخبة من قمّة نخلة، فوجّه خالي نحوها ضوء مصباحه اليدوي، فرأينا سنجابين في وضع اتصال جنسي، وأحدهما فوق الآخر، مما أدّى إلى هياجهما، وجعل سعف النخلة يهتزّ. صوت الطلقة النارية من بندقية خالي، أحدث انسدادًا مؤقّتًا في طبلتيّ أذنيَّ. سقط الحيوانان المسكينان بطلقة واحدة. اتجه خالي نحو جذع النخلة، والتقط جثّتيّ الحيوانين، ووضعهما داخل جعبته.

بعد بضع خطوات، وجدنا في منتصف الطريق حيوانًا من فصيلة آكلي النمل، متقلّصا يحني جسده، واضعًا أطرافه الأربعة داخل انحناءة جسده، كأنه بذلك يختبئ فلا يراه أحد. بمجرّد سقوط ضوء كشّاف خالي عليه، رفع وجهه نحونا ورآنا، رغم شهرة هذا الحيوان بضعف الإبصار، وحاول فرد أطرافه استعدادًا للهرب، إلا أن خالي عاجله هو الآخر بطلقة نارية، حطّمت للحيوان

المسكين رأسه. دون أن ينظر خلفه، قال خالي: «يمكننا الآن أن نعود إلى المنزل، فهذه الحصيلة تكفي لهذه الليلة».

بدا لي طريق العودة أطول من طريق الذهاب، بالإضافة إلى الانطباع كما لو أن الأعشاب الضارة تمزّق ساقيَّ بالسياط، رغم أن خالي لم يكن يشعر بهذه الأعشاب الضارة على الإطلاق عندما اشتكيت له منها. لم أعد أستطيع البقاء واقفًا، وبدأت أعاني من قَرْص الناموس وحشرات أخرى، كانت أثناء طيرانها تصطدم بوجهي بسرعة كبيرة. كان الخال يريدني أن أسير أمامه، ولكني كنت أتعثّر في خطاي بسبب الأعشاب والحشرات. قال ساخرًا إننا بهذه الطريقة، لن نصل إلى القرية إلا بعد خمس أو ست ساعات، وبدأ في السخرية مني كذلك بصفتي طفلًا يعيش في المدينة.

ثم قرّر أن يحملني فوق كتفيه، فرفعني أولًا إلى مستوى رأسه، ثمّ إلى خلف رأسه، ثمّ طلب مني أن أحيط رقبته بساقيّ، بحيث كانت قدمي اليُمنى تحتكّ بجعبته التي يحملها على جانبه الأيمن، بينما يعلّق حزامها على كتفه الأيسر، والمحتوية على جثث الحيوانات الثلاثة المقتولة. ورغم هذا الوضع الجديد المريح، إلا أنني كنت مضطرًّا بين لحظة وأخرى، إلى أن أحني جذعي، لأتفادى اصطدام رأسي بأفرع الأشجار المنخفضة، واصطدام وجهي بالحشرات الطائرة التي تضيء أثناء الليل، وقد أدركت أنها يمكنها أن تضايق طفل المدينة الذي كنته.

عند وصولنا إلى المنزل في القرية، قضيت بقيّة الليلة مستيقظًا في فراشي، أتعرّق من حرارة الجوّ، ومن منظر يعاودني طول الوقت، وهو صورة الوعل والغزالة، إذ كنت أتخيّلهما وقد تحوّل رأساهما الحيوانيّان إلى رأسين بشريّين، مع احتفاظ الوعل الذكر بقرنيه. في الخيال كانت القرون تتفرّع وتتشعّب حتى تصل أطرافها إلى مستوى سحاب السماء. في الخيال كان الحيوانان يتكلّمان لغتنا، وينطقان باسمي مرّات عديدة. ثمّ لاحظت وجود حيوان ثالث لا أميّزه يمشي خلفهما. كان أصغر منهما حجمًا. ثم فُوجئت بأن هذا الحيوان يحمل رأسي أنا، وأنه يضحك ساخرًا.

في اللحظة التي ميّزت فيها أوّل أضواء الفجر، اندفعت إلى حجرة خالي، الذي كان يغطّ في نوم عميق، فاستيقظ فزعًا، لكنه لم يندهش من ظهوري المفاجئ.

قال: «أنا أعرف أنك قد جئت لتوقظني بسبب الغزالة والوعل، فأنت تريد أن تذكر لي أنك تراهما في أحلامك. لاحظ يا صغيري أنهما الآن يعرفانك، لذلك هما جاءا لرؤيتك. قل لي كيف كانا؟».

قلت: «كان معهما ابنهما، وهذا الابن يحمل رأسًا تشبه رأسي تمامًا، إلا أن ما ضايقني هو أنه يضحك ساخرًا مثل أي أبله، رغم أنني في الحقيقة لا أضحك أبدًا بهذه الطريقة».

قال: «كل هذا طبيعي جدًّا، فأنت وابنهما تمثّلان شخصًا واحدًا بجسد واحد. أما هذه الغزالة وهذا الوعل فهما ليسا حيوانين مثل بقيّة الحيوانات، ولكن ما تراه وعلًا هو في الحقيقة قرين جدّك موكيلا، وما تراه غزالة هي قرينة جدّتك هنرييتا، ولو كنا قتلناهما مساء أمس، لكان جدّك وجدّتك قد ماتا في نفس اللحظة».

قال: «يجب أن تعلم أننا قبل الدخول إلى الأحراش والغابات، يجب المرور أولًا لإلقاء التحيّة على القرائن من الحيوانات، فهي التي تسمح لنا بالعثور على الفرائس من الحيوانات الصغيرة. أقول لك إن الذين لا يحترمون هذا الطقس، يعودون إلى منازلهم دون غنائم، أو يتوهون داخل الأحراش ولا يعرفون طريق العودة إلى منازلهم، وقد يحدث لهم ما يعتبر المصير الأسوأ، إذ يتحوّلون على يد عفاريت الأحراش إلى أشجار أو إلى أحجار بشكل نهائي ودائم».

قال: «لذلك عندما تكبر في السنّ وتصبح رجلًا ناضجًا، عليك في كل مرة تنوي اختراق الأحراش، أن تتذكّر أن الأرواح تسكنها، إمّا في حيواناتها أو في أشجارها، لذلك عليك أن تحترم الحيوانات والأشجار، بالإضافة إلى ضرورة أن يشمل احترامك كذلك الأشياء التي قد تراها في نظرك غير ذات قيمة، مثل أنواع الفطريّات التي تنمو عشوائيًّا على جذوع الأشجار، أو ديدان الأرض المسكينة التي تسحقها أقدامنا، فعندنا هنا نحن لا نصطاد إلا السنجاب وآكل النمل؛ وذلك لأن كل أنواع الحيوانات الأخرى قد تكون قرائن لأجدادنا أو لأفراد من عائلتنا، ما لم تأتنا في أحلامنا رسائل بغير ذلك، فهل أنت مستعدّ لأكل والدك أو والدتك؟».

قال: «أنا أعرف أن هذه الأشياء غريبة عليك؛ لأنك طفل نشأ وعاش في المدينة، ومع ذلك فهذه الأشياء هي الحقائق التي صنعت منا الشكل الذي نحن عليه الآن. لكن عليك منذ هذه اللحظة أن تمتنع تمامًا عن أكل لحوم الوعول والغزلان؛ لأن أكلها سيؤدّي إلى موتك، أو على الأقل إلى حدوث تغييرات فيك، وإلى اختفاء أشياء من شخصيّتك، وهو ما يمكن تسميته بالحظّ أو بالنصيب».

بينما كان الخال ماتيتيه لا يزال في شرفة شقّتي يتأمّل واجهة مستشفى ألفونس سيسيه، سعلتُ سعالًا خفيفًا لأشعره بوجودي خلفه، استدار نحوي وسألني بنبرة جادة.

.«قال: «يا صغيري هل حدث ذات يوم أن أكلت لحم الغزلان أو الوعول؟

.«قلت: «أبدًا

قال: «لقد أرحتني باستجابتك لما طلبته منك وأنت طفل، ولا تستطيع أن تتخيّل إلى أيّ حدّ كان .«هذا الموضوع يقلقني

عدنا إلى قاعة الاستقبال داخل الشقّة، وحيث إنه قد جاء لزيارتي دون إخطار مسبّق، لم أستطع أن أقوم بضيافته، إذ لم يكن لديَّ في الشقّة أيّ شيء يمكنني أن أقدّمه له. لم أجد في مطبخ الشقّة إلا ثلاث بيضات كسرتها ووضعتها في مقلاة فوق الموقد، ثم انتزعت ثلاث أصابع موز من السباطة التي أهداني إيّاها. وبينما كنت أعدّ له هذه الوجبة الخفيفة شعرت به يقف .خلفي

قال: «أنا لم أعد آكل البيض، بالإضافة إلى أنك لا تستطيع أن تقدّم إليَّ من الموز الذي أهديتك .«إيّاه

وبسبب حيرتي، اقترحت عليه أن نذهب لتناول الطعام في أحد مطاعم حيّ ركس، لكنه رفض .هذا الاقتراح أيضًا

قال: «يا ابن أختي أنا لم أحضر لزيارتك من أجل تناول الطعام، أردت فقط أن أتأكّد من أنك لم تأكل من لحوم الوعول والغزلان طوال هذه السنين. هل تتذكّر أنني مَن عرّفك إلى قرينك في عالم الحيوانات، هل تتذكّر ذلك الظبي الذي شاهدته في أحلامك عندما كنت بالكاد في العاشرة من .«العمر؟ ستبقى أنت على قيد الحياة طالما بقي ذلك الظبي هو الآخر على قيد الحياة

.أقلقني أنه اتخذ سمت مَن سيعلن عن كارثة، وأعتقد أنني استطعت تخمين ما سيطلبه مني

.«قلت: «أنت ستقترح عليَّ الذهاب إلى قرية (لوبولو) للقاء هذا الظبي قريني

قال: «لا. أبدًا. ليس هذا ما سأطلبه منك، فالقرية تقع على مسافة بعيدة من هنا، وأعتقد أنه ليس لديك الوقت الكافي للذهاب والإياب، سيفهم قرينك السبب في عدم ذهابك، لكن يجب عليك .«أن تعطيه شيئًا، وسأتكفّل أنا بتوصيله إليه عند ذهابي إلى القرية الشهر القادم

.«قلت: «فهمت ... كم تطلب؟

قال: «يا ابن أختي لا تتسبّب لي في خيبة الأمل، أنا أعرف أنك تعيش في بلاد لا همّ لأصحابها .«إلا النقود، إذَنْ فلتعرف أنه ليست النقود وحدها هي التي تهمّ في هذا العالم

قلت: «لا أستطيع أن أفهم ما الذي يمكنني أن أقدّمه لحيوان لم أره إلا في أحلامي عندما كنت في العاشرة؟».

قال: «يمكنك أن تقدّم له شيئًا يأتي منك أنت».

ثم أخرج من الجيب الخلفي لسرواله أنبوبة اختبار زجاجية خالية، مثل تلك التي تستعمل في المستشفيات لأخذ عيّنة دم.

قال: «ضع قليلًا من بولك فيها، وسأحتفظ بها لديَّ في الثلاجة، ثم في قريتي عند ضفّة النهر، حيث كنا معًا ذات مرّة منذ خمسة وثلاثين عامًا، سأسكبها في مياه النهر. إن الغزالة والوعل اللذين شاهدناهما قديمًا قد ماتا الآن، إلا أن صغيرهما الذي سأجده هناك قد حلّ محلّهما، ولذلك يجب أن يشعر بوجودك، وهكذا فإن بعض قطرات من دمك أو من بولك ستكون كافية، حتى يستمر في مباركتك وحماية وجودك».

ذهبت إلى دورة المياه وعدت لأعطيه الأنبوبة، التي أغلقها بسدادة وأعادها إلى جيبه.

قال: «هذا هو تمام الفعل يا ابن أختي، ويجب عليَّ أن أذهب الآن في طريقي».

مددت له يدي بمظروف مغلق، وضعت له فيه أوراقًا ماليةً بقيمة عشرين ألفًا من الفرنكات الكونغولية.

قال: «لا يا ابن أختي. ليس من أجل هذا كان مجيئي إليك، بل من أجل الأنبوبة التي في جيبي».

قلت: «أرجوك يا خالي أن تأخذ هذا المبلغ؛ فهو مساهمة مني في مصاريف انتقالاتك».

وقف أمامي متردِّدا بضع ثوان، ثم نظر إلى الأرض وهو يمدّ يده لأخذ المظروف.

(17)

القدم المعلَّقة لطائر لقلق طويل السيقان

أنا أكتب عادةً في كرّاسة مثل كرّاسات تلاميذ المدارس، وأقوم بتمزيق الصفحات أولًا بأول، عندما لا يعجبني ما أكتبه. يبدو لي أنني ظننت أن الماضي هو خطّ مستقيم، أو أنه موجة ثابتة لا تتحرّك، ولا يؤثّر فيها عنف حركة الرياح. أحيانًا أكون غير راضٍ عن فقرة من الفقرات، فأندفع إلى المطبخ أفتّش في صفيحة القمامة، أبحث عن الأوراق الممزّقة، التي ألقيت بها فيها قبل ساعات، وما كان في صفيحة القمامة هو غالبًا ما أحتفظ به في النصّ، مستبعدًا دون أي ندم ما كنت قد كتبته للتوّ قبل دقائق قليلة، واعتقدت لدقائق قليلة أنه أفضل ما يعبّر عن آرائي.

قال لي مدير المعهد الفرنسي: إن بعض المؤلّفين الكونغوليين الذين لم ينضجوا بعد، كما يصفون أنفسهم، يريدون أن يلتقوا بي، وقد اكتفى المدير بالقول: «هم يريدون أن يصبحوا كتّابا ومؤلّفين، كما يودّ أن يفعل عدد كبير من الكونغوليين الذين يحترمون أنفسهم، وهم لديهم في أيديهم مخطوطات لاحصر لها، في الحقيقة أنا لم أجد مثل هذه الظاهرة في أي مكان آخر فرنكوفوني عملت فيه، هم ينتظرون منذ أيام أن أحدّد لهم موعدًا معك، لذلك يجب عليك أن تستقبلهم، وأن تقول لهم كلمتين أو ثلاث كلمات، فهذا مهمّ جدًّا بالنسبة إليهم. هم حوالي اثني عشر كاتبًا، وقد أعددت لكم المكان الهادئ الذي ستلتقون فيه»

كان هذا المكان يقع أسفل الشقّة التي أقيم فيها، وهو أحد أركان إحدى قاعات المعهد الفرنسي، التي تناقشنا فيها لمدّة ساعتين، وكان من بين هؤلاء الكتّاب المبتدئين، مَن لا يقسم إلا بأسماء الشعراء الكونغوليين من أمثال تشيكايا أرتاسي، أو بأسماء الروائيين الكونغوليين من أمثال إيمانويل دونجولا. عندما قرأوا أمامي أشعارهم، انتظروا مني أن أقرّظ عبقريّتهم، وبدت على وجوههم علامات خيبة الأمل، عندما قلت لهم: إنني لا أملك هذه المقدرة السامية في تقييم الشِّعر.

قرب نهاية هذا اللقاء وهذه الحوارات المتبادلة، التي حاول فيها كلٌّ منهم أن يستعرض موهبته أمام الآخرين، وأن يُظْهِر كم يستحق هو أن تنشر أعماله دون أعمال الآخرين، ناهيك عن أولئك الذين سبق لهم فعلًا نشر أعمالهم على نفقتهم، وكانوا يظهرون قدرًا من التعالي على

الآخرين؛ لأنهم لديهم الإثبات الفعلي المطبوع، على تفوّقهم النسبي عن المجموع، الإثبات على جدارتهم للنشر مما يبرّر لهم حمل ألقاب الكتّاب والشعراء.

«سألني أحد كتّاب النثر من الشباب: «لماذا تكتب؟».

وبما أنهم كانوا قد أرهقونني، فقد أجبت دون تفكير، بأول ما خطر على بالي.

قلت: «أنا لا أعرف لماذا أكتب، وقد يكون هذا هو السبب في أنني معتاد على انتزاع الصفحات التي أنتهي من تسويدها من أماكنها في الكرّاسات، وألقي بها في صفائح القمامة، ثم أعود للبحث عنها في صباح اليوم التالي، دون أن أضع في اعتباري، حجم الوقت الضائع في هذه المسألة حتى أنتهي يومًا ما من تأليف كتاب».

هذا القول جعلهم يضحكون، أما أنا فلم أضحك، فسلّة المهملات الآن إلى جواري ممتلئة عن آخرها بالأوراق التي ألقيها فيه.

كنت داخل نفسي أجري هذه الحسابات:

- أنا أعود الآن إلى هذه المدينة، بعد مرور ثلاثة وعشرين عامًا على سفري إلى فرنسا، ومرور سبعة عشر عامًا على وفاة أمّي، ومرور سبعة أعوام على وفاة أبي روجر، ومع ذلك فأنا خلال كل تلك السنوات، لم أشعر بمرور الوقت. أنا لست إلا طائر لقلق أسود اللون، من فصيلة اللقالق طويلة السيقان، تعدّت مدّة سنوات هجرته خارج بلاده مدّة سنوات عمره الافتراضي.

- أنا أقف الآن عند حافة جدول الماء الذي يمثّل نبع نهر حياتي، بقدم معلّق في الهواء، على أمل القدرة على إيقاف مجرى وجودي الهائج غير المستقر، بسبب هذا العدد الذي لا يحصى، من أقاربي هؤلاء الذين هم أوراق شجرة العائلة المنزوعة من جذوعها.

- إن حياتي حتى وهي مفكّكة الأطراف، بهذه الامتدادات العشوائية التي أكتشفها أثناء زيارتي الأخيرة، أحاول أن أجعلها مستمرّة في حبّ هذه المدينة، وأبحث عن المزيد من الأسباب القادرة على تبرير هذا الحبّ لمعشوقتي القديمة المخلصة لي، على غرار ما فعله كلب أسطورة أوليس. إن هذه المدينة تمدّ إليَّ أذرعها الطويلة المهترئة المشوّهة، لتريني يومًا بعد يوم مدى عمق جروحها، كأنني بعصاي السحرية قادر على شفائها من أسقامها.

- أفتح هذا الصباح صفحات كتاب (الوجه الخلفي للشمس)، وهو ديوان شِعر مشترك لعدد من شعراء المدينة، أعتقد أن أحدهم وهو تاتي لوتار الأصدق تعبيرًا عن مدى زنجية الإنسان

الكونغولي المعاصر، لأقع على هذه الأبيات، التي تعبّر بدقّة عن الحالة الشعورية، التي أجد نفسي فيها الآن.

أنا أبطئ الخطو سائرًا/ خلف قبيلة ضائعة
كما لو كنت حيوانًا/ من مناطق أعشاب السافانا
مسكونًا بأرواح قطيع آخر/ يسير بخطو إيقاع مختلف
تتملّكه لذلك الرغبة في/ أن يضع نفسه على حافة الزمن
ليتسكّع داخل العروق المظلمة للأرض/ إلى حيث يتجه المنسيّون
من الموتى الفقراء المساكين/ وقد هدأت أرواحهم
بعد أن عاشوا/ آلاف العذابات الصغيرة.

أما أنا فأقول: «لقد جئت إلى هنا مثل عصفور صغير مهاجر، وقد فقد نصف ريش جناحيه، وأنا مستعدّ لتقبّل هذا الحجم الهائل من الفقد واليأس، بسبب هذه الأرض التي ولدت فيها؛ لأستقرّ على جذع شجرة أقابلها، حتى لو كانت منزوعة اللحاء بسبب مواسم الجفاف».

من المحتمل أن تكون هذه التعبيرات مبالغًا فيها إلى حدّ ما، لكن أقلّ قدر من الصمت حولي يقلقني، فأتساءل لماذا صمتوا؟ وماذا يخطّطون؟ فأنا لا أتحمّل صمتهم، ولا أتحمّل صخبهم الذي يدفعني إلى الابتعاد عنهم، وعن لقائي معهم، رغم أن هذا اللقاء محتّم. أراقب بسذاجة وبراءة الأماكن حولي، دون أن ينتابني أي قدر من الشكّ في أنهم ينظرون بدورهم إليَّ نظرة كلّها توقّعات كبيرة، يسبقني الشكل الذي صنعوه في خيالاتهم عنّي، كأن هذا الشكل يقودني في الطريق الذي ينبغي عليَّ أن أسلكه، هل أستكين إلى العتمة أم إلى الضياء؟ هل أذهب إلى الأركان المظلمة أو إلى الأوساط المشمسة؟

أحصيت عددًا كبيرًا من الشخصيّات المختبئة في الظلمة، بينما الشمس وقد استفادت من غيابي عن المكان، أهلكت أساسات طفولتي، التي من الآن فصاعدًا ستكون طفولة ضائعة، ضاعت بين تشابك طرق الذكريات. يهمس صوت في أذني، أن طفلًا سيولد في الزمن القديم، وقد أُعِدّت مسبقًا بشكل حازم كلّ مكوّنات شخصيّته، بشَعر رأس كثيف ومتلبّد، لذلك تعاملتُ مع الحفريات بتصلّب رأي عالم أصول أجناس بشرية، أداتي في الحفر فأس متآكلة بفعل أملاح الندم، فأس بمقبض يتماسك بالكاد بفضل سلك حديد الذكريات.

صلابة الرأس تدلّني على أنه يوجد خلف هذه الطفرات في شكل المدينة الزنجية، لا تزال هناك بقايا من مدينة طفولتي، ستولد مجدَّدا من رماد الذكريات. لكن بسبب شدّة الحرث والعزق في الذكريات المبهمة، بدت لي المدينة مثل غول الأرض، وهو وحش أسطوري مبهم، لا يتعاطف مع البشر، أشار إليه الأديب الفرنسي فلوبير في روايته (إغواء القدّيس أنطوان)، الوحش الذي بسبب جشعه وغبائه ينتهي به الأمر إلى أن يلتهم هو نفسه قدميه.

أمّا أنا فقد أهلكت قدميَّ في محاولة إعادة اكتشاف هذه المدينة، التي كانت بمثابة الجنّة في طفولتي، كنت أعرف أنني في نهاية جولاتي العديدة، سأعثر على الأماكن التي تعتبر بمثابة مراتع الصبا. تنام مدينة (الرأس الأسود) دائمًا، وقد أغلقت إحدى عينيها، وتركت الأخرى مفتوحة لتنساب منها الدموع، كما لو أنها قادمة من نبع ماء لا ينضب، تنساب في جدول ماء يتجه نحو الشاطئ المهجور، ليصبّ في مياه المحيط.

كنت أتقدّم في الطرقات مثقّلًا بنكران الجميل نحو المدينة التي طالما حاصرت خيالي، فكل حجر هو جزء من خيالات طفولتي وبداية شبابي، أتذكّره وأنا أشدّ حمّالات سروال الزيّ المدرسي، بفمّ مفتوح من الانبهار، وبقبضتي يدّ مغلقتين، أجري حتى تنقطع أنفاسي، غير مدرك على الإطلاق أن هناك حدودًا للفضاء المفتوح أمامي، وللزمن الذي ينساب من بين يديَّ، حتى لو احتفظت بعينيَّ مفتوحتين على اتساعهما طول الوقت.

في ذلك العصر كنت أتابع ببصري الطائرات أثناء عبورها سماء المدينة، وهي تتخذ اتجاهاتها نحو الأماكن التي أجهلها، وأتساءل: ماذا بداخل تلك الطيور الضخمة المزعجة؟ التي كانت تهزّ الألواح داخل بيوتنا الخشبية، فتخيف حيواناتنا الداجنة وأطفالنا الرضّع. كنت أقول في نفسي إن هذه الطيور المزعجة تحمل حتمًا الأخبار السيّئة. كنت أجعل أصابع يدي تتشابك، وهي علامة لمقاومة فعل الفأل السيئ، حتى لا تسمح الأقدار لأيٍّ من طيور التعاسة هذه أن تهبط في مدينتنا، ولا تجعل الأقدار أي شخص يأتي أمام منازل أفراد عائلتنا، يطرق أبوابنا قائلًا: «لقد بذل الطبيب أقصى ما في وسعه، لكن لسوء الطالع فإن والدك قد لبّى نداء ربّه».

هناك في المدينة الكثير من الممرات التي تؤدّي إلى لا مكان، فهي حارات مسدودة، كما أن هناك في المدينة الكثير من الشوارع التي لا تحمل أي أسماء، وهناك شوارع تضيع في فضاء شاطئ المحيط الأطلنطي، وبما أنَّ الناس اعتادوا أن يذهبوا إلى نهايات هذه الشوارع لإلقاء القمامة عند سواحل المحيط، تتراكم هناك القمامة لتظهر في شكل تلال صناعية، وهكذا تجد

نفسك تمشي في شارع، ينتهي فجأةً بتلّ يعترض طريقك، يغلق فجأةً أمامك خط الأفق، فتنقطع بك السبل إلا سبيل العودة من حيث أتيت.

هناك أرى فجأةً كلبًا ضالًّا هزيلًا شاردًا، يتنقّل بلا هدف وذيله بين قائمتيه الخلفيّتين، لا يجرؤ على أن يتجه ببصره نحوي مباشرةً، بل هو يلقي إليَّ بنظرات جانبية، قبل أن يسرع بالانسحاب من أمامي؛ لأنه غالبًا يعتقد أنني شبح. أما أنا فكل تفكيري كان منحصرًا في كلب طفولتي ميجيل.

(18)

الجنّة (باراديزو)

هي دار عرض سينمائي

منذ التسعينيات لم تعد هناك دور عرض سينمائي في مدينة (الرأس الأسود)، بعد أن استولت عليها كلّها مؤسّسات دينية باسم الكنائس التي نتبعها، مثل كنيسة (اليَقَظَة)، وهكذا تحوّلت دار عرض سينمائي كانت تحمل اسم (رِكْس)، وهي قاعة أسطورية وهمية لعرض الأفلام السينمائية، إلى كنيسة تتبع مؤسّسة (كلّ الرُّسُل)، وتُسمَّى كنيسة (أورشليم الجديدة)، التي يعلن كلّ رعاتها عن العلامات الدالة على قرب نهاية العالم، وهم يَعِدُون أتباعهم من المؤمنين بنعيم الجنّة، ويهدّدون غير المؤمنين بنيران الجحيم، إلا أن خيبة الأمل تبدو على وجوه المشلول والأعمى والأخرس والأطرش، الذين وعدهم القسس والشمامسة بالشفاء السماوي المعجز من كل أمراضهم، ورغم ذلك الوعد، هم لا يزالون يعانون من عجزهم.

هنا أمام مدخل السينما، كنا نتجمّع لنشاهد الإعلانات عن الفيلم الجديد، والعمّال يثبّتون صوره فوق الجدران، وهو الفيلم الذي سيعرض في القاعة بدءًا من بعد ظهر هذا اليوم. هنا أمام مدخل السينما، كنا نقف لنطالب إدارة السينما، برغبتنا في مشاهدة سلسلة أفلام تد سبنسر وتيرانس هيل، التي تحمل العناوين التالية (نحن ندعوه ترينيتا) و(نحن لا نزال ندعوه ترينيتا) و(شرطيان لا مثيل لهما). يقف أمام مدخل السينما، حارس بوّابة دار العرض السينمائي، وهو ملاكم محترف سابق، له وجه يشبه وجوه الأشرار في أفلام الغرب الأمريكي (الويسترن)، ينظّم الدخول ويضبط إيقاع طابور زبائن دار العرض.

كان هذا الحارس يقف وهو يضع قفّازي الملاكمة مربوطين حول عنقه، وعند أول علامة على اختلال نظام الطابور، يضع يديه في القفّازين ويستعد لاستعمالهما، لذلك كان علينا نحن الزبائن أن نرضخ لإرادته، تحاشيا لنزوات غضبه، التي قد ترسل الواحد منّا فورًا إلى استقبال طوارئ مستشفى (أدولف سيسيه).

كان مشهورًا عنه كذلك أنه في حالة امتلاء القاعة عن آخرها بالمتفرّجين، ووصول أحد أصدقائه أو أقاربه الراغبين في مشاهدة الفيلم، أن يرفعك من مقعدك بقبضة يده؛ ليضع في نفس

المقعد قريبه أو صديقه، فإذا أردت رغم ذلك أن تتابع عرض الفيلم، فليس عليك إلا أن ترضخ للأمر الواقع وتفترش الأرض. كان من المعروف عنه كذلك أنه يسمح للأولاد من صغار السنّ بحضور الأفلام الممنوع مشاهدتها لمَن هم دون سنّ الثامنة عشرة مقابل ورقة مالية فئة المائة فرنك كونغولي.

في حدود ما تحتفظ به ذاكرتي من صور، كان هذا الشخص هو المسؤول المباشر عن كل المشاجرات التي دارت داخل قاعة العرض وأمام بوّابتها، كأنه كان يتعمّد استغلال وظيفته في ممارسة تمارين الملاكمة. وحيث إنه كان قبيح الوجه، فقد أطلقنا عليه لقب جو فرازير *Frazier*، اسم الملاكم الذي كان خصمًا عنيدًا لبطلنا المحبوب الملاكم محمد علي كلاي.

كان وصول أفلام الكاراتيه وفنون القتال إلى دار عرض المدينة، هو الذي جعل فرازير يدرك أن الملاكمة لم تعد تخيف أحدًا؛ لأن الملاكم لا يستطيع أن يتغلّب على لاعب كاراتيه، فهو لا يستطيع أن يطير في الهواء مثلما يفعل لاعب الكاراتيه، ويهبط فجأةً بالضبط أمام خصمه الملاكم، ليوجّه إليه الضربة القاضية. كنا نجهل أن هذا الطيران في الهواء ما هو إلا خدعة مستحدثة من الخدع السينمائية العديدة التي ستظهر تباعًا، وكنا نجهل كذلك أن هؤلاء الممثّلين ما هم إلا بشر عاديّون مثلنا.

بين عشيّة وضحاها حلّت إعلانات أفلام بروس لي، مثل (غضب التنّين) و(عملية التنّين) و(لعبة الموت)، محلّ إعلانات أفلام (كلينت إيستوود)، مثل (الطيب والشرس والقبيح) مع لي فان كليف وإيلي والاش، وبالتالي لم يعد أبطال أفلام الويسترن يبهروننا بالمهارة في استعمال الأسلحة النارية، التي لم يكن باستطاعتنا الحصول عليها، ولم يعودوا يبهروننا بهذه الخيول الجميلة، التي لم تقع أعيننا على مثيل لها أبدًا. في نظرنا كان من الأسهل على الواحد منا ممارسة رياضة الكاراتيه وتعلّم الطيران في الهواء.

هذا هو ما يفسّر تزايد أعداد مدارس الكاراتيه، واستعداد الشباب لدفع آخر سنتيم في الجيب ثمنًا لحضور حصص معلّم الكاراتيه، الذي أشاع أنه حاصل على الحزام الأسود من الدرجة الثانية عشرة، ويَعِد كل المشاركين في حصصه أنهم في نهاية دورته التدريبية يمكنهم اكتساب القدرة على الطيران في الهواء مثل بروس لي. وكان عدد الذين ينتظرون لحظة الطيران كبيرًا جدًّا، هذه اللحظة الحرجة التي سنرتفع فيها بأجسامنا عن الأرض، ونحن نطلق تلك الصيحة المرعبة التي ترهب خصومنا.

لكن هذا المعلّم المزعوم تباطأ كثيرًا فيما أسماه التمرينات الجسمانية، التي أنهكتنا جسديًّا إلى درجة تناقص أعداد المريدين يومًا بعد يوم. نحن كنا في الحقيقة خدمًا له، إذ كان يجبرنا على كنس ومسح أرضيّات فصول التدريب وحجرات منزله، وعلى إعداد وجبات الطعام له ولأسرته، ثم الذهاب بالصحون والملابس إلى نهر تشينوكا، لغسلها في مياهه. وعندما كان قليلو الصبر يسألونه متى سيأتي اليوم الذي يتعلّمون فيه الطيران، كان يجيب:

«أنتم لم تنتهوا بعد من تعلّم كلّ التمرينات والحركات الجسمانية اللازمة لتعلّم الطيران، إذَنْ عليكم أن تتوقّفوا عن الشكوى، فالعصفور لا يطير عند لحظة مولده، بل يجب عليه أولًا أن ينتظر نموّ جناحيه، وأنتم كذلك عليكم الانتظار، واتركوا الوقت الكافي لأجنحة خيالكم حتى تنمو، وهكذا ذات يوم دون أن تشعروا ستجدون أنفسكم تطيرون وحدكم».

كان هناك من بيننا بعض الشجعان، الذين داوموا على الذهاب إلى الحصص، حتى قيل إنهم نجحوا أخيرًا في الطيران، إذ صعد بهم المدرّس إلى سطح منزله بواسطة سلّم خشبي، ثم طلب منهم أن يقفزوا وهم يطلقون صرخات مثل تلك التي يطلقها بروس لي في فيلم (المعلم الكبير) *the big boss*.

النوع الوحيد من الأفلام الذي كان قادرًا على الصمود في وجه غزو أفلام الكاراتيه، هي الأفلام الفكاهية للمثل الفرنسي لويس دوفينيس، بفضل قدراته على تحريك ملامح وجهه بأشكال غريبة، في سلسلة أفلامه المعروفة باسم (شرطي سان تروبيه)، حيث يلعب دور شرطي في تلك المدينة الساحلية الناعسة، أو في سلسلة أفلامه المعروفة باسم (فانتوماس)، مثل فيلم (فانتوماس يفكّ قيوده) وفيلم (فانتوماس ضد سكوتلانديارد)، حيث يلعب دور مفتّش الشرطة الذي يجثم على صدره همّ إلقاء القبض على فانتوماس، عدوّ الشعب رقم واحد.

كان هذا البطل الضدّ فانتوماس يظهر احتقاره لمفتّش الشرطة في كلّ المناسبات، ويتمكّن من الهروب منه في اللحظة الأخيرة قبل أن يضع مفتّش الشرطة يده عليه. كانت هذه الهروبات المتتالية تعجب جمهور دار العرض، فيصفّقون بأيديهم إعجابًا بالشرّير وتشجيعًا له، وهو ما لم يفعله الجمهور أبدًا مع أشرار أفلام الغرب الأمريكية، فإذا انتصر أحد أعداء كلينت إيستوود عليه في مرحلة ما من الفيلم، صفّر الجمهور علامة على عدم الاستحسان.

كنا نغتاظ بشكل خاص من ظاهرة بدت لنا عجيبة، وهي كيف أن كلينت إيستوود ينجح في قتل بعض أعدائه في نهاية فيلم، ثم يعود نفس هؤلاء الأعداء إلى الظهور أحياءً من جديد في الفيلم

التالي! نحن كنّا نصدّق كلّ ما تعرضه علينا تلك الأفلام؛ لذلك كنا مصدومين بسبب أن صنّاع الأفلام يتعاملون معنا كما لو كنا أغبياء، لا ندرك أنهم فيلمًا بعد آخر يخدعوننا بهدف نشل نقودنا.

الأفلام الهندية هي الأخرى كان لها دورها الهام في تلك المرحلة، ولا شكّ أن الفضل في ذلك يعود إلى قصص الغرام الملتهب التي لا تنتهي، وهي العلامة التجارية الرائجة لتلك الأفلام، بالإضافة طبعا إلى إعجابنا بالقوّة الجسمانية الهائلة للمثّل دارا سينج، وبالجنّيّات الفاتنات في فيلم (ساحر الجحيم)، ناهيك عن الجاذبية الفائقة لموسيقى تلك الأفلام، التي جعلتنا نذرف الدموع ونحن مسلوبو الإرادة. كنا نحلم بالذهاب يومًا ما إلى الهند، وبالزواج من واحدة من أولئك الفتيات الحسناوات المبهرجات المُزَيّنات بالجواهر.

كانت الهند هي أرض الأحلام، التي يمكن أن تتحقّق فقط ببعض الأعمال السحرية، التي من السهل تعلّمها، فهذا هو ما أوحت إلينا به مشاهدة مثل هذه الأفلام، فعندما تكون في يدنا عصا الساحر، يمكننا أن ننطق فجأةً وبكل سهولة باللغة الهندية، لنعبّر بها عن مشاعرنا أمام الفتيات الفاتنات، أو نغنّي بها بلغة الأوردو، الأغنيات التي حفظناها بالفعل عن ظهر قلب دون فهم معانيها؛ لأننا نعيد الاستماع إليها عشرات المرّات.

ولا يهمّ في تلك الحالات أن نكون من الأغنياء، فأغلب أبطال تلك الأفلام كانوا من الفقراء، وكان هذا لا يمنعهم من الزواج بالفتيات الجميلات، متغلّبين في كل الحالات على منافسيهم من الفتيان الأثرياء. ثم سيكون لدينا الإصرار على تقبيل الفتيات، فنحن لا نكتفي بمحاولة تقبيلهنّ مثلما يفعل أبطال تلك الأفلام، ثم التراجع عن تلك المحاولة في آخر لحظة بسبب تمنّع الفتيات اللائي يبدين خجلهنّ، ونتساءل لماذا كل هذا الخجل والحياء، رغم أن ما نراه على الشاشة، يوحي بأن البطل قد وصل إلى فراش فتاته.

المسؤول عن إدارة آلة عرض الأفلام في دار سينما ركس، كان مشهورًا عنه أنه يوقع الفتيات في شباكه بسهولة، حتى أنه كان يدعو الفتيات إلى دخول حجرة آلة عرض الأفلام، فتاة جديدة مع كل عرض جديد، فلو أن هناك ثلاث حفلات في اليوم الواحد، فهذا يعني ثلاث فتيات جديدات، يدخلن كلّ واحدة منهنّ في دورها إلى ظلام حجرته المغلقة عليه مع كلّ واحدة منهنّ.

كان يختارهنّ من بين الفتيات الواقفات معنا في الطابور أمام نافذة التذاكر، وكانت الفتيات غالبًا يرتدين أفضل ما لديهنّ من ثياب، كأنهنّ يحتفلن بيوم العيد، واعتادت المستعدّات منهنّ للذهاب معه إلى حجرته المظلمة على أن يغمزن له بأعينهنّ دلالة على الموافقة، وكان هو

يتأمّلهنّ على مهل قبل أن يختار سعيدة الحظّ من بينهنّ، التي ستشاهد الفيلم دون أن تدفع ثمن التذكرة.

ثمّ كانت هناك بعض الأحداث التي وقعت بسبب إهمال المسؤول عن إدارة آلة العرض لعمله، بسبب انشغاله بالفتيات، مما أدّى إلى توقّف العرض، لعدم تحريك الموظّف لآلة العرض في التوقيت المناسب عند انتهاء شريط وبداية شريط جديد.

أو أن يحاول الموظّف المسؤول أن يتحدّث إلى الفتاة بصوت مرتفع، ليتغلّب على ضوضاء آلة العرض، فيستمع إلى حواره، كل روّاد القاعة في الصفوف الخلفية، القريبة من حجرة إدارة الأفلام، وهو يحاول أن يشرح لها الناحية الفنّية، الخاصة بكيفية تحويل اللقطات الثابتة إلى متحرّكة، بأن سرعة العرض تقدّر بمرور أربع وعشرين لقطة ثابتة على شاشة العرض في الثانية الواحدة، تقع على كلّ لقطة منها على حدة حزمة الضوء، وأن هذا هو ما يعطي الانطباع بالحركة لهذه اللقطات الثابتة.

ومن الأحداث التي وقعت كذلك بسبب انشغال الموظّف بالفتاة، أنه عرض بكرة من بكرات الشرائط بطريقة معكوسة، أي أن الأشخاص كانوا يتحرّكون إلى الخلف لا إلى الأمام، وذلك بسبب الاستعجال في وضع البكرة دون التأكّد من كون الشريط في أوّله أو في آخره، إذ كنا أحيانًا نراه وهو يجري مسرعًا من خلفية الصالة إلى بابها الأمامي، ليستلم بكرات أفلام، تأتي إليه من دور عرض أخرى في المدينة في سيّارة نقل صغيرة، بسبب وجود نسخة واحدة من الفيلم تُعرض في قاعات مختلفة وفي توقيتات مختلفة داخل المدينة.

بل كان يحدث أحيانًا أن تتعطّل سيّارة النقل، فتكون النتيجة هي انقطاع عرض الفيلم في قاعتنا، وقد حدث هذا خاصة في الأفلام الهندية التي كانت مدّة عرض بعضها تصل إلى ثلاث ساعات، مثل فيلم (مانجالا) وفيلم (فتيات الهند)، هنا كان جمهور القاعة يعلن عن غضبه بالصفير المستمر، خاصة لو جاء انقطاع الفيلم في لحظة من اللحظات المثيرة، وكان موظّف العرض يضع أحيانًا في تلك الحالة، شرائط الإعلانات عن أنواع الصابون وبها لقطات عارية، حتى تخفّ حدّة اعتراض جمهور القاعة.

على الرصيف عند الخروج من القاعة، كان يمكننا أن نحصي عددًا كبيرًا من الباعة يعرضون بضاعتهم مفروشة أمامهم، التي كنا نجد فيها كتبًا من سلاسل القصص المصوّرة، لمؤلّفين رسّامين من أمثال تكس ويلر ودي روديو، وروايات جيرار دو فيلييه وسان أنطونيو. هذا

بالإضافة أحيانًا إلى كتب ذات قيمة حقيقية مثل أشعار رامبو أو بودلير، بل أمكنني حتى أن أعثر على كنوز حقيقية، مثل سلسلة الأعمال الكاملة لبعض عظماء الأدب الفرنسي، من مطبوعات التي يوجد غالبًا على صفحاتها ،*la Pleiade* أكبر دار نشر أدبية وهي المعروفة باسم لا بلييياد الأولى شعار المركز الثقافي الفرنسي بالرأس الأسود، فهي كتب استعيرت من مكتبته ثم بيعت على الأرصفة.

إلا أنه على حدّ علمي فإن أكثر الكتب مبيعًا على أرصفة سنوات السبعينيات، كان كتاب (دماء أفريقيا) للمؤلف جي ديكار، بجزأيه الأول بعنوان (الأفريقي) والثاني بعنوان (العاشق)، حين وقع جمهور القرّاء الكونغوليين الشباب في أسر تلك العلاقة الغريبة بين اثنين من البشر يتضادان في كلّ شيء، جمعتهما الظروف في هذا الزواج المختلط، وهما الفرنسية يولاند هرفيو، بوالديها اللذين كانا من بين المستعمرين القدامى الأثرياء المتعصّبين، والأفريقي جاك بيرو، ابن العائلة الفقيرة، نزيل دار أيتام (أوبانجي)، وهو الاسم القديم للدولة التي ستعرف لاحقًا باسم جمهورية أفريقيا الوسطى.

كانت العائلة البيضاء قد تبنّت الطفل الأسود، وأرسلته إلى فرنسا لاستكمال دراسته بها، خلال سنوات الخمسينيات، عندما كان على كلّ شخص أسود في أوروبا، أن يثبت للبيض أن السود لا يقلّون عنهم في القدرات الذهنية، وقد تقابل الشابان الأسود والبيضاء على مقاعد الدراسة في كلّية الحقوق بجامعة باريس. كنا نحبس أنفاسنا من شدّة الانفعال عندما نقرأ الفقرات التي قرّرت فيها الفتاة البيضاء تقديم الشاب الأسود إلى أسرتها، على أنه مَن اختارته ليصبح زوج المستقبل.

كمّ ستؤثّر في مشاعرنا شجاعة هذه الشابة الفرنسية، التي ذهبت إلى حدّ العودة إلى أفريقيا لا لشيء إلا للبحث عن هذا الشاب الأسود، ضدّ رغبة والديها اللذين كانا بالطبع يعارضان هذا الزواج. إذَنْ كان هذا الجزء الأول من الرواية، صالحًا لأن يكون الحلم الشخصي لأي شاب أفريقي يقرؤه، وكانت البلاد الأفريقية في سنوات الستّينيات تتحرّر من كافة أنواع الاستعمار، وبالتالي كان هذا هو المناخ العام الذي صاحب زواج هذين الشابين. في الجزء الثاني من الرواية نرى الصعود في المكانة السياسية لرجلنا الأسود، ومشاعر الحقد والغيرة نحوه التي شعر بها منافسوه.

ليس هذا فقط، بل إن السود بدأوا يظهرون مشاعر العداء والعنصرية الكامنة في نفوس المجتمع الأسود نحو كلّ ما هو أبيض، بعد أن استطاع السود التفوّق في مجالات مختلفة على البيض، وأدركوا قدرتهم على الاستغناء عن الخبرة البيضاء في شؤون العلم والاقتصاد. فيما بعد عندما ذهبت إلى فرنسا للدراسة في جامعاتها، أدركت كيف أن فرنسا لا تقدّر هذا المؤلّف جي ديكار حقّ قدره، حتى أن رواياته دخلت ضمن الروايات التي يطلقون عليها في فرنسا اسم روايات (محطات القطارات)، أي أنها لا تصلح للقراءة إلا في المحطّات أثناء انتظار وصول القطارات. لكن هذا الموقف الفرنسي من المؤلّف لم يغيّر من تقديري له، وإعجابي بعمله الذي كان له الفضل في تشجيع جيل كامل من الشباب الأفريقي على القراءة بالفرنسية.

كنا نعثر على مكتبات أرصفة أخرى أمام مداخل دور السينما الأخرى؛ لأن أغلب زبائن تلك المكتبات كانوا أيضًا من زبائن دور السينما، ولهذا اختفت هذه المكتبات مع اختفاء هذه الدور. وقد انتشرت في ذلك الوقت أيضًا كبائن هواتف الأرصفة، التي اختفت بدورها لاحقًا عند ظهور الهاتف المحمول، فلكل زمان أدواته، ولكل زمان أخلاقيّاته. كانت المكالمة الهاتفية الواحدة تتكلّف خمسين فرنكًا كونغوليًّا كحدّ أدنى، باستعمال بطاقات ممغنطة يمكن إعادة شحنها.

كما كان هناك أيضًا باعة جائلون، يدورون في الشوارع وهم يمسكون في أيديهم بزجاجات الخمر المشهور في فرنسا باسم (باستيس)، وهي الزجاجات التي يعثرون عليها فارغة في مقالب قمامة وسط المدينة، ثم يملأونها بسائل كحولي له رائحة وقود السيّارات.

تحوّلت دار سينما (باراديزو) إذَنْ إلى كنيسة أورشليم الجديدة، فلو أن المتردّدين عليها يؤمنون حقًّا أن يسوع المسيح سبق له أن طرد من المعبد في أورشليم القديمة التجّار الذين اتهمهم يسوع بأنهم حوّلوا بيته إلى مغارة لصوص، لكانوا قد خرجوا من كنيستهم الآن، وهاجموا الباعة الجائلين الذين يقدّمون للشباب مشروبًا له طعم ورائحة وقود السيّارات.

في بداية فترة ما بعد الظهيرة، أثناء تجوالي اللاهي، وجدت نفسي واقفًا أمام البناية التي كانت فيما سبق تضمن لنا مخزونًا كافيًا من الأحلام، وتحضر لنا الأبطال الخياليين للعالم كله إلى حيّنا المتواضع. بدت لي بناية سينما ركس أصغر بكثير، مقارنة بالحجم الضخم الذي كان لها في خيالي، من الجائز أن السبب هو أنني شاهدت في أوروبا وأمريكا دور عرض سينمائي ضخمة جدًّا. أتحكّم بصعوبة في شعوري بخيبة الأمل. وجدت لوحة إعلانية من القماش، تشير إلى أن هناك في هذا التوقيت داخل القاعة تدور وقائع احتفال ديني مسيحي تصحبه فرقة موسيقية.

هناك رجلان يقفان عند مدخل البناية، يعترضان طريق من يريد الدخول. يلقيان نحوي بنظرة متحدّية كأنهما ينويان منعي من الدخول، من الجائز لأنني لست من جمهور المؤمنين المعتادين على ارتياد هذه الكنيسة، لكنهما عند اقترابي منهما تراجعا وتركاني أدخل، ربّما اعتقدا أنني على موعد شخصي مع راعي الكنيسة. قبل دخولي لمحت إلى الجهة الأخرى من شارع الاستقلال رفيقتي الفرنسية ومعها ابن خالي جيلبرت، يقفان أمام باب أحد المطاعم، فاستدرت في مكاني ورفعت لهما يدي، عندما لمحاني عبرا الشرع ليلحقا بي. عندما رأى أحد الحارسين أن رفيقتي تعلّق آلة تصوير فوتوغرافي على كتفها، تجهّمت ملامحه واتجه نحوها قائلًا: «هذا مكان عبادة ممنوع فيه التصوير».

تدخّل ابن خالي قائلًا: «إنها رفيقة ابن خالي، وهو كاتب مشهور، وقد جاء من أوروبا لتأليف كتاب عن ذكريات طفولته».

قال الحارس: «لا يهمّنا إن كان كاتبًا مشهورًا، أو لم يكن. فعلى أي الأحوال إن شخصًا غير مؤمن لا حقّ له في الدخول».

ابن خالي: «كيف تقول إنه غير مؤمن؟ كيف لا تعرفه ومع ذلك تقول إنه غير مؤمن؟».

الحارس: «يمكن رؤية هذا من نظرة واحدة؛ لأنه لو كان أحد أبناء الربّ ما سمح لرفيقته أن تأتي إلى هنا وهي تحمل آلة تصوير».

بسبب وصول هذا الجدل إلى نقطة حرجة، اضطر ابن خالي إلى استعمال الضربة القاضية.

ابن خالي: «لو أن التصوير ممنوع، لماذا إذَنْ تصوّرون قدّاس الأحد وتعرضونه على القنوات التلفزيونية، إذا كان الربّ لا يحب التصوير؟».

قال الحارس: «الآن انصرفوا من هنا فقد انتهى هذا النقاش».

فقد ابن خالي أعصابه، ودفع الحارس في كتفه، ومشي خطوات حتى لحق بي عند باب البناية. فعلت صديقتي نفس الشيء ولحقت بنا عن باب البناية. بينما تجمّد الحارسان المؤمنان في مكانهما كتمثالين من الملح، وقد صدمتهما طريقة تصرّفنا. دخلا إلى القاعة خلفنا وهما يتابعاننا متابعة لصيقة. عندما بدأت صديقتي في التقاط الصور، كان أحد الحارسين يغمغم بكلام غير مفهوم يدلّ على الغضب.

قال: «توقّفي عن تصوير بيت الربّ».

فجأةً خرج رجل شاب كان مختفيًا عنا خلف المذبح في عمق الكنيسة.

تحدّث إليه أحد الحارسين قائلًا: «أيها الراعي، لقد حاولنا منعهم من الدخول، لكنهم مع ذلك دخلوا».

ردّ الراعي بصوت هادئ: «هل لديكم تصريح من المالك بالتصوير في المكان؟».

ردّت صديقتي: «مَن المالك؟».

الراعي: «إنه يسكن خلف هذا المبنى، وأعتقد أنه لن يوافق على ما تفعلونه، إنكم تنتهكون حرمة ملكية خاصة، أقترح عليكم أن تتبعوني حتى تبرّروا له تصرّفاتكم هذه، وسيطلب منكم أن تتخلّصوا من الصور التي التقطتموها فعلًا حتى الآن».

خرجنا نحن الثلاثة خلف راعي الكنيسة، ثم درنا حول البناية، لنجد أنفسنا أمام منزل صغير بفناء، فيه رجل متقدّم في السنّ، برأس محلوق تمامًا، يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا خفيفًا، ويجلس على كرسي أمام باب المنزل. عندما رآني هذا الرجل جحظت عيناه فجأةً من الدهشة، ثم أطلق صيحة عالية أذهلت راعي الكنيسة.

الرجل العجوز: «أنا لا أصدّق عينيَّ كيف أن الأمريكي هنا في داري، إذَنْ فأنت قد جئت إلى هنا لرؤيتي، أنا العجوز كوبلافي *Koblavi*».

أسرّ إليه الراعي بشيء ما في أذنه، فدفعه العجوز بعيدًا عنه.

العجوز للراعي: «إنه هنا في منزلي وفي ممتلكاتي الخاصة يمكنه أن يصوّر ما يشاء... أنت إذَنْ أيّها الراعي لا تعرف أن خاله ألبير، هو الذي شقّ شارع (لوبولو) الواقع أمام الكنيسة».

أنزل الراعي ذراعيه إلى جانبي جسده دلالةً على الاستسلام، ووضع عينيه في الأرض وبدأ في الاعتذار لنا، بأن أحنى جذعه ثلاث مرّات ثمّ انصرف. أشار العجوز إلى كراسٍ إلى جواره لنجلس عليها.

العجوز: «أرجوك أن تجلس يا أخي الصغير، ويمكن لرفيقيك أن يذهبا للتصوير كما يشاءان، بينما أتبادل أنا أطراف الحديث مع أخي الأمريكي».

بمجرّد انصراف الآخرين من حولنا، بدت ملامح الحزن على وجه العجوز الذي قال: «كثيرًا ما رأيتك في التلفزيون تتحدّث عن كتبك، لكني أقدّم لك اعتذاري، فالحقيقة التي أخجل من

التصريح بها، هي أنني لم أقرأ أيًّا من كتبك. لكني أتذكّر أنك في أحد لقاءاتك مع الصحافة أشرت إلى (سينما رِكس)، ولا يمكنك أن تدرك حجم السعادة التي شعرت أنا بها في تلك اللحظة».

ثم رفع رأسه نحو السماء.

العجوز: «لقد تخلّى الربّ عن هذه المدينة، وأدار ظهره إلى (سينما رِكس). أنا أدخل أحيانًا وحدي إلى القاعة، وأغلق من الداخل جميع منافذ الضوء، وأجلس على كرسي في منتصف القاعة، وأحاول أن أستعيد ذكريات ذلك العصر، حين كانت هذه القاعة تمتلئ عن آخرها بالجمهور، هنا أتخيّل كأنني لا أزال أسمع تصفيق الإعجاب من هذا الجمهور الشاب، وأرى أحلامهم وهي تتطاير فوق رؤوسهم، خلال ساعتي عرض الفيلم بعد أن ينجحوا مؤقّتًا في نسيان متاعب حياتهم اليوميّة».

أنا: «الآن هناك الكثير من الوسائط التي تمكّن الناس من مشاهدة الأفلام في بيوتهم، مثل الأسطوانات المدمجة *D.V.D.* والدي في دي *C.D.*».

العجوز: «إنها خدعة أيها الأمريكي، فهل تستطيع هذه الوسائط أن تخلق لك الجوّ، الذي كنت تعيش فيه داخل قاعة السينما؟ إن هذه الوسائط تحفّز على الانعزالية، لقد فقدنا الحسّ السينمائي يا أخي الصغير، فالفيلم الذي تشاهده في المنزل يصبح أقلّ تأثيرًا من نفس الفيلم، لو شاهدته في قاعة عرض سينمائي ممتلئة بالجمهور».

ثم بعد لحظة صمت قال: «أنت أيها القادم من أمريكا، أتصحك بمشاهدة فيلم (بيكي شارب) *Becky Sharp*، فهذه هي السينما الحقيقية، وليس إعجابي بهذا الفيلم هو فقط بفضل إعجابي بالممثلة ماري هوبكنز، التي أُعجبت بها منذ دورها في فيلم (دكتور جيكل ومستر هايد)، بل إن هذا الفيلم (بيكي شارب) هو تحفة سينمائية».

قام من على كرسيه وذهب إلى داخل منزله، وعاد بعد دقيقة وهو يحمل في يده صورة للممثلّة الأمريكية وهو يمدّ يده لي بها قائلًا: «انظر كم كانت جميلة».

ثم قال: «هل تعرف أنني كنت أصرّ على عرض كلّ أفلامها الرومانسية في (سينما ركس)، رغم أنني أعرف أن جمهور هذه الدار السينمائية، يفضّل أفلام تصفية الحسابات بواسطة الأسلحة النارية، وأفلام الفنون القتالية، وأفلام الفكاهة الحمقاء، قل لي مثلًا ماذا نستفيد من مشاهدة أفلام الفنون القتالية؟».

ثم خطف الصورة من يدي وهو ينفخ فيها قائلًا: «أنا لا أحتمل وجود هذا الغبار فوق صورة محبوبتي».

دخل بالصورة إلى منزله، وعاد وهو يحمل زجاجتيّ بيرة وكوبين زجاجيّين.

العجوز: «إذَنْ فقد رأيت النجمتين الموضوعتين لماري هوبكينز، على ممشى النجوم في هوليوود».

أنا: «لا للأسف لم يحدث، فأنا لم أكن قبل اليوم أعرف هذه الممثلة، حتى عند مشاهدة فيلم (دكتور جيكل) لم أنتبه إليها».

تجمّدت ملامح وجه العجوز، كما لو أنني كنت قد ارتكبت جرمًا، أو دنّست هيكلًا مقدَّسا. غمغم وهو يحتفظ بعينيه نصف مفتوحتين: «أحلم بوضع قدمي في هوليوود، ولا أفهم كيف تعيش في مدينة السينما تلك، ولا تهتم بالذهاب لمشاهدة ممشى النجوم».

بعد ذلك ابتدأ في توجيه نقد لاذع للسلطات السياسية في البلاد، التي لم تساعده على الاحتفاظ بدار العرض السينمائي، مما جعله مضطرًّا إلى تأجيرها للجمعية الدينية.

قال: «إن رجال السياسة قتلوا السينما، وهو نفس ما حدث بطول البلاد وعرضها، حتى في العاصمة برازافيل لم تعد هناك دور عرض سينمائي. هل تدرك حجم هذه الفضيحة؟ كيف إذَنْ سيتعرّف الشباب على نجمة مثل ماري هوبكنز؟ كانت للأفلام السينمائية قوّة سحرية مؤثّرة، والسياسيّون للأسف لا يدركون حجم هذا التأثير. كانت الأحياء تحمل أسماء دور السينما التي تقع في كلّ حيّ منها، وليس العكس، فيقال حيّ رِكس؛ لأن دار السينما التي تقع في هذا الحيّ تحمل اسم دار (سينما رِكس)».

وعن عراقة تاريخ هذا الاسم الذي حمله ،*Koblavi* ثم ذكر شيئًا ما عن عائلته (كوبلافي) أجداده القادمون من غانا إلى الكونغو في أربعينيات القرن العشرين، وقامت على أكتافهم حركة صيد السمك في (الرأس الأسود).

لكن هذا الحفيد الموجود أمامي الآن، سليل هذه العائلة، وجد مصدرًا جديدًا للفخر، هو أنه من أنشأ هذه السينما، التي لا يزال يندم على اختفائها. هو يكاد أن يعتذر لي على موافقته أن تحلّ هذه الكنيسة محلّ دار العرض السينمائي (باراديزو)، هذه الكنيسة التي تبيع للمتردّدين عليها تذاكر الذهاب إلى الجنّة، لكنها تحرم الأجيال الجديدة من الشبيبة الكونغولية، من الجوّ الساحر

لقاعات العرض المظلمة، حين يبدأ عرض شريط الفيلم السينمائي بأسماء الممثّلين، ثم بأسماء الفنّيّين، وتظهر اللقطات الأولى من قصّة الفيلم، فيقابلها الجمهور بالتصفيق.

لاحظت أنه يضع حول رقبته سلسلة تنتهي بصليب، فتجنّبت انتقاد السلطات الدينية. لاحظ هو ذلك فقال: «أودّ أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أنني لست عضوًا في (كنيسة أورشليم الجديدة)، التي تشغل الآن هذه القاعة، فهي تتبع الكنيسة البروتستانتية (الإصلاحية المحتجّة)، أما أنا فقد بقيت على كاثوليكيّتي (الكنيسة الأصولية)، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى».

حدّثني بعد ذلك عن أمي التي كان يعرفها، وعن خالي ألبير الذي كان صديقًا لوالده. ثم قال لي بصوت هامس كأنه يصرّح لي بكلماته الأخيرة في الحياة: «صحيح أنني أنتمي إلى أجداد جاؤوا من غانا، لكني في قرارة نفسي شعرت دائمًا أنني كونغولي، بل ليس هناك مَن هو أكثر مني كونغولية في هذه المدينة، حتى أنك لا يمكن أن تلاحظ وجود أيّ لكنة أجنبية في طريقة كلامي، ولم أكن أبدًا ضحيّة عنصرية عرقية مارسها أحد ضدّي، أو مارستها أنا ضدّ أحد. ولم أكن أبدًا ضحيّة محاولات إقصاء من طرف سكّان المدينة بسبب أصولي الغانيّة، فأنا هنا أعيش وهنا سوف أدفن».

عاد جيلبرت مع صديقتي الفرنسية رفيقة رحلتي إلى حيث كنت أجلس مع العجوز، بعد أن استغرقت عملية تصويرها للكنيسة/ قاعة العرض السينمائي سابقًا حوالي نصف ساعة، وقد أضاءت وجه كوبلافي ابتسامة كبيرة، عندما عرضت عليه الصور التي التقطتها، بعد أن كان الحنين إلى الماضي قبل لحظات قد أعتم وجهه، لذلك تركها برحابة صدر تأخذ له صورة، بدت على وجهه فيها أكبر ابتسامة أمكنه أن يرسمها عليه.

قال: «لا ينبغي أبدًا أن نظهر تعساء في صورة فوتوغرافية، فنحن لا نعرف مَن سيراها بعد عشر سنوات أو عشرين سنة».

ثم اصطحبنا حتى باب منزله، ووقف يتابعنا بنظره ونحن نبتعد، ومررنا من جديد أمام باب الكنيسة، حيث لا يزال الرجلان واقفين مثل كلبي حراسة، ولم يجرؤا حتى على النظر إلينا، بل أدارا وجهيهما، ثم ظهر خلفهما راعي الكنيسة.

(19)

الليالي الوحشية

إن أغلب أحياء مدينة (الرأس الأسود) (بوانت نوار)، تحتفظ بأسماء تدلّ على النشاط الاقتصادي السائد الذي يمارسه سكّان الحيّ، أو تدلّ على الأصول العرقية أو الجغرافية لسكّان الحيّ. فهناك مثلًا بامتداد شاطئ المحيط الأطلنطي، مجموعة من قرى صيّادي الأسماك، أطلق عليها اسم (قرى بوبو)، تؤلّف في مجموعها حيًّا سكنيًّا ضمن أحياء المدينة، أغلب صيّادي السمك من سكّانه هم من بلاد تحيط بالكونغو مثل غانا وتوجو وبنين، وهم من جنس قبائل عرفت بهذا الاسم (بوبو)، سكنوا هذا الحيّ منذ أربعينيات القرن العشرين، ومنذ ذلك الوقت وهم يحتكرون كلّ الأنشطة المرتبطة بعمليّات صيد السمك من مياه المحيط، باستعمال مراكب صيد كبيرة نسبيًّا، إذ يصل متوسّط طول المركب إلى أربعة عشر مترًا، اشتهرت هي الأخرى باسم (مراكب بوبو).

في حين أن مواطني الكونغو، من الأعراق التي سكنت البلاد منذ أزمنة قديمة، من العرق المعروف باسم (فيلي)، الذين استقروا هم أيضًا على شواطئ المحيط الأطلنطي، لم يكونوا يملكون إلا المراكب الصغيرة بدائية الشكل، التي لا يتعدّى طول الواحد منها الستّة أمتار، لذلك كانت المنافسة لصلاح قبائل (بوبو). أما الصيّادون القادمون من السنغال ومالي وموريتانيا، فقد اشتهروا أكثر بكونهم تجّارا للأسماك، لذلك هم يسكنون حيّ (السوق الكبير)، حيث أقاموا المسجد الجامع الوحيد في المدينة، إذ لا تزال أغلبية مواطني الكونغو الأصلاء إما تدين بالمسيحية الكاثوليكية، وإما تعتنق الديانات الوثنية القبائلية.

أما متاجر الملابس المستوردة ومتاجر الأجهزة الكهربائية للمنازل ومتاجر المواد الغذائية، فتقع كلها ضمن دائرة اختصاص السكّان القادمين من دول غرب أفريقيا، الذين إذا أرادوا التقاعد، لا يتركون محلاتهم إلا لتجّار من أبناء جلدتهم، أي من نفس الدول التي جاؤوا منها من غرب أفريقيا، ويحملون غالبًا نفس الألقاب العائلية، حتى إن الكونغوليين يصل بهم الظنّ أحيانًا إلى أن هؤلاء التجّار لا يموتون أبدًا.

سؤال: هل كانت غريزة حبّ الانتماء إلى قطيع، وغريزة الإخلاص لأهل القبيلة، لدى الكونغوليين القادمين من غرب الكونغو، من إقليمي (نياري) و(ليكومو)، حيث يكثر نموّ أشجار

جوز الهند، هي السبب في تجمّع هؤلاء للسكن معًا في الحيّ الذي يحمل اسم (شجرة جوز الهند نياري)، والحيّ الذي يحمل اسم (الجسر المؤدّي إلى ليكومو)؟ في حين أن المواطنين القادمين من جنوب البلاد، من إقليمي (بوانزا) و(نويوندزي)، يستقرّون معًا في أحياء تحمل اسم (الجسر إلى بوانزا) أو اسم (نويوندزي)؟

إذَنْ لم تخالف العاصمة الاقتصادية للبلاد مدينة مسقط رأسي (بوانت نوار) (الرأس الأسود) العرف السائد في البلاد، بتغليب الاهتمام بعنصر الانتماء العرقي القبائلي على غيره من العناصر، كمبدأ في عملية توزيع السكّان على أحياء مدن البلاد، بحيث تتغلب مشاعر العنصرية العرقية على مشاعر الوطنية القومية. ليس هذا فقط بل إن نفس هذا المبدأ بتغليب الانتماء العرقي، يتمّ تطبيقه على عملية توزيع مراكز السلطة، والوظائف الإدارية الهامة في الجهاز الحكومي للدولة. لهذا السبب يشعر الجنوبيون منذ عشرات السنين بالإحباط؛ نظرًا لاقتصار مناصب الدولة العليا على الشماليين، الذين يحتكرون السلطة السياسية في البلاد.

طبعًا بين وقت وآخر، يحدث أن يسمح الشماليون بتعيين وزير من الجنوبيين، خاصة لحقيبة المحروقات، وذلك لأن أغلب آبار البترول موجودة في جنوب البلاد، ويعتقد الشماليون أنهم بذلك يمكنهم خداع الجنوبيين، أو يمكنهم أن يجعلوا الجنوبيين يصدّقون، أن هذا الإجراء مقصود به، أن يجعلوا الجنوبيين يضعون أيديهم بالفعل، على أهم مصدر من مصادر الثروة في البلاد، لكن مثل هذا الإجراء لم يكن كافيًا لإسكات غضب الجنوبيين. ففي الحقيقة ليس لدى وزير البترول القدرة على التحكّم في صياغة العقود الخاصة بكلّ ما يتعلّق باقتصاديّات البترول.

هناك كذلك قصّة ذلك الحيّ الذي يحمل اسم حيّ الثلاثمائة، ويحظى بشعبية كبيرة لدى الكونغوليين، رغم أن هذا الاسم لا يظهر على أيّ لوحة إرشادية مرورية في أيّ شارع من شوارع الحيّ. هل حَجْب اسم هذا الحيّ بهذه الطريقة هو بسبب الحذر؟ أو هل هي محاولة من السلطات لمحو التاريخ الحقيقي لهذا الحيّ الذي يختفي خلف اسمه؟ من الغريب أن حتى سكّان هذا الحيّ أنفسهم يتجاهلون اسمه الحقيقي، ويطلقون عليه اسم حيّ (رِكس)، وهو الاسم المسجّل في الذاكرة الشعبية، لقاعة العروض السينمائية الشهيرة التي كانت به. بهذا فقط يمكن تجاهل وجود مركز تجارة الدعارة فيه، هذه المملكة التي تسيطر عليها منذ سبعينيات القرن العشرين، مومسات الأرصفة القادمات من زائير.

في ذلك الوقت كان ارتفاع قيمة الفرنك الكونغولي الشمالي، بالمقارنة بقيمة الفرنك الكونغولي الجنوبي، المعروف باسم الفرنك الزائيري، هو السبب المباشر في نزوح المئات من فتيات الدعارة من الجنوب إلى الشمال، وقت أن كانت هناك محاولة في إطار حملة سمّيت باسم (حملة التأصيل) بقيادة الرئيس الزائيري موبوتو سيسي سيكو؛ للقضاء على بعض الموبقات في البلاد ومن بينها الدعارة.

ومن بينها كذلك إصدار قرارات تتعلّق بعدم استعمال الأسماء الأجنبية في تسمية الأطفال، ولا في تسمية المحلات التجارية، وعدم ارتداء الملابس الأوروبية مثل السترة والسروال ورباط العنق، لصالح استعمال الرداء الوطني المعروف باسم (آباكست)، وهي الحروف الأولى من كلمات العبارة التي تعني (سحقًا للملابس الأوروبية)، ففي مفهوم تلك الفترة فإن الملابس الأوروبية، هي الرمز الباقي للثقافة الاستعمارية الغربية، وقد كان الجلباب هو الرداء الإجباري لكل رجال زائير في الفترة ما بين 1972 و1990.

إذَنْ كانت فتيات اللهو الزائيريات يعبرن نهر الكونغو، من الضفّة الجنوبية إلى الضفّة الشمالية، فيجدن أنفسهنّ بذلك قد تركن زائير، وأصبحن في الكونغو الشمالي، من (ليوبولدفيل) عاصمة الكونغو الجنوبي البلجيكي، إلى (برازافيل) عاصمة الكونغو الشمالي الفرنسي، ثم بالقطارات من (برازافيل) إلى (الرأس الأسود) العاصمة الاقتصادية للبلاد. حتى الفتيان من (زائير) كانوا يفعلون نفس الشيء، رغبة في الحصول على عمل في ميناء (بوانت نوار) (الرأس الأسود)، حيث تنوّعت الأنشطة الصناعية والتجارية، بالإضافة إلى إمكانية الحصول على عمل في مجالات التشييد والبناء، التي كانت مزدهرة في ذلك الوقت.

وبما أنَّ البلدين في الأصل هما بلد واحد، فرّق المستعمر بين شماله وجنوبه، فإن الشباب الجنوبي لم يكن يختلف في أي شيء عن الشباب الشمالي، لا في المظهر ولا في اللغة المستعملة، ولا حتى في الثقافة العامة. لذلك فإن الشباب الكونغولي الجنوبي لم يكن يشعر بالغربة في الكونغو الشمالي، بل كانوا يذوبون داخل الكتلة الجماهيرية، ويمرّون دون أن يلاحظهم أحد. في الحقيقة نجح الجنوبيون في الحصول على العمل في المهن اليدوية التي كان الشماليون يرفضونها بل ويتأففون من قبولها.

من الغريب أن الدستور الزائيري الجنوبي الذي وضعه رجال سلطة الرئيس المستبدّ (موبوتو سيسي سيكو)، وحاولوا به تبرير السياسات التي وضعها قادة الدولة، وأدّت إلى إهمال حقوق

الشعب، كان يشير في مادته الخامسة عشرة إلى ضرورة أن يتعلّم شباب البلاد القدرة على التحايل على الظروف الصعبة، من أجل البقاء على قيد الحياة. كأن هذا الشباب الزائيري الجنوبي كان يطبّق هذه المادة بحذافيرها في بلادنا.

كان حيّ الثلاثمائة الذي يقع خلف دار (سينما رِكس)، هو الحيّ الذي تبيع فيه الفتيات أجسادهنّ، وهذه هي نفس الحالة التي ظلّ عليها هذا الحيّ حتى الآن. بعض البيوت فيه لا تزال من ألواح خشبية وقماش الخيام، إلى جوار بعض المساكن من الطوب والحجر، التي يبدو أنها لم يكتمل بناؤها. إن المتجوّل على قدميه في هذه الحواري المتعرّجة، ستطأ قدماه العديد من العوازل الذكرية الملقاة في الطريق، مما يدعو إلى الاعتقاد أن بعض الفتيات يمارسن عملهنّ على قارعة الطريق، لا في البيوت سيّئة الإضاءة والتهوية، بل في الهواء الطلق، خاصة بعد حلول الظلام، حين تبدو كلّ قطط الشوارع رماديّة اللون.

إن اسم حيّ الثلاثمائة، وفقًا لما يشيعه البعض، يشير إلى تلك المعركة التي نشبت بين العاهرات الزائيريات والعاهرات المحلّيات، حول تسعيرة الخدمات التي يقدّمنها للزبائن. فحين كانت المحلّيات قد ثبّتن السعر عند رقم 500 فرنك شمالي، جاءت الزائيريات لتخفيض هذا المبلغ إلى 300 فرنك شمالي، حتى يتمكّنّ من منافسة الشماليات وجذب أغلبية الزبائن إليهنّ. ثم أشعن أنهنّ رغم سعرهنّ المنخفض، يقدّمن خدمة أفضل من تلك التي تقدّمها المحلّيات، فمستوى كفاءتهنّ في إرضاء الزبائن أعلى من مستوى غيرهنّ.

هذا هو ما أغرى الكثير من الرجال الناضجين، أصحاب العائلات الكثيرة العدد، على التضحية بأجزاء كبيرة من مرتّباتهم، من أجل المجيء إلى هنا لتجربة الفتيات الزائيريات. ما حدث بعد ذلك هو أن المئات من الزوجات الخائفات التعيسات، تبعن أزواجهنّ إلى هذا الحيّ في محاولة منهنّ لمنع وقوع هذه الفتنة، ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مرتّبات الأزواج. إلا أن طبيعة شوارع وحواري الحيّ الملتفّة المتعرّجة، فيما يشبه المتاهة التامة محكمة الغلق، كانت تسهّل على الأزواج مهمّة الاختفاء عن زوجاتهم.

إلا أن هذا لم يمنع أبدًا نشوب المعارك القتالية بين الحين والآخر، بل ووصول المتقاتلات من الشوارع الخلفية إلى شارع الاستقلال، حيث يتبادلن توجيه اللطمات، بل والضرب أحيانًا باستعمال الهراوات. إلا أن أخطر ما كان يُستعمل أحيانًا في القتال هو ماء النار، الذي يحرق بشرة وجوه وأكتاف وأذرع النساء، مما يجعل المرأة أو الفتاة مضطرّة إلى اعتزال العمل بشكل

نهائي. إلا أن بعض مشوّهات الوجه كن يستطعن استئناف ممارسة مهنتهنّ، وهنّ يخفين أوجههنّ في ظلام الطرقات. كان هذا الموضوع يمثّل مصدر قلق مستمر لسلطات المدينة، خاصةً عندما تصل رغبة واحدة منهنّ في التخلّص من أخرى، إلى حدّ أن تضع لها السمّ في طعامها فتقتلها.

فإذا لم تفلح أي واحدة من هذه الوسائل في تخلّص فتاة من أخرى، تلجأ الفتيات إلى حلّ أخير، وهو الاستعانة بعصابات المجرمين من قطّاع الطرق، الذين كانوا هم أيضًا من زائير، فتدفع الفتاة لهم كل ما تملك في مقابل تخليصها من منافستها بقتلها وإلقاء جثّتها في نهر تشينوكا أو فوق رمال الشاطئ المهجور. وهكذا أمام هذا الموقف العاجز من السلطات الإدارية للمدينة، وهذا المناخ العام من الخوف الذي ساد المدينة، لجأت الكونغوليات الشماليات إلى الهجرة من حيّ الثلاثمائة، والذهاب للسكن في أماكن أقرب إلى وسط المدينة، ومن ثمّ حدث انخفاض حاد في دخولهنّ؛ لأن وسط المدينة الزاخر بالحركة نهارًا، يشهد سكونًا تامًّا عند هبوط المساء.

هكذا اضطرّت الفتيات الشماليات إلى تخفيض أسعارهنّ؛ لتصبح هي نفس أسعار الفتيات الزائيريات، واتفق الفريقان بذلك على توحيد السعر، ورفع الفريقان بذلك رايات السلام، ولا عزاء للفتيات اللائي لم ينصتن بانتباه إلى كلمات الشاعر والمغنّي الفرنسي جورج براسانس، في أغنية (توبة الفتاة الشقيّة) التي يقول فيها: «إن أصعب شيء في فنّ ممارسة البغاء/ هو معرفة الفتاة كيف تحرّك ردفيها/ فالفتاة لا تحرّك ردفيها بنفس الطريقة/ لو أن عميلها موظّف/ أو أنه بائع في متجر/ أو أنه خادم في كنيسة».

عندما يسير الرجل وحيدًا في شوارع حيّ الثلاثمائة، فإنه بذلك يلفت انتباه الفتيات اللائي يراقبنه من نوافذ أكواخهنّ، معتقدات أن قدميك تقودانك للتسكّع في هذا المكان، بسبب دوافع محدّدة، خاصة لو بانت على وجهك ملامح التردّد، أو لو تظاهرت بأنك تائه، فمشيت بضع خطوات إلى الأمام، ثم عدت بنفس الخطوات إلى الخلف. إلا أن هناك كذلك الرجال الذين يعرفون هدفهم بوضوح، ويتميّزون بالشجاعة ويمشون بخطوات واثقة، يصفّرون بأفواههم لحنًا مرحًا. ثم يدخل الواحد منهم من باب أحد الأكواخ، كما لو كان حيوانًا يبحث عن فريسة، ولا يخرج إلا بعد نصف ساعة.

عندما غامرت بالذهاب إلى هناك، لم أكن أعرف في أي فئة من الزبائن سيتمّ تصنيفي، من وجهة نظر تلك التي تراقبني الآن من نافذة كوخها، إلا أنني منذ أن تركت خلفي شارع الاستقلال،

ودخلت في أول حارة قابلتني، في هذه المتاهة من الحواري، تولّد لديَّ الإحساس أن هناك مَن يتبعني ماشيًا خلفي.

استدرت لأجد امرأة طويلة الساقين، بشفتين مخضّبتين بلون أحمر فاقع، اقتربت مني وقالت كأنها تستجوبني: «ماذا جئت تفعل هنا؟ هل أنت صحفي؟».

لم أجبها بل ابتعدت عنها، وغيّرت طريقي بالدخول في حارة جديدة، إلا أن هذه المرأة لحقت بي لا أعرف كيف، ووجدتها من جديد أمامي، فهذه المرأة تعرف إلى أين تذهب كلّ حواري هذا الحيّ.

لاحظت وجود قطعة من الورق بين يديها، قالت: «أريدك أن تقرأ هذه الورقة، وقد كتبت عليها قصّة حياتي، التي سبق أن حكيتها لصحفيين آخرين مثلك».

كانت عيناها البارزتان في وجهها تخفيان رغبة كامنة في تبادل أطراف الحديث، كأنها لم تتمكّن من العثور على أحد ينصت إليها منذ فترة طويلة. أدركت أن وجه هذه المرأة يقول إنها تتعذّب منذ سنوات تحت ضغط حمل ثقيل هو مجرّد البقاء على قيد الحياة. هي تشير إلى منزلها الذي تبعتها إليه. في فنائه وجدت عددًا من النساء اللائي فحصنني بأعينهنّ.

قالت لي: «أنا التي جلبتهنّ من قريتنا مسقط رأسنا، إلى هنا للعمل معي».

ثم استدارت نحو الفتيات قائلة لهنّ: «لا تخفن؛ فإن هذا السيّد هو صحفي يعمل مع البيض، وقد شاهدته أمس على الرصيف أمام دار (سينما ركس)، فقلت في نفسي إنني لن أتركه يرحل عائدًا إلى فرنسا قبل أن أقصّ عليه حكايتي، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنها أن تسمح لنا بعرض مأساتنا أمام العالم كلّه».

ثم من جديد وجّهت الحديث إليَّ وهي تستدير نحوي. قالت: «نحن لا نريد إلا شيئًا واحدًا في هذا الحيّ، وهو ألَّا يمارس أي رجل الجنس معنا إلَّا بعد أن يكون قد وضع الواقي الذكري».

في نفس اللحظة انطلقت أفواه الفتيات بهذا الهتاف كأنهنّ جوقة موسيقية واحدة: «لا جنس دون الواقي الذكري».

من العجيب أن نفس هذه الجملة تكرّرت في الحال، بأصوات نسائية أخرى، كأنها قادمة من أفنية منازل أخرى، تقع خلف المنزل حيث كنّا، كأن كلّ هؤلاء النساء كنّ ينتظرن كلمة السرّ، حتى ينطلقن جميعًا صائحات بهذه العبارة.

فردت الورقة التي أعطتني إيّاها هذه المرأة في يدي، فوجدت أنها برقية من وكالة سيفيا *Syfia* للأنباء، بتاريخ 19 سبتمبر 2009، تحمل هذا العنوان المثير: (نساء الكونغو برازافيل العاهرات يتمسّكن بالحياة أكثر من رغبتهنّ في كسب النقود).

قالت: «اقرأ هذه الورقة أيها السيد، إنها قصّة حياتي، أو بالأحرى إنها قصص حياة كل أولئك النسوة اللائي تراهنّ أمامك».

في نظر تلك المرأة كانت هذه الوثيقة أكثر أهمّية لها من وثيقة شهادة ميلادها. أمسكت الورقة بين يديَّ وبدأت في قراءتها بصوت مرتفع، وكانت المرأة تهزّ رأسها بعلامة الموافقة مع كلّ كلمة أقرؤها:

«ليس هناك أي مجال لممارسة الفعل الجنسي دون أن يستعمل الرجال الواقي الذكري؛ إذ إن محترفات الدعارة في (الرأس الأسود) قد أدركن الآن مخاطر المهنة، وبشكل خاص خطر الإصابة بمرض الإيدز».

أدركتُ أن هذه المرأة قد أسّست هذه الرابطة مع غيرها من محترفات الدعارة؛ للمطالبة بحقّهنّ في حماية أنفسهنّ من الأمراض التي تنتقل بالممارسات الجنسية. اليوم هنّ يؤكّدن على أنهنّ لن يقبلن أبدًا التنازل عن هذا الشرط أمام زبائنهنّ، مهما كانت ضخامة المبالغ المالية المعروضة على الواحدة منهنَّ.

هذه المرأة المؤسّسة للرابطة، لا تزال تمارس هذه المهنة في هذا الحيّ، لكنها نقلت أولادها العديدين من هذا الحيّ إلى أحياء أخرى يقيمون فيها. تقول: «أردت أن أجنّبهم مشقّة مشاهدة هذه المناظر القاسية الدنيئة».

قالت لي: إنها رغم إصرارها على أن يستعمل كل زبائنها الواقي الذكري، إلا أنها تحصل على حوالي 80 زبونًا كمتوسّط شهري، وكل زبون يدفع ما يوازي يورو ونصفًا فقط لا غير، وهكذا فإن إجمالي دخل يساوي 120 يورو، يكفيها مصاريف حياتها وحياة أولادها.

عندما تتحدّث عن مهنتها، هي لا تشعر بأي إحساس بالخزي أو العار، تقول: «إن أفراد أسرتي يعرفون أنني أمارس هذه المهنة، هذا كان اختياري، وما الحياة إلا سلسلة من الاختيارات، ولكني أفكر الآن في الاعتزال؛ لأجنِّب نفسي خطر الإصابة بالأمراض المهلكة».

أضافت: «لعلّك لاحظت أن هذا التقرير من وكالة (سيفيا) لم يذكر اسمي، لذلك أنا أفضّل ألَّا تذكره أنت أيضًا. لو حدث ذات يوم أن كتبت عنّي، فأنا أفضّل الآن الحياة في سرّيّة وكتمان. كما أتمنى أن تلتزم بالحقائق التي ظهرت لك جليّة هنا الآن، ولا تفعل مثلما يفعل غالبية الصحفيين، الذين عند عودتهم إلى أوروبا ينسون التزاماتهم الأخلاقية وضمائرهم المهنية، فيضيفون من خيالاتهم ما يعتقدون أنه يجعل القرّاء أكثر شغفًا بالموضوع».

أنا: «الحقيقة هي أنني لست صحفيًّا».

هي: «أنت صحفي، ولا أفهم لماذا تريد أن تتنصّل من مهنتك؟ هل كونك صحفيًّا هو أدعى للخزي والعار من كوني عاهرة؟».

أنا: «في الحقيقة أنا هنا؛ لأني أبحث عن ذكريات طفولتي».

هي: «أنا أعرف هذا النوع من الكلام المخاتل الكاذب الخادع، أنت الآن تشبه أولئك الرجال الذين يدخلون الحيّ، ويدّعون أنهم تائهون يبحثون عن باب الخروج من الحيّ، ويكونون في الحقيقة زبائن يبحثون عن المتعة، لكنهم لا يستطيعون مواجهة أنفسهم والآخرين بهذه الحقيقة البسيطة، كأنهم لا يزالون في حالة صراع مع ضمائرهم، التي قد ترفض أخلاقيًّا السبب في وجودهم هنا في هذا الحيّ».

هي: «أنا أعرف أنك صحفي، وقد شاهدتك أمس أمام القاعة التي كانت (دار ركس للعروض السينمائية)، ومعك رجل أسود وامرأة بيضاء، ثم ذهبتم جميعًا إلى منزل العجوز كوبلافي. دعني أسألك هل قال هذا العجوز كلامًا مسيئًا إلينا نحن نساء حيّ الثلاثمائة؟».

أنا: «لا. لم يحدث».

قدّمت لي كرسيًّا جلستُ عليه، وجلست هي أمامي على أرض فناء دارها، وبحركة واحدة من رأسها أفرغت الدائرة حولنا من النساء، اللائي خرجن من فناء المنزل الواحدة بعد الأخرى، دون أن تنطق أيٌّ منهنّ بكلمة واحدة.

قالت: «ليس لديَّ ما أقدّمه لك أيها الصحفي، عدا قصّتي تلك، لذلك أدعوك الآن إلى تشغيل جهاز التسجيل، الذي لديك حتمًا في هاتفك المحمول، وأرجو ألا تحاول مقاطعتي أثناء الحكي».

أخرجت أنا جهاز هاتفي المحمول من جيبي، وجففت هي بظهر يدها العرق الغزير فوق جبهتها، وعقدت ذراعيها فوق صدرها، ثم بدأت في النحنحة لتسليك حنجرتها.

قالت: «سيّدي الصحفي، أنا امرأة عاشت حياتها بالطول والعرض، وأؤكّد لك أن جسدي هذا قد لمسته أيدي مئات الرجال، من بينهم مَن كان من أحطّ وأقذر أنواع الرجال، ومَن كان من بين أرقى الرجال من سادة البلاد. كانت تجارة الجسد هي المهنة الوحيدة التي أتقنتها، وهي التي دفعتني إلى مغادرة بلادي (زائير) والمجيء إلى هنا. وعندما أُحال إلى التقاعد سأحزم أمتعتي وأعود إلى قريتي الصغيرة (باندوندو)، حيث سأعمل في فلاحة الأرض».

لم يكن لديَّ أطفال، ولكني كنت الأخت الكبرى لسبعة من الذكور، الذين اعتبرتهم أبنائي،» غادروا جميعًا (زائير) خلفي، ستجد ثلاثة منهم يعيشون الآن في العاصمة البلجيكية (بروكسل)، حيث تزوّجوا بفتيات بيضاوات. وستجد اثنين منهم يعيشان في (أنجولا)، ويعملان في تجارة المواد الغذائية. وستجد الاثنين الأخيرين يتسكّعان في مترو أنفاق (باريس)، حيث يحاولان كسب لقمة العيش، بعزف الموسيقى والغناء، وفقًا لما وصلني عنهما من أخبار، عن طريق مواطنين زائيريين يذهبون إلى العاصمة باريس ويعودون منها».

منذ أن استقلّ إخوتي بحيواتهم، وثمّة جدار قد قام واقفًا بيني وبينهم، فأنا في نظرهم الآن» لست إلا مصدر خزي وعار للأسرة، ولم يعد أيّ منهم يحاول الاتصال بي، رغم أنهم يعلمون أن أول مَن دفع بي إلى هذا الطريق هي أمّنا، التي سبقتني إلى ممارسة هذه المهنة، لكن الحقيقة هي أنها لم يكن أمامها أي خيار، لذلك لا أميل إلى محاكمتها وإدانتها، فالربّ وحده هو الذي له أن يحاكم وأن يدين».

هل يعتقد الناس فعلًا أن هناك امرأة اختارت بكامل إرادتها السير في هذا الطريق؟ هل» اختيار مهنة الدعارة هو مثل اختيار مهنة تصفيف الشَّعر؟ الحقيقة هي أنه ليست هناك طفلة تولد عاهرة، بل إنها تصبح كذلك عندما تصل إلى السنّ المناسبة، أو عندما تصل إلى اللحظة التي تنظر فيها إلى الأفق، فتجد أن كلّ الطرق أمامها مغلقة، باستثناء هذا الطريق الوحيد، عندما تجد أنها لم يعد لديها في منزلها لقمة طعام واحدة، فتخرج إلى الشارع تبتسم لأول عابر سبيل، ابتسامة جميلة مرسومة على الوجه، كما يجب أن يحدث في أي تجارة، أن تكون السلعة المباعة جميلة وجذّابة».

ثم رغم أن المرأة تبدأ في كراهية جسدها، بل حتى تبدأ في احتقاره، إلا أنها يجب أن تحافظ» عليه نظيفًا جميلًا، حتى يكون جاهزًا دائمًا لاستقبال زبائن جدد. لكن هذه المرأة تدرك بالتدريج، أنها لم تعد قادرة على تنظيف جسدها، مهما كان الماء المستعمل في هذا التنظيف مقدَّسا طاهرًا،

حتى لو كان ماء نهر الجانج المقدّس في الهند، فإن الجسد يصبح ملوَّثا إلى درجة يستحيل معها تنظيفه أو محو آثامه، عند هذه اللحظة قد تتوقّف المرأة عن تنظيف نفسها، إذ لا تعود كل مياه الأنهار والبحار والمحيطات في نظرها قادرة على تطهير جسدها».

«هل تعلم أنني درست حتى حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية؟ لكن هذه الشهادة لم تنفعني في أي شيء، بل كان عليَّ تحمّل مصيري المكتوب لي منذ قبل أن أولد. أنا لم أفعل أي شيء في حياتي أكثر من أنني مشيت في الطريق الذي وضعه مصيري أمامي، إلا أن البشر لم يعودوا يرون فيَّ إلا امرأة سيّئة السمعة، تعمل قوّادة للفتيات البائسات، اللائي تجلبهنّ من بلدها... أنا هي تلك المرأة التي يستعد الناس الآن لرجمها بالحجارة».

«هذه القصّة تشبه قصّة مذكورة في الإنجيل، عندما أراد الناس رجم عاهرة بالحجارة، فتدخّل يسوع لحمايتها، إذ ينسى الرجال تمامًا المتعة التي يحصلون عليها من ممارسة الجنس مع هذه المرأة، ولا يعودون يتذكّرون إلا أنها تستحق الرجم بالحجارة».

«عندما هجر أبي البيت، وتركني أنا وأمي وسبعة أطفال ذكور إخوة لي أصغر مني سنًّا، لم تجد أمي إلا هذا الطريق لتسلكه، وقد أصبح مصدر رزقها الوحيد حتى يوم وفاتها، وبذلك أمكنها أن تنقذنا أنا وإخوتي من الموت جوعًا، ووفّرت لنا منزلًا بدلًا من النوم في العراء. وفي حين كانت البنات من سنّي مشغولات بعرائسهنّ القماشية، كانت أمّي تعلمني أسرار وفنون مهنة إغواء الرجال، بالإضافة إلى تعلّم أسرار وفنون إجادة طهو الطعام. كانت أمي تقول إن الجمال يأتي في المرحلة الثالثة في الأهمية بعد الجنس والطعام، فالرجل يفضّل المرأة الساخنة في الفراش الأقلّ جمالًا، عن المرأة الجميلة الباردة في الفراش، أريدك أن تسجّل هذا في المقال الذي ستكتبه عني».

«إن كلّ ما قلته لك الآن لم أذكره لأي صحفي من قبل، وذلك لأني أشعر أنك لن تخون الثقة التي وضعتها فيك، بدليل الحفاوة التي استقبلك بها العجوز كوبلافي في منزله أمس، ويمكنك أن تغلق الآن أداة التسجيل في هاتفك، فلقد انتهيت من الحكي».

عادت النساء إلى الفناء، كأنهنّ كنّ ينصتن إلى حوارنا، وقفت في مكاني ومدّدت يدي إليها.

«قالت: «إن العجوز كوبلافي لا يسيء إلينا أبدًا، ولا يعاملنا قطّ كما تعامل العاهرات».

عندما خرجت من فناء المنزل، كانت هناك إلى الجهة الأخرى من الشارع، مجموعة من النساء سمعتُ الحوار الدائر بينهنّ، إذ كنّ يتساءلن لماذا لا أجري مقابلة معهنّ هنّ أيضًا. كل النساء يردن الفضفضة. عثرت على سيّارة أجرة.

(20)

الحرب والسلام

غادرت السيّارة الأجرة أمام مطعم (جاسبار)، لكني تراجعت عن الدخول فيه بسبب الزحام الشديد داخله والضوضاء المزعجة الصادرة منه. كان هناك بعض الزبائن يقفون خارج المطعم ينتظرون دورهم في الدخول والحصول على مائدة عندما تخلو واحدة. لشدّة دهشتي وجدت شخصًا نحيفًا مثل مسمار، يجلس منفردًا إلى مائدة، يحرّك رأسه بإشارة يفهم منها أنه يدعوني إلى مائدته. عندما رأى علامات تردّدي وبقائي ثابتًا في مكاني، نطق بصوت مرتفع: «تعالَ أنت ضيفي»، فتقدّمت إلى مائدة هذا الغريب، وجلست في مواجهته.

قال: «أنت تقول في نفسك إننا لم نتعارف من قبل، لكنني في الحقيقة أعرفك، أنت كاتب مشهور، وقد شاهدتك عدّة مرّات في التلفزيون، أمّا كل الآكلين هنا فهم غير مثقّفين؛ لذلك هم لا يعرفون شخصيتك، لكني أتابع الأحداث الجارية».

قلت: «لعلّك كنت تنتظر أن يلحق بك أحد أصدقائك».

قال: «هذا هو مكاني المعتاد الذي لا أدعو إليه إلا مَن أختار، أول أمس تناولت غذائي مع صحفي أبيض، وأمس تناولت غذائي مع كولونيل (عميد) في الجيش الكونغولي، أما اليوم فإن ضيفي هو كاتب مشهور».

حرّك يده نحو النادلة، فأحضرت لنا زجاجة جعة (بريموس) وفتحتها، كان وجهها جامدًا دون أي تعبير، كأنها تبخل بابتسامتها على شخصي المجهول، أو كأنها تشعر بعدم الارتياح لوجودي. عادت الفتاة إلى مكانها خلف نضد الحانة، لاحظت أن عيني مضيفي قد تابعتا مؤخّرة الفتاة بشراهة واضحة.

قال: «كانت هذه الفتاة تخصّني، وكان لي معها سجلّات كاملة من الأحداث، لكنها مؤخّرًا أنهت هذه العلاقة، وهذا هو السبب في التعبير الجامد على وجهها، هل لاحظت جمال استدارة مؤخّرتها؟».

حرّكت رأسي بعلامة الموافقة.

قال: «لقد تغيّرت هذه البلاد كثيرًا عزيزي المؤلّف».

ولأنني كنت أتفحّص ندبة تقطع وجهه إلى جزأين، وضع الغريب يده عليها.

قال: «هذه الندبة بسبب الحرب ... أقصد حرب البترول».

ثم نظر إلى الزبائن الجالسين خلفنا، ثم إلى أولئك الجالسين أمامنا، ليتأكّد من أن أحدًا لا ينصت إلى ما يقول، ثم استأنف:

«لقد أعطانا الله البترول مؤخّرا، ووهبنا هذه المنحة رغم أننا بلد صغير لا يتعدّى عدد سكّانه الثلاثة ملايين نسمة. كنت قبل ذلك أتساءل لماذا منح الله الجنوبيين الزائيريين كلّ هذه الكمّيات من البترول، وبخل علينا بالقليل منه. لكنني توقّفت الآن عن الشكوى، وقد عرفت أن هناك بلادًا كبيرة العدد لا تحصل على قطرة بترول واحدة، لا في أرضها ولا في مياهها الإقليمية في بحارها».

بعد أن أفرغ كوب الخمر في جوفه قال: «إن البترول هو مصدر القوّة في العصر الحديث؛ لذلك حيثما توجد حرب بين دولتين، ستجد حتمًا خلفها يقبع صراع على آبار البترول، وهذا لم يحدث أبدًا من قبل في التاريخ، ولا حتى حول مصادر المياه، رغم أن المياه أكثر أهمية من البترول؛ لأنه لا يمكن لشعب دولة أن يعيش دون أن تكون لديه مياه كافية للشرب».

إن البترول هو السبب في الشجار الدائر هنا بين الشماليين والجنوبيين. وبسبب فرط الغباء في هذا الشعب، اندلعت نيران الحرب الأهلية».

عادت النادلة لتسجّل طلباتنا من أطباق الطعام، فطلبتُ لحمًا مع عجينة الفول السوداني، أما مضيفي فطلب طبق السمك المملّح مع نباتات فطرية. ثم مرّة أخرى تعلّق بصره بمؤخّرة الفتاة، عندما استدارت مبتعدة.

قال: «لا تزال فكرة أنني امتطيت هذه المؤخّرة تثيرني جنسيًّا، ولا أفهم السبب في تقلّباتها المزاجية التي فرّقت بيننا... على أي الأحوال أنا لم أكن راضيًا تمامًا في علاقتي بها، فهي في الفراش باردة جدًّا، لا تتفاعل معك في أي شيء، بل تتركك تقوم وحدك بكل العمل... نسيت فيمَ كنّا نتحدّث من قبل؟».

قلت: «الحرب الأهلية».

قال: «نعم فكل قادة الدولتين الشمالية والجنوبية، يسرقون بترول الشعب، ويبيعونه لصالحهم ويشترون به القصور في أوروبا، فحقول البترول ليست ملكية عامة لشعب البلاد، بل هي ملكية

خاصة لرئيس الجمهورية ولأفراد أسرته، الذي لن أنطق باسمه؛ فالحوائط حولنا لها آذان، المشكلة هي أن هذا الرئيس هو في حماية الفرنسيين، في حين أن الرئيس الذي كان يحكم قبله تمّ إسقاطه بواسطة انقلاب عسكري؛ لأنه رفض التعاون مع الفرنسيين، وفضّل التعاون مع الأمريكيين، وقد ترك الأمريكيون صديقهم يسقط وتخلّوا عنه، في حين ساعد الفرنسيون صديقهم على البقاء في منصبه.

رغم ذلك أقول: إن الأمريكيين ليسوا بلهاء، فقد فضّلوا الذهاب إلى العراق لإعلان حرب» البترول عليها ولإسقاط رئيسها؛ لأن كمّيات البترول في العراق، أكبر بكثير من كمّيات البترول في بلادنا».

هنا حدث أن دخلت المطعم امرأتان ترتديان تنّورتين قصيرتين جدًّا، وتضع كلٌّ منهما قدميها في حذاءين بكعبين مرتفعين جدًّا، بالإضافة إلى المبالغة في تزيين الوجه بالأصباغ والمساحيق. عبرتا قاعة المطعم حتى وصلتا إلى نضد المشروبات، وهما تسيران كأنهما عارضتا أزياء محترفتان.

قال: «هاتان الفتاتان عاهرتان معروفتان، تستعرضان جسديهما هكذا لاصطياد الزبائن، وهما من الكونغو الفرنسي؛ فالزائيريّات لا يجرؤن على الدخول علنًا هكذا في مثل هذا المطعم. حتى الشماليات لم يكنّ يجرؤن على الدخول هنا، حتى قامت الحرب التي أسقطت كلّ القيم والأخلاقيات أرضًا، وأصبح على كلّ شخص أن يفعل كلّ ما في استطاعته، للبقاء على قيد الحياة... فيمَ كنّا نتحدّث قبل دخولهما؟».

قلت: «الحرب... البترول... الفرنسيّون... الأمريكيّون».

قال: «نعم نعم... أنت طبعًا تعرف أنه كانت هناك حرب أهلية قامت في بلادنا، فقد نشرت أخبارها في كلّ صحف العالم. هي حرب شنّها الشماليّون على الجنوبيّين، بسبب النزاع على آبار بترول تقع على المناطق الحدودية بين الدولتين، وقد حصلت كلّ دولة على أسلحتها من مصادر مختلفة، فقد حصل الشماليّون على الأسلحة والجنود من أنجولا وفرنسا، فهرب الجنوبيّون من قراهم إلى داخل الأحراش للاختباء فيها، حيث كانوا يموتون من الجوع، ومن الإصابة بالأمراض الاستوائية التي ينقلها البعوض، ومن الوقوع فريسة لحيوانات متوحّشة مثل التماسيح والأسود».

لاحظنا أن بعض آذان الرجال المحيطين بنا تحاول متابعة الحوار الدائر بيننا، فاقترب بكرسيه مني، حتى يقترب بفمه من أذني.

قال: «شاهدنا الطائرات الحربية وهي تمسح الغابات في طيران منخفض؛ للبحث عن المختبئين داخل الأحراش، ثم أصبح أولئك الذين لجأوا للاختباء في الأحراش معروفين باسم اللاجئين، ثم أعلن المجتمع الدولي عن ضرورة مساعدتهم وتزويدهم بالاحتياجات الغذائية والكسائية، رغم أن الغابات بها الكثير من أشجار الفاكهة التي يمكن للبشر أن يعيشوا عليه، كما تفعل قبائل الأقزام التي تقيم في هذه الغابات، لكن طبعًا بالنظر إلى أحجام الأقزام الصغيرة جدًّا، يمكن إدراك أن معداتهم هي الأخرى صغيرة جدًّا، وبالتالي فإن احتياجاتهم الغذائية أقل بكثير من احتياجات غيرهم من البشر العاديين.

دعني أتساءل ماذا يفعل هؤلاء الأقزام بحياتهم وهم يختبئون هكذا طول الوقت في الغابات؟» وكيف أنهم يكتفون من الطعام والشراب بأقلّ القليل؟ هم لا يعرفون حتى بوجود أي إنجازات علمية مثل الهواتف الجوّالة أو التلفزيون، ولا يعرفون أنه للسفر إلى مسافات بعيدة يمكننا الآن أن نركب القطارات والطائرات، باختصار هذا النوع من البشر الذين نسمّيهم الأقزام، أنا لا أحبّهم، لكني أتقبّل وجودهم».

لاحظت أن عيني هذا المضيف الغريب تبدوان كما لو كانتا مبلّلتين بالدموع، فهل هناك قطرات دموع تستعدّ للتساقط من عينيه؟

قال: «سيّدي المؤلّف أنت لا تعرف الكثير عن الأحداث المؤسفة التي وقعت مؤخَّرا في هذه البلاد البائسة، إن ما حدث كان مخيفًا، في الحقيقة إن الجرائد لم تذكر عن هذه الأحداث أي شيء؛ وذلك لأن كل الصحفيين ليسوا إلا جواسيس يعملون لصالح فرنسا، ومنذ متى يذكر الفرنسيون أو يذكر المتعاونون معهم الحقائق؟ إنهم يكذبون طول الوقت. أنا قد شاهدت وقائع هذه الحرب التي أحدّثك عنها بعينيَّ هاتين، فأنا كنت هناك من بين من أسميناهم (لاجئين).

كان يحدث أن تضع النساء الحوامل أطفالهنّ الرضّع في الأحراش؛ فالأطفال يجيئون إلى» الدنيا في كل وقت، بصرف النظر عن نشوب الحروب أو الحياة في الأحراش، الأسوأ من كل ذلك هو استمرار الرجال في الرغبة في مضاجعة النساء في الأحراش رغم الاقتتال، إذ لم يكن الرجال قادرين على انتظار نهاية الحرب لمضاجعة النساء، وكان امتناع النساء عن مضاجعة الرجال، لو أنه قد حدث، يعطي الرجال المبرّر الكافي لمضاجعة الحيوانات».

هنا جاءت النادلة بأطباق طعامنا، وفي نفس اللحظة سمعت صوت أمعائي وهي ترحّب بالطعام، ولم أعد أنصت إلى حديث هذا الشخص المجهول؛ لانشغالي بالتهام الطبق الملتهب بالبهارات الموضوع أمامي، وقد اقتربت برأسي إلى سنتيمترات قليلة من الطبق. نظر الغريب من جديد باتجاه العاهرتين، اللتين عادتا إلى المرور أمامنا في الطريق إلى الباب.

قال: «إنهما جديدتان في المهنة، فهذا واضح تمامًا للعيان، إن أفضلهما ذات البشرة الأقلّ قتامة، ألا توافقني الرأي؟ انظر إليها كيف تمشي كأنها سمكة مياه عذبة».

ولأنني لم أستجب له، ولم أردّ عليه، اتخذ صوته لكنةً جديدةً تصل إلى حدّ التبجّح.

قال: «كنتُ إذَنْ من بين اللاجئين، وقد ظلّت عذاباتنا تتزايد يومًا بعد يوم من الحياة في الغابات، وذات يوم سمعنا أصوات طائرات عمودية (هيليكوبتر) قادمة من السماء، من فوق قمم الأشجار، وتناقلنا بين أفواهنا التساؤل: هل هي طائرات الإغاثة القادمة من المجتمع الدولي لتخرجنا من الورطة التي وجدنا أنفسنا فيها؟ أم هي طائرات الشركة الفرنسية التي تنقّب عن البترول؟ كانت أصوات الطائرات هي التي أخرجتنا من جحورنا التي كنا نختبئ فيها كالفئران، وقد بدأنا في إطلاق صيحات الفرح وفي الرقص والتصفيق بالأيدي، وفي تقبيل بعضنا ونحن نصيح (تعيش فرنسا).

إلا أن بعضنا أخطأ وصاح (تعيش أمريكا)، وقد يكون هذا بسبب أن الأمريكيين أصبحوا أكثر قدرة من الفرنسيين على إغاثة اللاجئين، ثم أليسوا هم الذين أنقذوا الفرنسيين من الاحتلال الألماني لفرنسا في يونيو 1944، في نهاية الحرب العالمية الثانية؟ إلا أن مسألة مَن هو منقذنا لم تكن تعنينا البتّة، فالمهم في الموضوع هو أن يتمكّن فعلًا من إنقاذنا. قلنا في أنفسنا أخيرًا سنتمكّن من ممارسة الحبّ مع نسائنا على أسرّة حقيقية، وستضع نساؤنا أطفالنا في أقسام الولادة في مستشفيات المدن، لا على ضفاف الأنهار كما كانت الحالة في الأحراش، لقد انتهت الحرب إذَنْ وسيسود السلام.

سيّدي الكاتب، أقسم لك لقد توقّفت الطائرات العمودية عن الهبوط، وبقيت عالقة في الجوّ» فوق رؤوسنا ببضعة أمتار. اعتقدنا أنهم سيلقون علينا الآن كما يفعلون غالبًا الأكياس الممتلئة بالمواد الغذائية، مثل الأرز والسكّر واللبن والخبز واللحم، لذلك تدافعنا نحوهم واختلّ نظامنا، في محاولة أن يكون كلّ منا أول مَن يقفز فوق هذه الأكياس، وقد تنازعنا الأولويّة بضربات الكوع، وقال العواجيز من بيننا إنه ينبغي ترك الأولوية للنساء وللأطفال. هل تعرف ماذا حدث لحظتها؟

لقد هبطت الطائرات وخرج منها جنود أنجوليّون، ليسوا فرنسيين أو أمريكيين، وفي اللحظة التالية وجّهوا إلينا أسلحتهم النارية، وبدأوا في إطلاق النار، حتى العصافير ابتعدت مفزوعة؛ لأنها لم تعد تفهم أي شيء في أي شيء.

انطلقت زخّات من رصاص الأسلحة النارية، وتردّدت أصداؤها دون توقّف، فاندفعنا هاربين،» لكننا كنا نسقط على الأرض بعضنا فوق بعض، ونقوم لنستأنف الجري نحو النهر، حيث الأمل في أن نلقي أجسادنا في مياهه ونغوص فيها ونختفي، أو أن نتمرّغ في طين المستنقعات فلا يعود الجنود يميّزون أجسادنا. ألقى علينا هؤلاء الجنود القنابل المسيلة للدموع، حتى أننا لم نعد نرى أي شيء حولنا، فيسهل بذلك عليهم اصطيادنا».

عندما قال الغريب «بدأ العواجيز يصرخون (اختبئوا إنها خدعة إنه فخّ)»، صاح بصوت مرتفع حتى إن آذان أغلب روّاد المطعم كانت قد أنصتت إلينا، واستدارت رؤوس أغلب الزبائن نحونا مدهوشين بغرض استطلاع الأمر. إلا أن هذا الإزعاج للآخرين لم يمنع الغريب من استئناف الحكي.

قال: «كنت سعيد الحظّ في ذلك اليوم؛ لأنني جريت بسرعة كبيرة، ولم أستدر لأنظر خلفي، ثم دخلت للاختباء في كهف صخري، بقيت فيه بضعة أيام، كما لو كنت إنسان ما قبل التاريخ. عرفت أن البلاد الجنوبية قد أصبحت واقعة تحت سيطرة رئيس الشماليين، بفضل تحالفه مع القوّات الأنجولية. وهكذا انتهت الحرب، فطلبوا منا الخروج من كهوفنا، بدعوى أن الوقت قد حان لإعلان السلام، وقيام الوحدة بين الشمال والجنوب».

قال: «عندما عدت إلى منزلي كانت لحيتي طويلة حتى أنها كانت تمسح الأرض، وكانت خطوتي تشبه خطوة الميّت الحيّ (الزومبي)، الذي لم يعد يتذكّر من أيّ قبر خرج، فقدت الإحساس بالاتجاهات؛ لأن الأحراش ليست بها شوارع، والأماكن التي كنا ننام فيها، هي تلك التي كان يصعب على الحيوانات المفترسة، أو القبائل من آكلي لحوم الشر، أن تصل إلينا فيها».

تأكّدت أن الزبائن الجالسين إلى المائدة خلفنا يتابعون بانتباه كل ما يقوله مضيفي، وقد بدت على وجوههم علامات الصدمة، وهكذا قرّروا مغادرة المطعم، إلا أن مضيفي توقّف عن الكلام؛ خوفًا من أن يكونوا من غادروا للتوّ هم من المتواطئين مع الشماليين، وسيقومون بإبلاغ رجال الشرطة. لكنهم قبل مغادرتهم المكان، استدار أحدهم نحو مضيفي وهو يوجّه إليه إصبعه. قال: «أيها الكاذب، لقد وجدت من جديد فريسةً تبخّ في أذنيها سمومك».

ثم موجّها حديثه إليَّ، قال: «تأكّد يا سيّدي من أن هذا الجنوبي المغرم بالكذب، قبل أن يغادر المطعم قد دفع ثمن طعامه، حتى لا تتورّط في دفعه أنت، إذ إنه مثل الثعلب في أقصوصة (الغراب والثعلب) للشاعر الفرنسي لافونتان، يعيش على حساب مَن ينصتون إليه، وقد سبق له فعل نفس هذا الشيء مع آخرين، وكان يخطّط لأن يفعله معك، لو لم أكن قد نصحتك. إنه كاذب يستغلّ معاناة الذين لجأوا فعلًا إلى العيش في الأحراش، كما يستغلّ المصداقية التي يكتسبها أمامك بصفتك شخص غريب عن المكان لا تعرفه، أقولها لك إنه لم يعش تلك الحرب الأهلية إلا في دماغه المصاب بالمرض العقلي».

كنت أتوقّع ردّ فعل عنيف من الغريب، لكنه ظلّ صامتًا، وقد خفض رأسه، وارتكز بذقنه على صدره. بينما كانت المجموعة تمرّ أمامنا في طريقها إلى الخروج من المطعم.

قال: «هل رأيت كيف يخاطب الشماليون الجنوبيين؟ هو يعتقد أنني كاذب، ويظنّ أنني لم أعش الحرب، وهو يعتقد أنني نصّاب، لا أستطيع أن أدفع حساب مأكولاتي. سأدفع أمامك الآن حسابي وحسابك، حتى تعرف كم هم مغرضون هؤلاء الشماليون، وكيف أنهم سيقودون هذه البلاد إلى المزيد من الارتباك والتمزّق والتشويش. هم يعتقدون أنهم طالما ظلّوا في مراكز السلطة، فعلى الجنوبيين أن يصمتوا، وأنا لن أصمت أبدًا، بل سأستمر في قول الحقيقة حتى يعرفها العالم أجمع. لقد أفنوا قبائل (لاري) التي كنت أنتمي إليها عرقيًّا. إنه النوع من الجرائم التي يطلقون الآن عليها اسم (التطهير العرقي)».

عندما لم أعلّق بكلمة واحدة سألني: «دعني أسألك ماذا جئت تفعل في هذه البلاد؟».

قلت: «عقد بعض اللقاءات الأدبية، ومشاهدة بعض أفراد أسرتي، والكتابة عنهم».

قال: «انتظر قبل أن تحدّثني عن كتاباتك، كان ينبغي لي أن أبدأ أولًا بسؤالك هل أنت شمالي أم جنوبي؟».

قلت: «وما أهمية هذا السؤال؟».

قال: «إذَنْ سأسألك هذا السؤال بصياغة أخرى: هل قام الرئيس ساسو نجيسو بدفع ثمن تذكرة طائرتك وثمن إقامتك في الفندق؟».

قلت: «لا بل دفعتها فرنسا».

قال: «إذَنْ هذا هو نفس الشيء فالنتيجة واحدة، فما قد لا تعرفه أنت هو أن ساسو يعطي نقودًا لفرنسا، فتشتري بها أشخاصًا مثلك، وأنا الآن متأكّد من أنك أحد المتواطئين مع ساسو».

قلت: «أنا معجب بشدّة ثقتك في نفسك، لكنك بطريقة تفكيرك تلك، تصل إلى اختزالات خطيرة، تستبعد بها نصف الحقائق».

قال: «ما تلك الاختزالات الخطيرة؟ فهل أنت حاربت مثلي حتى تعرف حقيقة الحرب؟ أين كنت أنت بينما كنا نموت في الأحراش من الجوع؟ إن مَن قتلنا في الأحراش هو الرئيس ساسو بالتعاون مع القوات الفرنسية والأنجولية».

كنت أستعدّ لأقوم وأغادر المكان، فغيّر من أسلوب كلامه وتخطّى الضغائن. قال: «أعتذر عزيزي الكاتب، فأنا أفقد أعصابي بسهولة، وكانت الحرب هي السبب في هذه العصبية. أما الآن فقد أصبح كلّ شيء هادئًا، وعدنا إلى الحياة الطبيعية، في الحانات وشواطئ البحار، ثم نسينا بالتدريج ما وقع لنا من أحداث مؤسفة».

ثم كانت لدينا انتخابات رئاسيّة جديدة، تمكننا فيها من التخلُّص من الرئيس الشمالي، وكنا» نقفز فرحًا في الشوارع ونحن نعلم أن الرئيس المخلوع قد طرد من البلاد، وأنه ذهب إلى أوروبا ليعيش فيها لاجئًا سياسيًّا، وأن لدينا الآن رئيسًا جنوبيًّا، لا يتعاون مع الفرنسيين لأنهم كانوا يساندون خصمه في الانتخابات، لذلك أعطى إلى الشركات الأمريكية صلاحيّات استغلال بترول البلاد، وقد بدأ الأمريكيون يتغلغلون في حياتنا، ويعلّموننا اللغة الانجليزية، ولكنهم لم يفلحوا في تخليصنا من نطق الإنجليزية بلكنة فرنسية».

كنا لا نزال في المطعم عندما شاهدت خمسة رجال في أزياء عسكرية، يدخلون المطعم ويتّخذون أماكنهم في عمقه، نظر إليهم الغريب بضع ثوانٍ ثم خفّض صوته، فهذه المرّة يمكن أن يذهب بنا كلامه هذا إلى السجن أنا وهو. استأنف ملء رأسي بحكاياته عن الحرب الأهلية، وهو يسبّ ويلعن الشماليين، ويعلن صراحة عن كراهيته لهم ولكن بصوت منخفض. لم يكن يترك لي أي فراغ، إذ كان حديثه متصلًا دون انقطاع، بحيث لم أكن أستطيع أن أعلّق بين الحين والآخر ولو بكلمة واحدة.

هو: «ألن تحتسي المزيد من الجعة؟».

أنا: «لا. ففيما شربته الكفاية».

نظر إلى ساعة يده وقال: «لقد مرّ الوقت سريعًا، وأنا أعتذر لك عن ضرورة مغادرتي هذا المطعم على الفور، إذ إن لدي قدَّاسا كنسيًّا في جمعية (نبع الخلاص)، في حيّ (فوكس)، هل تريد أن تحضره معي؟ هل تعرف أنني أنتهز مثل تلك المناسبات الكنسية للعثور على فتيات، إذ يمكنك أن تدّعي أنك غارق في الصلاة، بينما في الحقيقة أنت تبحث عن فريسة مناسبة، دون أن يلاحظ أحد دوافعك».

أنا: «آسف لا أستطيع الذهاب معك، فعليَّ أن أعود إلى منزلي لأستريح، فلديَّ في الغد زيارة قد تشغل يومي كلّه، وهي زيارة مدرستي الثانوية التي أعود إليها لأول مرّة بعد كل تلك السنوات».

طلب من النادلة قائمة حساب المأكولات والمشروبات التي استهلكناها معًا، فأسرعت بها إليه.

بدأ يبحث عن حافظة نقوده في الجيوب الداخلية لمعطفه، ثم انتقل بحثه إلى جيوب سرواله.

قال: «اللعنة، أنا لا أعثر على حافظة نقودي، لقد سرقني الشماليون، سرقوا حافظة نقودي».

قلت: «لكنهم لم يقتربوا منّا».

قال: «أنا أعرف هؤلاء الشماليين، إنهم قادرون على سرقتك عن بعد، دون الاقتراب منك، أنصتْ إليَّ يا صديقي هل يمكنك أن تدفع عنّا حساب اليوم، وسأقوم أنا بدفع حساب الغد لكلينا».

جاءت بعض عبارات السخرية على لسان النادلة وصاحب المطعم الواقفين بالقرب من نضد المشروبات. أخرجت الأوراق المالية من حافظة نقودي، ووضعتها على المائدة. خرجنا من المطعم بينما كان الغريب يتابعني عن قرب ويهمس في أذني. قال: «يمكننا أن نلتقي هنا غدًا ساعة الغذاء، ستجدني في نفس المكان، ثم سأحجز العاهرتين اللتين رأيناهما للتوّ لكلينا، وسأترك لك أجملهما، تلك التي تتمتّع ببشرة أقل قتامة، وأنا سأضحّي بنفسي وأقبل الأخرى قاتمة السواد».

(21)

دائرة الشعراء المختفين

في هذا الصباح أجد نفسي أمام مدرستي الثانوية التي قضيت فيها ثلاث سنوات من 1981 إلى 1984. في كرّاسة مواعيد زياراتي ولقاءاتي، التي كان عليَّ القيام بها خلال مدّة بقائي في هذه المدينة، كانت زيارة مدرستي الثانوية هي الزيارة الثالثة المكتوبة باللون الأحمر، بعد زيارتين أخريين لمنزل والدتي ولقاعة (سينما ركس). كانت هذه الزيارات الثلاث في نظري أهم من غيرها من الزيارات، ولا شكّ أنه كانت هناك خيوط داخل عقلي وقلبي تربط بين هذه الأماكن الثلاثة. ما حدث هو أني ذهبت مرّات عديدة إلى منزل أمي؛ من أجل البحث عن جذوري، وعن شخصيّات من عائلتي. ثم إنني حرصت كذلك على مشاهدة (سينما ركس) عدّة مرّات؛ من أجل البحث عن تلك الأوهام التي سيطرت على عقول وقلوب شبيبة تلك الفترة، داخل تلك القاعة التي لم يتوقّف صخب سحرها عن التردّد في جنبات عقلي وقلبي.

عبرت عتبة دار العلم، كما لو كنت أعبر عتبة أحد دور العبادة المقدّسة، وكلّي أمل في أن أقدر على استعادة ذلك الشعور، حين كانت روحي تبتعد عن كل هذه المناطق المحلية المحيطة، لتذهب في مغامرات غير محسوبة العواقب، إلى عوالم بعيدة غير معلومة، من أجل البحث عن المعارف الكونية والتقاطها، من خلال حصص تاريخ العالم، وجغرافية الشعوب شديدة البعد عنّا، ومن خلال الرموز الغامضة الملتبسة لعلوم الرياضيّات، وعلوم الطبيعة والكيمياء. ثم إلى عوالم الخيال، واكتشاف القدرة على العيش في الخيال، مع أبطال وأحداث الأعمال الأدبية الروائية.

تقدّمت خطواتي إلى قلب المدرسة، وقلبي مثقّل بشيء من عدم الفهم، لا يمكن علاجه أو حتى التخفيف منه، كأنني أخشى خوفًا مبهمًا غير مبرّر لا أعرف ما هو، كأن شعوري بالخوف لا عزاء له، والغريب في الموضوع هو أن هذا هو نفس الشعور الذي عانيت منه، عندما أدرت ظهري مغادرًا هذا المبنى لآخر مرّة في سن الثامنة عشرة، إذ لا يزال هذا الخوف غير المبرّر يقبض روحي.

أتذكّر أنني عندما انتقلت من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية، كنت لا أزال مثل غيري من التلاميذ الأطفال، أرتدي السراويل القصيرة، وأضع قدميّ في صنادل بلاستيكية. أما عندما خرجت من هذا المبنى لآخر مرّة، فكنت أرتدي ملابس الطلبة الشباب، من سراويل طويلة باللون

البنّي الذي كان مستعملًا بكثرة في الأزياء المدرسية، بالإضافة إلى الأحذية الجلدية المغلقة، التي كانت أمي تطليها لي كل يوم بالشمع اللامع، اللازم لإطالة عمر الجلد، حتى يكفيني الحذاء لمدّة عامين دراسيين بدلًا من عام واحد.

كان شعوري في يومي الأول في هذه المدرسة مثل جندي مظلّات هبط على هذا المكان من السماء، أو كأنني إوزّة برّية هبطت هي الأخرى من السماء، لتجد نفسها وسط طيور لم تألفها من قبل، طيور من الجوارح ذوات الجلود الخشنة. أثناء الفسحات المدرسية، كنت أركن ظهري إلى جذع شجرة جوز الهند، كانت ملجئي الذي أشعر فيه بالأمان، أنتظر عندها بفروغ صبر جرس نهاية الفسحة، أخشى أن يهاجمني أحد فلا أستطيع أن أدافع عن نفسي.

أتذكّر أنني خلال الأسابيع الأولى من عامي الدراسي الأول، اتخذت مقعدي في الصفّ الأخير الملاصق لجدار نهاية الفصل، بعيدًا عن مقدّمة الفصل حيث يجلس التلاميذ المجتهدون، إذ كان لديَّ اقتناع جازم، بأن مستواي الدراسي أقلّ بكثير من مستوى غيري من التلاميذ. استمرّ ذلك الإحساس حتى اليوم الذي دعاني فيه مدرّس الكيمياء إلى الجلوس في الصفّ الأول، للاستعانة بي في إجراء بعض التجارب المعملية، فتغيّرت فكرتي عن نفسي.

عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وكنت من أكبر التلاميذ حجمًا في الفصل، بدأت أنصت إلى صوت ينطلق من داخلي، يكرّر عليَّ طول الوقت، أن الحلّ لأزمات مراهقتي في القدرة على الانفصال المبكّر عن عائلتي، ومغادرة البلاد دون رجعة. كانت هذه هي فكرتي عن الخلاص، في الوقت الذي كان فيه أغلب التلاميذ لا يزالون يلتصقون بوالديهم.

كان موقع هذه المدرسة بالقرب من ساحل المحيط الأطلنطي من العوامل المساعدة على التفكير في التحليق في السماء، لوجود كل هذا الفضاء الشاسع أمامها، سواء في مياه المحيط، أو في هذه السماء الزرقاء المفتوحة، بالإضافة إلى حركة الرياح الشديدة بين أغصان أشجار جوز الهند في فناء المدرسة. كذلك كان هناك منظر طيور البحر البيضاء كبيرة الحجم، وهي تتجنّب موجات البحر العالية، التي يمكنها ابتلاع هذه الطيور.

من العناصر الأخرى في التحفيز على السفر، هناك عنصر لا يقلّ أهمية عمّا سبق ذكره، وهو الخاص بمشاهدة البحّارة البولنديين الأقوياء، الذين يرسم كل منهم وشمًا كبيرًا على ذراعه أو على صدره، وهم يعملون على المراكب التجارية القادمة من العالم أجمع، وكذلك مشاهدة صائدي

الأسماك القادمين من دولة (بنين)، بأجسامهم التي تبدو فيها بوضوح عضلاتهم البارزة، التي يستعملونها في جذب الشباك الثقيلة المليئة بكمّيات هائلة من الأسماك.

كنت قد اعتدت على الذهاب إلى مراسي مراكب صيد السمك القريبة؛ لأتأمّل أشرعتها الأقرب إلى الاهتراء، وأتساءل إلى متى يمكنها الصمود أمام شدّة الرياح البحرية، وهل يمكن لأحد هذه المراكب أن يكون وسيلة خلاصي. كنت إذَنْ أحتفظ في أعماقي بحلم السفر، لا أعرف إلى أين ولا كيف ولا متى. أردت فقط أن أفعل شيئًا يجعلني منفردًا وسط الجموع.

تمنّيت لو كنت غير مرئي وسط زملائي، رغم أنني كنت أكثرهم طولًا وأكبرهم حجمًا، لذلك كان من السهل لبعض المدرّسين الاعتقاد أنني قد رسبت سنوات متتالية، رغم أن الحقيقة هي أنني كنت من أصغر التلاميذ سنًّا. كان حجمي الكبير ورغبتي في العزلة السبب في سخرية بعض زملائي مني. وحتى أنفرد بنفسي أطول مدّة ممكنة، اعتدت على الخروج من المنزل صباحًا مبكّرا ساعة عن موعد بداية الحصص؛ لأتسكّع حافي القدمين على الشاطئ الرملي أمام المدرسة ولو لبضع دقائق.

أثناء المشي على الشاطئ ذهابًا كنت أترك آثار أقدام واضحة على الرمال في اتجاه الذهاب، ثم كنت أتعمّد في اتجاه الإياب أن أخطو فوق نفس آثار الأقدام الذاهبة، حتى تبدو أقدام الذهاب والإياب كما لو كانت لحيوان غريب، لديه عشر أصابع في كل قدم، خمس أصابع منها في نهاية القدم من جهة، وخمس أصابع أخرى في نهاية القدم من الجهة الأخرى، وهو ما كان يتسبّب في حيرة شديدة، بل في حالة من الخوف، للتلاميذ القادمين بعدي على طريق شاطئ المحيط الأطلنطي، إذ يفزعون متسائلين ما هذا الكائن الغريب غير المعروف، الذي قد يكون وحشًا بحريًّا، يجوس في الأنحاء بقدمين لديه فيهما أصابع أمامية وأخرى خلفية، وكنت أكتم ضحكاتي المجنونة بصعوبة.

فوق قمّة أعلى مباني المدرسة، استرعى انتباهي وجود لافتة كبيرة تحمل اسم (ثانوية فيكتور أوجانيور). أصابتني الدهشة لأني لا أتذكر على الإطلاق هذا الاسم. وفي محاولة مني لفكّ تشابك الذكريات المتداخلة في ذهني، بعد مرور كل هذه السنوات، خاصة وأنا أشعر بارتباك عاطفي بسبب وجودي هنا، وصلت إلى اليقين أن هذه الثانوية لم تكن تحمل هذا الاسم عندما كنت تلميذًا فيها. لا أعرف متى أُطلق على هذه الثانوية هذا الاسم، لكنه ليس من الغريب أن تكون أقدم ثانوية في هذه المدينة تحمل اسم هذا الشخص.

كان فيكتور أوجانيور قد شغل أولًا منصب عمدة مدينة (ليون) الفرنسية، وهي ثالث أكبر مدينة فرنسية من حيث تعداد السكّان بعد (باريس) و(مارسيليا)، ثم شغل منصب الحاكم العام لجزيرة (مدغشقر)، تحت الاحتلال الفرنسي، ثم عاد إلى (فرنسا) حيث تولّى مناصب وزارية في حكومات الجمهورية الثالثة، قبل أن يعود من جديد إلى أفريقيا حيث تمّ تعيينه سنة 1919 حاكمًا عامًّا لمنطقة أفريقيا الفرنسية الاستوائية. لكني تساءلت هل يتوقّف الكثيرون أمام هذا الاسم؟ ويطرحون على أنفسهم سؤالًا عن أهم إنجازاته؟

يعود بدء العمل في إنشاء هذا المبنى إلى سنة 1950، وافتتاح هذه المدرسة إلى سنة 1954، ونحن الآن في سنة 2012، لذلك فهذا المبنى بالنسبة لغالبية سكّان مدينة (الرأس الأسود) كان موجودًا هنا من قبل أن يولدوا، وهذا هو الحال كذلك بالنسبة لاسم فيكتور أوجانيور الذي كان موجودًا هنا قبل مولد أغلب سكّان المدينة. ما السبب الحقيقي في إخراج هذا الرجل من مدفنه وإعادته إلى الحياة؟ رغم كونه دون أدنى شكّ استعماريًّا مكروهًا في بلادي، ورجلًا أصبح الآن شبه مجهول في بلاده؟ خاصة أن فرنسا الحالية تحاول جاهدة نسيان ماضيها الاستعماري.

صحيح أن مدينة ليون قد أحيت ذكراه بإطلاق اسمه على أحد الشرايين الرئيسة داخل المدينة في مواجهة مبنى مجلس المدينة، لكن ليس هناك ما يبرّر على الإطلاق أن يعتبر هذا الشخص الرمز الحيّ لأحد أكبر الاستعماري مساويًا في القيمة لشخص آخر مثل جول فيري *Jules Ferry* الإنجازات في تاريخ التعليم في (فرنسا)، وهو الإنجاز الخاص بأن تكون المدارس العامة في (فرنسا) مدنية علمانية، لا مكان فيها لأي تعاليم دينية، وأن تكون الدراسة فيها إجبارية لكل الأطفال حتى سن الخامسة عشرة. إذَنْ فهذا الرجل أوجانيور اعتبروه رفيع المقام لسبب مجهول؛ لذلك سحبوه من (المطهر) الذي كان ينتظر فيه خلو مكان إمّا في الجحيم وإمَّا في النعيم، وأعادوا تأهيله.

هذا يحدث هنا في هذه المدرسة، كما يحدث في غالب أنحاء البلاد؛ لأن السلطات السياسية الوطنية الحالية مقتنعة، بضرورة إعادة النظر في كل الموضوعات المتعلّقة بفترة ما قبل الحصول على الاستقلال في 15 أغسطس 1960، وبالتالي بكل ما له صلة بذاكرتنا الوطنية وبكرامة أمّتنا. والمقصود هنا بإعادة النظر هو في الحقيقة السبب في إطلاق اسم هذا المستعمر الأجنبي على هذه المؤسّسة التعليمية، كأن الفترة الاستعمارية لم تكن على حساب كرامة أمّتنا.

وهكذا انضم أوجانيور إلى قائمة أسماء الشخصيّات الفرنسية الناجية من عمليات التصفية، الذين يمكن أن تطلق أسماؤهم على الشوارع أو المباني العامة، ويأتي على رأسهم الجنرال ديجول.

وهناك مثلًا كذلك اسم (مارشان) الذي أُطلق على ملعب لكرة القدم، والاسم لضابط سنغالي في كتيبة مشاة فرنسية، من رماة النيران، كان على رأس حملة عسكرية، أطلق عليها اسم (حملة النيل/ الكونغو)، كان الغرض منها أن تتصدّى لتقدّم البريطانيين، على محور النيل من مصر إلى السودان إلى الكونغو. كان على هذه الحملة الفرنسية السنغالية الزحف شمالًا وصولًا إلى جنوب مصر، وإقامة محمية فرنسية هناك، إلا أن فشل هذه الحملة كان بسبب التفوّق العسكري البريطاني.

كان اسم جون ماكايا هو أحد الأسماء التي لا أزالُ أتذكّرها، وهو مراقب الفصول المسؤول عن الرواق حيث يقع فصلنا. عرفت من أحد المراقبين الحاليين، ذلك الذي اصطحبني في جولة داخل المدرسة، أنه قد انتقل إلى رحمة الله. تولّد لديَّ انطباع كأن ممرّات المدرسة هي جزء من متاهة لا يمكن الخروج منها. دخلنا في المكتب الصغير التابع للمراقب، ويقع في الرواق الرئيس المتصل بالفناء. حدّثني عن المراقب السابق الذي لقّبه ب(المأسوف على شبابه) باحترام عميق. خلف مكتبه هناك قصاصة ورق منزوعة من جريدة، معلّقة على الحائط، بها مادة صحفية بتوقيع (ببان بولو).

«قال: «هل تتذكر ببان بولو؟».

تظاهرت بالتفكير فأدرك حيرتي.

قال: «يجب عليك أن تتذكّره فهو يحدّثني كثيرًا عنك؛ لأنكما كنتما معًا في نفس الفصل خلال كل سنوات الدراسة في المبنى (ألف)، المخصّص لتلاميذ القسم الأدبي، وقد حصلتما معًا في نفس العام، على شهادة إتمام الدراسة الثانوية في قسم (الأدب والفلسفة)، وقد تأكدت من ذلك بنفسي، بمراجعة سجلّات المدرسة، عندما أعلموني بنبأ رغبتك في زيارة المدرسة. في الحقيقة لم يكن لـببان بولو نفس الحظّ الذي كان لك، فهو لم يذهب إلى فرنسا، لكنه يقوم حاليًا بالتدريس هنا، إذ كان ينبغي للبعض البقاء في البلاد، لاستلام الشعلة من الجيل السابق، وتسليمها إلى الجيل اللاحق. خسارة أنه اليوم في إجازة، وإلا لكان قد سعد فعلًا بلقائك».

اقتربت من الحائط حيث يعلّق ذلك المقال الصحفي الذي كان في تقريظ شخص يدعى ديباندا، ولم أقرأ إلا الفقرة الأخيرة لأنه كان من نوع المقالات التي لا تذكر إلا محاسن الموتى. وكان هذا هو ما قرأته:

«كانت سنة 1994 هي سنة الاحتفال بالذكرى الأربعين لافتتاح ثانوية أوجانيور، لكن الحدث الأهم في ذلك العام كان الاحتفال بتقاعد ديباندا، وهو نفس الشخص الذي تعرفه السجلّات باسم جون ماكايا، وهو المراقب العام السابق، الذي كان مضرب المثل في الحيوية والنشاط، وقد عمل في هذه المؤسّسة من 1960 إلى 1994، قدّم خلالها خدمات جليلة، إلى هذه المدرسة، والى دولة الكونغو بأكملها. وأغلب دفعات تلاميذ المدرسة لا يمكنهم نسيانه، ومع ذلك فهو لم يحظَ خلال سنوات تقاعده الأربع، حتى وفاته سنة 1998، بالاهتمام الذي كان جديرًا به، حتى تدارك المسؤولون هذا الخطأ، وقرّروا إطلاق اسمه على المبنى المخصّص لفصول القسم الأدبي. هذا يذكّرنا بما كتبه فيكتور هيجو (أنصَتَ في هدوء مقبرته إلى العالم الذي يتحدّث عنه)».

هناك بعض اللقطات التي تتوارد الآن إلى خاطري عنه، متناثرة بين الأماكن والأزمنة، لكنها كلها تظهره أمامي رجلًا شابًّا لا تظهر عليه سنوات عمره، فهو سنة 1984 كان في الخمسين من العمر. كان مخلصًا لواجبات وظيفته، ويظهر في بعض الأحيان بعصا في يده، يخيفنا بها ولا يتردّد في استعمالها مع التلاميذ الذين لا يتعاملون معه بالاحترام الكافي. يظهر أحيانًا أمام البوّابة الرئيسة للمدرسة، وهو يفحص الزيّ المدرسي ليتأكّد من سلامته ونظافته. كانت هناك بعض العلامات الدالة على سوء التربية لدى بعض التلاميذ، مثل رفع ياقات القمصان كعلامة على العجرفة، ومثل ثني طيّات الأكمام كأن التلميذ يريدنا أن نرى عضلات ذراعيه.

في بداية كل عام مدرسي جديد كان ديباندا يلقي أمام التلاميذ خطبة لمدّة ساعة عن مزايا جلوسهم إلى مقاعد الدراسة في هذه المدرسة، ثم يبدأ في ذكر قائمة طويلة من أسماء كل شخصيات البلاد العظيمة، التي جلست هنا في مقاعد الدراسة، من وزراء ولواءات في القوّات المسلّحة ومديري شركات كبرى في البلاد، دون أن ينسى ذكر أول امرأة كونغولية في البلاد عملت في مهنة التدريس سنة 1963، وهي إيميه مامبو.

كان يقول: «لقد ساعدت هذه المرأة في بداية عملها، بسبب أن الكثير من التلاميذ الأشقياء كانوا يسيئون إليه؛ لأنهم اعتادوا في منازلهم على الإساءة إلى النساء».

كان يقول: «هناك دائمًا مَن يدَّعي أن السنوات الأولى لهذه المدرسة، بين 1954 و1960، تحت الاحتلال الفرنسي، كانت أفضل سنوات المدرسة. في الحقيقة أنا أصبحت حذرًا من تلك المبالغات، التي تأتي من أناسٍ لا يزالون يشعرون بأنهم يدينون بالفضل للمستعمر، ويندمون على ضياع الزمن الذي كان هذا البلد يقع فيه تحت حكم المستعمر، مقابل أن يوسم الحاضر بعدم القدرة على الإنجاز، فإذا سقط الطلاء في فصل مدرسي، ادّعوا أن هذا هو بسبب عدم كفاءة المدير الأسود، ولو أن المدير كان أبيض البشرة لما سقط الطلاء».

كان يقول: «هناك من بين هؤلاء المتشكّكين من يقول إن شهادة إتمام الثانوية العامة في الوقت الحالي لا تزيد قيمتها العلمية عن قيمة شهادة الابتدائية القديمة، وأنا أقول لهم إنكم تتخذون موقفًا استسلاميًّا خانعًا، يدفعكم إلى الاعتقاد في أن طابع الإنسان الزنجي هو الخمول والكسل، وعدم الاعتياد على النظام، وعدم إدراك ترتيب أولويّات الأمور.

أريد فقط أن أذكّر أولئك الذين يحنّون إلى الماضي الاستعماري، كيف أن فيكتور أوجانيور» الذي أطلقتم اسمه على المدرسة، بعد أن كان قد وصل إلى قمّة السلطة الفرنسية، في إدارة المستعمرات الاستوائية، هو نفسه الذي كان يستغلّ العمّال السود للعمل بالسخرة، في شقّ أول خطّ سكك حديدية بين وسط أفريقيا وساحل المحيط الأطلنطي، هذا المشروع المشؤوم الذي تسبّب في وفاة ما لا يقل عن عشرين ألفًا من مواطنينا الشرفاء، ناهيك عن الآلاف من المشوّهين والعجزة والمقعدين والمشلولين.

إن أوجانيور هو المسؤول عن بعض الأخطاء المعمارية التي ارتكبت في عصره، كأن توكل» عملية بناء محطّة قطارات السكك الحديدية في (الرأس الأسود)، إلى المهندس الذي صمّم ونفّذ محطّة قطارات (دوفيل) في شمال فرنسا، فجاءت محطتنا نسخة منها رغم الاختلافات الثقافية والمناخية. كان أوجانيور هو أحد مقاولي هذا الاستعباد العصري، الذي بمقتضاه كان على العبد الزنجي أن يتبع سيّده الأبيض، وعلى مَن لا يرغب في أن يصبح عبدًا، إمّا أن يرحل إلى خارج البلاد، وإما أن يهرب إلى داخل الأحراش.

إلا أنه من المحال بقاء الحال على ما هو عليه، لذلك تغيّر النظام السياسي والاقتصادي في» البلاد، من الرأسمالية والتبعية لأوروبا، إلى الاشتراكية والماركسية اللينينية، وقد بدأت قواعد النظام القديم في الاختلال سنة 1968، بوصول الرئيس ماريان نجوابي إلى الحكم، وكان من بين ما رفع من شعارات في زمنه، شعار (تبجيل استقلال الأدمغة)، ومن بين ما تمّ تحقيقه التضامن

مع الأنظمة الشيوعية في العالم أجمع، إيمانًا بضرورة أن يتوحّد عمّال العالم من أجل تحقيق الانتصار على النظم الرأسمالية، لذلك كان على الشعوب الأفريقية اجتثاث الاستعمار الذهني من أدمغتهم».

كانت مدرستي الابتدائية تحمل اسم (مدرسة العظماء الثلاثة)، تخليدًا لذكرى الأيام الثلاثة 13 و14 و15 أغسطس من سنة 1963، التي قام خلالها النقابيّون الكونغوليون بدفع فولبرت يولو إلى الاستقالة، وهو قسّ كاثوليكي مارس تعدّد الزوجات، وكان أول كونغولي بعد الاستقلال يصل إلى منصب رئيس الجمهورية، وحاول فرض نظام الحزب الواحد. أما عندما كنت في الصف الأول الثانوي سنة 1981 كانت المدرسة تحمل اسم (ثانوية كارل ماركس)، إذ التزم الرئيس (نجوابي) وخلفاؤه بسياسة أطلقوا عليها اسم (الاشتراكية العلمية).

طلبنا من الروس مساعدتنا في تدريس العلوم الحديثة من رياضيّات وكيمياء وفيزياء، ولم نعد نقسم إلا بأسماء لينين وإنجلز وماركس، في حين أن أسماء الفلاسفة الأقدم من أمثال أفلاطون وكانط وهيجيل لم تعد تعني شيئًا؛ لأنهم مثاليون فوق المستطاع. اشتملت دراستنا للفلسفة السوفيتية على موضوعات (المادية التاريخية) و(الجدلية)، ودرسنا مانيفستو (وثيقة تأسيس) الحزب الشيوعي. كانت صور زعماء السوفييت معلّقة على كل جدران فصول المدرسة، وكذلك في الشوارع والميادين الرئيسة، بالإضافة طبعًا إلى صور الرئيس الكونغولي.

إن وجود صورة الرئيس الكونغولي إلى جوار صور كارل ماركس وفريديريك إنجلز، جعل أذهاننا الصغيرة تعتقد أن هؤلاء الثلاثة متساوون في القيمة وفي المستوى الفكري، حتى لو أننا لم نكن نجد لدى رئيسنا إلا الخطب الجوفاء، ولا نجد لديه نصوصًا فكرية عميقة، مثل تلك التي كنّا نجدها عند الاثنين الآخرين. لكننا كنا مضطرّين في فصولنا الدراسية إلى دراسة خطب رئيسنا الجوفاء، محاولين البحث فيها عن مبادئ الفلسفة الماركسية اللينينية، بدلًا من قراءة (رأس المال) لماركس، وكتيّبات إنجلز القيّمة المختصرة مثل كتيّب (لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية)، وهكذا أصبح التلاميذ يحيلون أقوال ماركس وإنجلز إلى رئيس جمهوريتنا، كأنه هو الأصل وكأنهما هما الفرع، وهكذا نشأ ما اصطلحنا على أن نطلق عليه بصوت منخفض اسم (فلسفة البؤس).

هذا النفوذ المسيطر لثقافة الاتحاد السوفييتي، كان له تأثير مباشر على مناهجنا الدراسية في زيادة الاهتمام بتدريس اللغة الروسية، وتراجع الاهتمام بتدريس اللغتين الإنجليزية والبرتغالية،

اللتين كنا نعتبر أنهما تخصّان الرأسمالية الأوروبية، وانتهى بنا الأمر إلى منع تدريسهما، ورغم أن موقف اللغة الفرنسية هو الآخر قريب الشبه من موقف هاتين اللغتين، إذ تأتينا هي الأخرى من العالم الرأسمالي الأوروبي، إلا أنها لم يمنع تدريسها في مدارسنا، إذ كنا نعتبرها ذات وضع خاص، أقرب إلى أن تكون إحدى اللغات القومية في الكونغو، بل في أفريقيا الاستوائية كلّها.

انتشر إذَنْ تدريس اللغة الروسية في الكونغو، بين السبعينيات والثمانينيات، خاصة وأن سلطات الاتحاد السوفييتي كانت تقدّم للطلبة الجامعيين منحًا دراسية بأعداد كبيرة في الجامعات السوفييتية، رغم تلك الحقيقة الواضحة وهي ندرة الطلاب الأفارقة القادرين على متابعة الدراسة الجامعية باللغة الروسية، ورغم الحقيقة الأخرى التي لا تقلّ وضوحًا وهي أن أغلب الجامعيين الكونغوليين كانوا يحلمون بمتابعة الدراسة في جامعات فرنسا، لا في جامعات روسيا؛ لأسباب ثقافية ومناخية متعدّدة. وهكذا أصبحت الشهادات الجامعية السوفييتية تقريبًا بلا قيمة، فهي لم تكن تصدر من الجامعات الروسية، بل من معهد في موسكو تابع للحزب الشيوعي، كان يقوم بتدريس الفكر الماركسي اللينيني.

هكذا كان تداعي الأفكار بخصوص زيارتي لمدرستي الثانوية، أما إذا عدنا إلى وقائع الزيارة، فقد أبديت للمراقب العام الذي كنت في صحبته، الرغبة في لقاء مدرّس الفلسفة الذي تعلّمت على يديه مبادِئَها، الذي لا شكّ في أنه كان صاحب تأثير كبير على تلاميذ القسم الأدبي، في المرحلة التي كنت فيها تلميذًا هنا. أنا أتذكّر أننا كنا نناديه بلقبه العائلي مسيو نيمبونو *Nimbounou*. كنا نراه خارج المدرسة واقفًا بالصدفة تحت مظلّة محطة سيّارات النقل العام في شارع الاستقلال، وقد علّق على كتفه حقيبة خفيفة بها أوراقه، وقد ألصق عليها صورة فوتوغرافية لتمثال (المفكّر) للمثّال الفرنسي أوجست رودان.

عندما كان التلاميذ يسألونه عنها كان يقول: «هذا التمثال لرودان هو نموذج التفكير الدؤوب، ووجود هذه الصورة دائمًا أمامي هو نوع من النظام الروحي قريب الشبه بالعقيدة الدينية، مثلما يضع المسيحيون صورة الصليب لمَن يؤمنون به».

عرفت من المراقب أن مدرّسي قد توقّف عن التدريس، وأنه أصبح الآن مفتّشا في المعاهد العليا، وأنه لحسن حظّي موجود صباح اليوم في اجتماع تدريس في نفس المبنى حيث كنّا. عبرنا الفناء واتجهنا نحو مبنى قاعة الاجتماعات. أمام الباب استدار نحوي المراقب وطلب مني

الانتظار، وفتح الباب دون طرق ودخل. بعد دقيقتين خرج ومعه رجل يرتدي سترة وربطة عنق محكمة.

بقيت لحظة دون أي ردّ فعل، بسبب ذكرى افتتاننا القديم بهذا الرجل، فعندما كان يظهر عند باب الفصل، كان صخبنا كتلاميذ صغار السنّ يتحوّل في لحظة واحدة إلى صمت تام. كان يدخل بخطوة متباطئة، ثم يضع حقيبة كتفه على المائدة، ثم يتجه نحو نافذة في الفصل ليجلس على كرسي إلى جوارها، ويفتح كتابًا على نفس الصفحة التي توقّفنا عندها في الحصّة السابقة، ويستأنف القراءة والشرح دون أن يصدر عن أي تلميذ أي صوت.

كانت دروسه كلّها تحضّنا على استقلال العقل، بعيدًا عن الأوامر والنواهي التي تنطلق من الحزب الحاكم، مستبعدًا إلى حين كارل ماركس ولينين، بادئًا بما ينبغي البدء به وهو الشكّ الديكارتي، ثم مرورًا على التوالي بمونتيسكيو وفولتير وإفلاطون وكانط ونيتشه، وهكذا بدت لنا الفلسفة مثل رحلة ملحمية شبيهة بسلسلة من الأحداث العجيبة، التي وقعت في ملحمة الأوديسّا للشاعر اليوناني هوميروس، ومزخرفة بنقوش أقاصيص مسلّية، مثل أقصوصة ديوجين الذي عاش حياته في برميل، وكيف أنه من شدّة تمرّده على مجتمعه عاش مثل كلب شوارع، يتبوّل ويتبرّز وينبح ويمارس الاستمناء أمام الناس، بهدف أن يقاوم الامتثال للأعراف الأخلاقية المقرّرة. وعندما تحدّث عن الإيبيقورية، وأشار إلى تقديسها للملذّات الحسّية، جلب الابتسامات الماكرة إلى شفاهنا، وهي نفس الابتسامة الماكرة التي لا يزال يحتفظ بها، وظهر بها أمامي الآن.

أثناء التلمذة كان يقف في منتصف الفصل ويقول بمنتهى الجدّية: «لقد فهم إبيقور كلّ شيء، فقد بدأ بتعريف اللذّة على أنها غياب كلّ معاناة من الألم، رغم أننا أدركنا بعده أن هناك من البشر غير الأسوياء مَن يحصل على لذّته وهو في قمّة المعاناة من الألم».

كان دائمًا يقول أشياء شبيهة بهذا، وكان هذا فقط لنفهم أنه كلّما بحثنا عن نظرية، ينبغي علينا أن نبحث عن النظرية المضادة لها، والوصول في نهاية الصراع بين النظريّتين إلى حلّ، عن طريق محاولة اصطناع توافق بينهما، وصياغة عبارات تتوافق مع الجدل الهيجلي.

يقال: «إن الوصول إلى حصيلة، يكون نتيجة الجمع بين النظرية المطروحة للبحث، وبين النظرية المناقضة لها، وتكون هذه الحصيلة غالبًا متّفقة مع قدر الحرّية التي يتمتّع بها عقلك، وتتمتع بها روحك».

كان يصيبنا ما يشبه التنويم المغناطيسي، بسبب فيض معارفه، أثناء شرحه لنظريّات الفلسفة، وبالتالي اتجهنا إلى تكوين جمعية فلسفية، بين تلاميذ السنة النهائية، لإعادة بحث ومناقشة أفكاره، واشتملت المناقشات ليس فقط على مسائل فلسفية، بل كذلك على مسائل تتعلّق بقصائد الشِّعر، بل إننا ذهبنا إلى أبعد من ذلك بمحاولة دراسة فلسفات الرأسمالية، التي لم تكن تُدرّس على الإطلاق في مناهج تلك الفترة الاشتراكية، وقد أصابتنا خيبة الأمل عندما درسنا فلسفة (المادية التاريخية)؛ لأنها لم تترك فينا نفس الحماس والأثر المبهج الذي تركته فينا دراسة المذاهب الفلسفية الكلاسيكية الأقدم.

ولكن لم يكن أستاذنا يستطيع أن يدير ظهره، للنظريات الفلسفية الموجودة في المنهج الدراسي الرسمي، ولهذا طار بأسرع ما يمكن، فوق فلسفات ماركس وإنجلز، وذلك حتى يسمح لنفسه بالعودة إلى دراسة النظريات الفلسفية الكلاسيكية، التي كانت في اعتباره هي الفلسفة الحقيقية.

تناقشنا باختصار شديد في كل هذه الأفكار وفي كل هذه الذكريات المدرسية لمدّة حوالي عشر دقائق، ونحن لا نزال نقف أمام الباب المغلق لقاعة الاجتماعات. ثم اتجه حديث أستاذي إلى مؤلّفاتي التي قرأ بعضًا منها.

قال: «أكثر كتاب أحببته في مؤلّفاتك هو (مذكّرات شيهم)، ذلك الحيوان القارض الشبيه بالخنازير، غالبًا بسبب ما وضعته فيه من أسئلة فلسفية، حتى لو لم تكن قد فعلت ذلك بوعي تام، لكن اسمح لي أن أسألك: هل يمكن للحيوان أن يصبح فيلسوفًا؟ أو السؤال بشكل آخر: هل أنت تعتقد أن مجال الفكر الفلسفي لا يقتصر على حدود إدراك العقل البشري؟ أعتقد أن هذا الموضوع كان من بين الموضوعات التي درسناها معًا».

قلت: «كنت أعتقد أنك قد أُحِلْتَ إلى التقاعد».

قال: «إن عدد الفلاسفة في بلادنا قليل جدًّا، وهو ما لا يسمح لي بالتقاعد في الوقت الحالي، ولديَّ اعتقاد أخشى أنه سيظلّ صحيحًا حتى وفاتي، يتعلّق بأن رأي أغلب الناس في مسألة دراسة الفلسفة أنها دراسة لا جدوى منها».

في لحظة افتراقنا أخرجت مظروفًا من جيبي ومددت له به يدي. ابتسم ووضعه في جيبه. هنا جاءتنا أصوات من قاعة الاجتماعات التي كان المجتمعون -وكلّهم من مدرّسي الفلسفة في

«المدارس الثانوية- يراقبوننا من خلف نوافذها المغلقة: «ونحن ألن يترك لنا أي شيء؟».

فاستدار الأستاذ نحوهم، ونظر إلى الوجوه التي تراقبه قائلًا: «إنه لم يكن تلميذًا لأحدكم، هذا هو الفرق بيني وبينكم».

ثم أخذني بين ذراعيه وهمس في أذني: «يجب أن أعود إلى الاجتماع، لقد أسعدتني زيارتك هذه جدًّا. لا تنسَ أن أغلب الفلاسفة لم يفعلوا أكثر من محاولة تفسير العالم، ولكن الدور الآن هو على الفلاسفة القادرين على تغيير العالم. قد يكون هذا هو الدرس الوحيد الذي خرجت به من فلسفة إنجلز، أما فيما يتعلّق بغيره من الفلاسفة المحدثين، فأنا أفضّل عليهم الفلاسفة القدماء الكلاسيكيين».

عاد إلى قاعة الاجتماعات، بينما اجتزنا نحن الفناء.

قال المراقب: «ماذا وضعت له في المظروف؟».

قلت: «ورقة نقدية يستطيع بها أن يحتسي كأسًا من الخمر نخب صحّتي».

قال: «لكنه لا يشرب الخمر».

قلت: «إذَنْ يستطيع على الأقل أن يشرب كأسًا من عصير الليمون».

لحظة خروجي من الباب الرئيس للمدرسة، وجدت أن وجه المراقب تبدو عليه علامات الهمّ.

قال: «هل ستعود يومًا ما إلى زيارتنا من جديد؟».

قلت: «أكيد».

قال: «متى؟ بعد مرور ثلاثة وعشرين عامًا جديدة؟ من المحتمل أن نكون جميعًا بين الموتى، بل من المحتمل ألا تعود هناك (ثانوية أوجانيور) على الإطلاق».

قلت دون اقتناع: «سأحاول أن أعود إلى هنا مرّة أخرى قبل مرور ثلاثة وعشرين عامًا».

(22)

الفكّ المفترس

من النادر جدًّا أن يذهب كونغوليون إلى هذا الجزء من الميناء، الذي أخاطر أنا الآن بارتياده. إن صديق طفولتي بلاسيد هو الذي وافق بطلب مني على اصطحابي إلى هناك. ثم أثناء مشينا فضّل أن يتراجع إلى مسافة بعيدة خلفي.

صاح: «لا تذهب إلى أبعد من ذلك».

وقد كرّر هذه العبارة عدّة مرّات، وفي كلّ مرة تزيد نبرة الارتياع، خاصة عندما قادتني خطواتي إلى الاقتراب من مياه المحيط، عند حافة رصيف الميناء. كان في سيّارته خلال طريقنا الطويل من المدينة إلى الميناء يذكّرني بضرورة الاحتياط والحذر، ثم وجّه إليَّ مجموعة من النصائح المباشرة.

قال: «يمكننا أن نجوب رصيف الميناء هذا ذهابًا وإيابًا كما تشاء، بشرط وحيد هو ألا نقترب من ذلك المكان الملعون، حيث يوجد الكثير من الصخور، التي كانت مسرحًا متكرِّرا لبعض الأحداث الغريبة، وأنا ليست لديَّ رغبة في أن تحدث لي أنا شخصيًّا أو لك مثل تلك الأحداث الغريبة».

قلت في نفسي إنه يشير إلى ذلك الوقت الذي كنا نغامر فيه، بالذهاب إلى أقصى حدود الشاطئ المهجور، على أمل العثور على إحدى جنّيّات البحر، من ذوات النصف العلوي الآدمي، والنصف السفلي الشبيه بجذع السمكة وذيلها، وهنّ حسب المعتقدات الشعبية من بنات الجنّيّة الشهيرة (مامي واتا). كانت الأسطورة تقول إن مَن يعثر على المشط الذي تمشّط به شَعرها يصبح رجلًا غنيًّا.

وقد ظلّ الاعتقاد سائدًا حتى الآن، أن كل كونغولي من سكّان (الرأس الأسود)، نجح في الحصول على ثروة، كان ذلك بفضل عثوره على مشط الجنّية. لذلك اعتاد سكّان الأحياء الشعبية الفقيرة التي تقع قريبًا من الميناء المجيء إلى هنا فجر كلّ يوم؛ للبحث عن ذلك المشط الشهير، في الأماكن التي أشيع العثور عليه فيها.

من الغريب أن هناك بعض الرجال الموثوق في ذكائهم ونزاهتهم، من سكّان تلك الأحياء الفقيرة، قد قدّموا جميعًا أوصافًا متشابهة لهذه الجنّية، مع ذكر الكثير من التفاصيل الدقيقة، كما

لو أنهم كانوا فعلًا قد رأوها، إلا أنهم لم يتّفقوا على لون بشرتها، فقال بعضهم إنها شقراء، والبعض الآخر إنها سوداء، والبعض الثالث إنها قمحية اللون.

قال البعض إنها ضخمة الجسم جدًّا إلى حدّ العملقة، وإنها تسكن حفرة عميقة في قاع المحيط، تخرج منها راغبة في زيارة الأحياء، فتقترب من رصيف الميناء في مكان ليست به سفن، لتستريح قليلًا من معاناتها مع التيّارات البحرية.

قال البعض إن نظراتها المتّجهة إلى الشاطئ، تنبعث منها أضواء تشبه الكشّافات الكهربائية، القادرة على إضاءة الشاطئ، ثم عند وصولها إلى الشاطئ تبدأ في تمشيط شَعرها، وهنا تتجه نظراتها لتضيء الأماكن إلى جوارها.

السؤال هو في أي ساعة من ساعات الليل ينبغي المجيء إلى هذا الجزء من الشاطئ، حتى يكون هناك احتمال أكبر لرؤيتها؟ قال البعض عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلًا، إلا أن هناك آراء أخرى تقترح الثانية أو الثالثة صباحًا. إلا أن أغلب الرجال يخافون المجيء إلى هنا وسط هذا الظلام التام. إلا أن بلاسيد صديقي لم يكن يريد أن يتحدّث معي في شأن (مامي واتا)، بل في شأن لغز آخر.

قال: «هذا المحيط يحتفظ بالكثير من الأسرار في أحشائه، وهو خطير جدًّا ولا يعرف الرحمة. هل تعرف ما السر في ملوحة مياهه؟ إنها بسبب الدموع التي سالت من أعين أجدادنا، أثناء عمليات ترحيلهم للعمل كعبيد لدى البيض».

كنا بعد أن دخلنا من البوّابة الرئيسة للميناء، وركنَّا السيّارة في موقف السيّارات، بدت عليه ملامح القلق.

قال: «هذا اليوم هو اختيار سيئ للحضور إلى هنا، والتسكّع إلى جوار مياه المحيط، فليس هناك أي شخص في مجال رؤيتنا، كما أن كلّ هذه السفن المظلمة تشبه الأشباح التي تراقبنا. أنا لن أذهب معك إلى منطقة الصخور».

رغم ذلك تبعني بلاسيد طائعًا إلى منطقة الصخور، وكنت أفكّر أثناء اقترابنا منها، في إمكانية تحويل هذه المنطقة إلى مزار سياحي، حيث يمكن للسيّاح مشاهدة منظر غروب الشمس في مياه المحيط، عندما لاحظت أننا صعدنا أعلى صخرة كانت ترتطم بها الأمواج، ثمّ حدث فجأة أن سكنت

الأمواج عن ضرب الصخرة. لاحظت أن بلاسيد قد غادر الصخرة وعاد إلى رصيف الميناء، ثم بدأ في استعمال ذراعيه كأنه يدعوني إلى ترك الصخرة والعودة معه إلى الرصيف.

هنا جاء طير من فصيلة البجع، وحطّ على الصخرة إلى جواري، فأدرت رأسي نحوه لأتأمّله، وفجأة في لمح البصر، جاءت موجة هائلة لا أعرف من أين، وضربت الصخرة فطارت البجعة، وابتلّت ثيابي. من بعيد رأيت موجة أخرى أكبر حجمًا قادمة في اتجاه نفس الصخرة حيث أقف، فتراجعت بسرعة لأعود إلى جوار صديقي على الرصيف، في نفس اللحظة التي ضربت فيها الموجة الصخرة. ظهرت ملامح هلع تجمّدت على وجه بلاسيد.

قال: «هل رأيت؟ هل تصدّق الآن ما سبق أن قلته لك؟ هل تعتقد أن ما يحدث أمامك الآن هو شيء طبيعي؟ ظهور هاتين الموجتين هكذا فجأة في نفس لحظة وقوفك على الصخرة؟ لم أرغب في أن أذكر لك أن الناس هنا يسمّون هذه الصخور (مملكة الظلمات)؛ وذلك لأن جثث الغرقى لا تظهر في أي مكان على الشاطئ إلا هنا، فأنت يمكنك أن تموت غريقًا في أي مكان من هذا المحيط الشاسع، إلا أن جثّتك لا تعود إلى الظهور إلا هنا، لعلّك فهمت الآن السبب في رفضي الاقتراب من هنا، فمهما بدا لك البحر هادئًا مسالمًا، إلا أنه بمجرد اقتراب شخص ما من هذه الصخور، ينقلب حال المحيط إلى الصخب، فيرسل موجاته الواحدة تلو الأخرى، حتى يتمكن من التخلّص من هذا الدخيل بابتلاعه، وعادةً ما تكون الموجة الثالثة بارتفاع بناية من ستّة طوابق».

عادت البجعة للطيران فوق رؤوسنا، وتابعها بلاسيد بعينيه، ثم صرّح بهذا التعليق الذي حوّلني إلى قطعة من الثلج: «هذه الطيور تعمل بالتعاون مع جنّيات البحر، فهذه البجعة قد جاءت نحوك حتى تعرف الجنّيات مَن المقصود بالقتل، ثم إن ظهور البجع هو كذلك لإلهاء الناس عن ملاحظة الموجات القاتلة، ولعلّك لاحظت ملامح خيبة الأمل على وجه البجعة التي مرّت فوق رؤوسنا؛ لأنها لم تستطع تحقيق الغرض من مهمّتها»

في المساء التالي ذهبت إلى بناية المعهد الفرنسي، وأنا لا أستطيع أن أنسى هاتين الموجتين العاليتين، اللتين ظهرتا فجأة في مياه المحيط الهادئة، وتساءلت ماذا كان من الممكن أن يحدث لي مع الموجة الثالثة لو كنت ظللت واقفًا في مكاني فوق الصخرة؟

ليست لديَّ في ذاكرة طفولتي ومراهقتي ما يدلّ على أنه قد سبق لي أن أتيت إلى هذا المكان، لأسبح مع الصبية في محيط الميناء أو الشاطئ المهجور، فأنا لم أكن أغامر بالمجيء إلى هنا مع

الصبية الآخرين، إلا بأمل العودة إلى أمي ومعي بعض السردين، الذي قد يعطيه لنا بعض الصيّادين مقابل مساعدتهم في تفريغ مراكبهم التي يعودون بها من رحلات الصيد وهي ممتلئة بالأسماك.

كان هناك هدف آخر سرّي وغير معلن عنه، وهو الأمل في رؤية بعض النساء من البيض، وهنّ يسبحن في الماء عاريات الصدور على عادة الأوروبيّات، أو يعرضن أجسادهنّ على الرمال في طقس (حمّام الشمس)، وقد تخفّفن تمامًا من ثيابهنّ، غير عابئات بنظرات المراهقين. كان الفضول وحبّ الاستطلاع، الذي قد يصل بنا إلى حدّ الوسواس، يدور أساسًا حول رغبتنا، مهما كلّفنا هذا الأمر، في معرفة إن كان شعر العانة، هو من نفس لون شَعر الرأس؟ فإن كانت السيدة شقراء شَعر الرأس، فهل شَعر عانتها أصفر اللون؟ وإن كانت حمراء شَعر الرأس فهل شَعر عانتها أحمر اللون؟

كنّا ننصت إلى الشباب الأكبر سنًّا، القادر على الدخول في علاقات جنسية مع بعض السيّدات، وهم يتحدّثون عن ترك السيّدة لشَعر عانتها، ينمو حول وداخل فتحة التناسل، وغالبًا كانوا يقصدون السيّدات من السود؛ وذلك لأن السيّدات من البيض اعتدن على نزع الشَّعر من جميع أجزاء أجسادهنّ، لدرجة أنه حتى يتمكن الشخص من رؤية لون ما تبقّى من شَعر عانتها، عليه أن يقترب منها اقترابًا خطيرًا، قد يحفّز الواحدة منهنّ على الاستعانة بحرّاس الشواطئ في طردنا منها.

فإذا كنت لم أسبح في مياه المحيط وأنا طفل ومراهق، فإن ذلك كان استجابة لنداء السحرة الشعبيين، الذين كانوا ينصحون الشباب بعدم السباحة في المحيط، بغرض الاحتفاظ بكل الطاقة الجسمانية، وعدم تبديدها في السباحة، التي كانوا يعتبرونها نشاطًا لا يجدي. كان من عادة الشباب في زمن طفولتي، الاستعانة بالسحرة الشعبيين في الحصول على أحجبة وتمائم وأدعية وتعاويذ، تسمح للشاب بالتغلّب على أقرانه في حالة الاشتباكات البدنية. وقد شاع عن هذه الأحجبة السحرية، قدرتها على تحويل خصمك إلى عدم، فإذا أنت ضربت رأس خصمك برأسك، دخل في حالة من التشويش الذهني، تجعله ينشغل بجمع القمامة المتناثرة في المكان، بدلًا من الانشغال بردّ الضربة التي تلقّاها منك.

منذ سن الرابعة عشرة كان كلّ الصبية الذين عرفتهم، يحاولون تجربة مدى كفاءة هذه الأحجبة. كان يكفي الذهاب إلى أحد السحرة الشعبيين، ومعك في يدك زجاجة بها لتر من نبيذ

النخيل، أو زجاجة بها لتر من زيوت النخيل، أو بعض البهارات، أو جوز الهند، أو علبة أمواس فهذه كانت هي الهدايا المقبولة، مقابل حصولك منه على الأحجبة والتمائم، *Gilette* جيليت والأدعية والتعاويذ، على أن يشعل لك بعض الشموع، ويمارس عليك (طقس الأمواس).

إذ يأخذ أحد الأمواس ويصنع به على قبضتي يديك، ثلاثة جروح قطعية سطحية، عندما تنزف يدهنها بمسحوق أسود اللون لاسع للجروح، على أن تقاوم الرغبة في الصراخ؛ لأن هذا هو الدليل على أن القوّة المرغوب في الحصول عليها قد دخلت إلى جسدك ولن تغادره، وسيعطيك الساحر كوبًا من النبيذ، وبعض بذور نبات الكولا لتمضغها، فيخفّ إحساسك بالألم.

بعد ذلك ينصت الصبي بانتباه إلى نصائح الساحر مثل: عدم النظر أبدًا إلى ما هو تحت فراش النوم، وعند مغادرة فراش النوم يجب وضع القدم اليمنى على الأرض قبل القدم اليسرى. ثم بغرض الاحتفاظ بالطاقة الجسمانية، عدم الاقتراب من النساء، وعدم الذهاب للسباحة في مياه المحيط.

ثم في نهاية اللقاء يجري الساحر اختبارًا للتأكّد من حصولك على القوّة المطلوبة، فيبدأ أولًا بتوجيه عدد من اللكمات إلى صدغيك، فتشعر كأن قوّة غريبة تتخلّل خلايا جسدك، ثم تشعر برعدة تجتاح أعصابك، ثم يقدّم إليك زجاجة خالية، يطلب منك أن تحطّمها بنفسك على رأسك، والدليل على النجاح في التحوّل إلى كائن جديد، هو أنك تنجح في كسر هذه الزجاجة على رأسك، دون أن تحدث أي جروح، أو تترك على الرأس أي خدوش.

فيما بعد يمكنك الذهاب إلى الشوارع، والاحتكاك بشباب في مثل سنّك، ومحاولة استفزازهم للدخول في عراك معهم؛ لتتأكّد من كونك قد أصبحت كائنًا جديدًا، من نفس نوعية طرزان المشهود له في الغابات والأدغال.

كان من بين المعتقدات السائدة أن سحرة المنطقة يجتمعون كلّهم مرّة واحدة في العام عند صخور (مملكة الظلمات)؛ لكتابة قائمة بأسماء كل من سيموتون خلال العام. هؤلاء السحرة لديهم بعد ذلك القدرة على التحوّل إلى حيوانات بحرية، تذهب إلى أعماق المحيط، وتلتهم كل جثث الغرقى التي لم تتمكّن من الطفو فوق الماء.

كنا نجد في صفحات الحوادث، في جرائدنا المحلية في ذلك الوقت، الأخبار الخاصة بالعثور على أعداد كبيرة من الموتى غرقًا، إلى جوار الأدلّة التي تعثر عليها تحرّيات الشرطة، التي تثبت

أن بعض هؤلاء الموتى غرقًا قد قُتلوا بواسطة أفراد من عائلاتهم الكبيرة، وألقيت جثثهم في المحيط، ضمن طقوس قبائلية تنظر إليهم كقرابين تقدّم إلى آلهة المحيط، حتى يترك هؤلاء الآلهة موتى العائلات الكبيرة آمنين في قبورهم. ومن المعروف أن أغلب هذه القرابين البشرية كانت من نوع البشر (الأمهق/ عدوّ الشمس).

ساد الاعتقاد في أفريقيا أن هذا النوع (الأمهق) من البشر لديه قدرات خاصة تمكّنه من الحياة بعد الموت، حتى لو ألقيت جثّته في أعماق المحيط. كما ساد الاعتقاد في قدرة الفتيات من هذا النوع (الأمهق) على إعادة الحياة إلى عضو ذكري مات جنسيًّا. وبسبب هذا التواطؤ المجتمعي ضد هذا النوع من البشر، كنت في طفولتي عندما أرى أحدهم، أتخيّل على الفور مستقبله كجثّة طافية فوق سطح مياه المحيط، أو راقدة في أعماقه، أو كجثّة رمتها الأمواج فوق رمال الشاطئ المهجور.

كذلك كان أغلب الدجّالين ينفذون من هذه الثغرة، إذ كانت طقوس التكفير عن الذنوب تستلزم ضرورة تطبيق أحد الطقوس على شخص من النوع الأمهق، كأن يلقى به في مياه المحيط. ثم تأتي التبريرات الشعبية الساذجة، بل المجرمة، لتقول إن الأمهق هو إنسان أراد الخالق له أن يكون أبيض البشرة، إلا أن الخالق أرسله إلى المكان الخطأ وهو أفريقيا، لذلك يلقيهم الأفارقة في مياه المحيط، وهم لا يقصدون بهم شرًّا، بل هم يساعدونهم على الذهاب عن طريق المياه إلى ذويهم في أوروبا.

لكل هذا كان الآباء الذين ابتلتهم الآلهة بابن أمهق، يفضّلون أن يحبسوه في المنزل لأطول فترة ممكنة؛ لأنه لا يشعر بالأمان في أي مكان، وليس من الضرورة أن يذهب إلى شواطئ المحيط، حتى يتعرّض للاعتداء عليه، بل من الممكن جدًّا أن يعتدي عليه زملاؤه في المدرسة، أو رفقاؤه في الشارع، بل إن أطفال الأحياء الشعبية اعتادوا على قذف الحجارة على الطفل الأمهق إذا ظهر أمامهم.

لعلّي هنا أصل إلى نتيجة ليست اعتباطية، وهي أن الإنسان الأفريقي جامد المشاعر، خاصة لو ذكرت لكم أن مياه المحيط عند الشاطئ المهجور، كانت تبتلع نوعًا آخر من البشر، يلقيه ذووه فيه دون أدنى إحساس بالشفقة، وهم البشر المصابون بالشلل. يلقيهم ذووهم في المياه ليلًا، فتغوص الجثث في الأعماق، وتعيد مياه المحيط الكرسي ذا العجلتين، فيأتي أحد الأنذال لسرقته والذهاب به لبيعه في الأسواق، فيشتريه منه أحد الأنذال دون أن يسأله عن المصدر الذي أتى به

منه، وبالنظر إلى العدد الهائل المثير للدهشة من العجزة المشلولين، الذين يزحفون على مؤخّراتهم على أرض شوارع مدننا، وهم يجرّون أقدامهم المشلولة خلفهم، ليس من الصعب على أحد الأنذال أن يجد مَن يشتري منه كرسيًّا من هذا النوع.

(23)

اللوحة الفنّية

عند صعود شارع (الجنرال ديجول) الواقع في وسط مدينة (الرأس الأسود)، يصل بنا الطريق إلى ميدان (كاساي)، حيث يوجد في وسط الميدان نصب تذكاري عليه لوحة معلّقة، بها نصّ بليغ لتمجيد ذكرى الجنود الكونغوليين، الذين اشتركوا في محاولة الدفاع عن فرنسا، أثناء الغزو الألماني لها، بين 18 يونيو و28 أغسطس 1940. وجود هذه اللوحة في هذا المكان، يعني أن الكونغو لا يزال يفخر بماضيه كمستعمرة فرنسية.

هذا الميدان في الحقيقة يفصل بين قسمين من المدينة، أحدهما كان مخصَّصا لسكن البيض، والآخر كان مخصَّصا لسكن السود. وجود هذه اللوحة هنا إذَنْ لا يزال في اعتقادي يضع خطًّا فاصلًا بين هذين الجزأين من المدينة. في الزمن الاستعماري كان المئات من سكّان عزب الصفيح، القادمين من القسم المخصّص لسكن السود، يعبرون هذا الميدان في الصباح الباكر، للذهاب إلى المدينة الأوروبية في القسم المخصّص لسكن البيض، حيث يبيعون طاقاتهم الجسمانية، للعمل كخدم في المنازل أو المطابخ، أو كبستانيين في الحدائق.

إن الروائي الكاميروني إيزا بوتو هو لا شكّ أحد أفضل الروائيين الأفارقة السود الناطقين بالفرنسية، في وصف المدينة الأوروبية التي عاش فيها المستعمر الأبيض في أفريقيا. ففي روايته (المدينة القاسية) كان الجزء الشمالي من مدينة (تانجا، يُطلق عليه اسم (فرنسا الصغيرة)، كأنه قد جاء طائرًا في الهواء مباشرة من فرنسا، إلى أرض المجاهل الاستوائية الأفريقية. كان الفرق شاسعًا بين الجانب الأوروبي، حيث البنايات الشاهقة الارتفاع، والشوارع التي تنمو على جانبيها أحواض الزهور، وبين الجانب الأفريقي حيث يقع الحيّ جنوب المدينة الخاص بالسكان السود، غارقًا في بؤس وعفن المياه الآسنة، دون كهرباء ليلًا مما يؤدّي إلى انتشار الفزع واللصوصية.

ولأن ميدان وسط مدينة (الرأس الأسود)، لا يزال يفخر بماضيه كمستعمرة فرنسية، فلا عجب في وجود المركز الثقافي الفرنسي على بعد خطوتين من الميدان، وقد غيّر الفرنسيون اسم المركز الثقافي الفرنسي، إلى المعهد الفرنسي، ولا يعلم الكونغوليون السبب في هذا التغيير؛ فالاسم القديم لا يزال عالقًا في الذاكرة. تتكوّن بناية هذا المعهد من طابقين، توجد في أحدهما

أربع شقق منفصلة، واحدة مخصّصة لمدير المعهد، والثلاث شقق الأخرى مخصّصة لضيوف المعهد من فنّانين وأدباء، يتطوّعون بالمجيء من جميع أنحاء العالم، بدعوة من هذا المعهد، إلى هذه المدينة الأفريقية الكونغولية؛ في محاولة لنشر الثقافة والفنّ.

أقمت عشرة أيام في واحدة من تلك الشقق الثلاث، واهتممت ببعض الأعمال الفنية التشكيلية لفنّانين كونغوليين معلّقة على جدران قاعة الاستقبال في الشقّة. وقد بحثت بلا جدوى عن أي توقيع لأي فنّان على أي لوحة منها فلم أجد. يبدو أن الجمهور الكونغولي يجهل أو يتجاهل موهبة هؤلاء الفنّانين. واحدة من هذه اللوحات لفتت انتباهي وتساؤلاتي. هي تمثّل امرأة شابة ذات نظرة كابية منطفئة، مما يُضفي عليها لمحة من الحزن.

كان انطباعي الأول عن هذه اللوحة أنها مقبضة، لذلك رغبت في إزاحتها من أمام عينيَّ خلال فترة إقامتي، ثم أجّلت تنفيذ هذا القرار يومًا بعد يوم، لرغبتي في عدم بذل أي مجهود جسماني بلا داعٍ. ومن أجل الهروب من نظرتها، لم أعد أدير وجهي ناحية اليمين، كلما جلست على الكرسي المريح للكتابة. بل حدث أن أدرت هذا الكرسي، بحيث تكون عيناها موجّهتين إلى ظهري، هنا همس صوت في أذني يقول لي إنها قادرة على أن تقرأ ما أكتبه، فعيناها تمرّان فوق كتفي، وأن هذا هو السبب في عدم قدرتي على التركيز فيما أكتبه. كأنها كانت تعترض على هذه العملية التي أسميتها (جرد محتويات الماضي).

إنها تجهل كلّ شيء عن طفولتي، وعن أنني أكبر منها سنًّا وخبرة بالحياة، رغم ما حاول راسمها أن يضيفه إلى سنّها، بالإضافة إلى ما تُوحي به خلفية اللوحة من انتمائها إلى أزمنة أكثر قدمًا من زمننا الحالي. لم أعد أرغب في إزاحتها، تخلّصت من هذا الوسواس، فهي كانت هنا وستظلّ هنا، بينما أنا لست إلا عابر سبيل. وقد أكّد لي مدير المعهد الفرنسي إيريك ميشليه أنه وجد هذه اللوحة في نفس هذا المكان، منذ أن استلم عمله هنا، ثم بنبرة ساخرة قال: «إنها تقريبًا حارسة الشقّة، فهي قد رأت كلّ شيء حدث هنا في هذه الشقّة منذ سنوات بعيدة، لكنها لم تبح أبدًا بأي أسرار شخصية لأيّ من عشرات الضيوف الذين أقاموا هنا».

لاحظت أن فتح باب الشقّة يضايقها فتعقد حاجبيها، كأنها تكره الأضواء والأصوات التي تدخل من باب الشقّة المفتوح، لذلك كنت أهتمّ بسرعة إغلاق باب الشقة خلفي عند دخولي، حتى تحتفظ هذه المرأة بالصورة التي تودّ أن نراها فيها، صورة امرأة وحيدة متفرّدة. ثم إنها كانت تستخدم التجاعيد التي تظهر عند زوايا العينين والشفتين، في رسم تعبير معتم على وجهها. أما خلفية

الصورة، التي على ما يبدو لم يكن الفنّان قد انتهى منها، ترك فيها بعض الطيور دون أن يتمّ رسم أجنحتها، والسماء تركت في تخطيط مبدئي.

هذه اللوحة جعلتني أفكّر أحيانًا في فيلم الرسوم المتحرّكة المعنون (اللوحة) للمخرج جان فرنسوا لاجيوني، وفيه نرى رسَّاما ترك لوحة دون أن يتمّها، ونرى قصرًا تحيط به غابة غريبة الشكل، ونرى كذلك ثلاثة أنواع من الأشخاص:

أولًا: الأبطال الذين يقفون في شرفة القصر، وقد أتمّ الرسّام رسمهم على أكمل وجه.

ثانيًا: الشخصيّات الهاربة من القصر، والمختفية داخل أغصان الشجر، وقد تركهم الرسّام دون تفاصيل، إذ ينقص من كلّ منهم شيء ما.

ثالثًا: شخصيّات الغابة التي لا تنتمي إلى عالم شخصيّات القصر، وقد تركهم الرسّام في شكل خطوط مبدئية.

- في فيلم (اللوحة) يقع صراع بين هذه الأنواع الثلاثة من الشخصيّات، فيتمكّن الأبطال من أسر الشخصيّات الهاربة.

- في فيلم (اللوحة) نجد شخصيّات (رامو) و(لولا) و(بلوم) الذين يرحلون في مغامرة للبحث عن الرسّام، حتى العثور عليه ومطالبته بإنجاز عمله.

- فالرسّام وحده هو الذي يستطيع، حلّ مشاكل الصراعات القائمة بين شخصيّات الفيلم.

أما أنا فلم أفكّر في مغامرة البحث عن الرسّام الكونغولي؛ لأنني اكتفيت بما قاله لي مدير المعهد من إنه لا داعيَ لإثارة الزوابع في الأشياء المستقرّة.

(24)

بيت الحكايات

في كلّ مرة صعدت سلالم المعهد الفرنسي، تذكّرت أنني أتيت إلى هنا للمرّة الأولى عندما كنت في سنّ الثانية عشرة، حين لم يكن في الطابق العلوي إلا المكتبة، وفيها القرّاء القادمون من أكثر الأحياء عزلة في (الرأس الأسود). منذ ذلك الوقت أدخلت تعديلات كثيرة على المبنى، فلم أعد أجد نفسي فيه، إذ اختفت قاعة العروض الفنية من المبنى، وظهرت في الفناء الخلفي للمعهد. ثم هناك مقهى إنترنت تمّ إدخاله على الطابق الأرضي، يحضر إليه الشباب صغير السنّ منذ الصباح الباكر، ويبقى فيه إلى أن تحين ساعة الإغلاق.

في الزمن القديم كانت مكتبة القراءة في هذا المعهد هي الوحيدة من نوعها في جميع أنحاء المدينة، وكان قسم أدب الشباب بها هو أكثر أقسام المكتبة التي يقبل عليها الشباب. كنت أتخذ لنفسي ركنًا إلى جوار النافذة، ثم أغرق في مطالعة إحدى الحكايات المصوّرة للأطفال والشبيبة، التي كان أبطالها المعزولون في هذه القاعة لا يستطيعون أبدًا مغادرة المكان، والذهاب للقيام بمغامرات أخرى يفتنون بها شبابًا آخرين في دول أخرى؛ لأن كلّ شاب ينتهي هنا من مطالعة إحدى هذه الحكايات، كان هناك شاب آخر يستلمها هنا للتوّ منه، فهم بالنسبة إلينا كانوا أحياءً أمامنا من لحم ودمّ مثلنا.

كنا عندما ندخل في باحة هذا المعبد، داخل حرم هذا المكان المقدّس، نشعر أننا ننفصل عن مدينتنا (الرأس الأسود)، ونذهب في رحلة طويلة مع الخيالات التي تأسر عقولنا، وكنا نقتبس منها أحيانًا أسماء هؤلاء الأبطال ونطلقها على أنفسنا، ونحاول أن نتصرّف مثلهم.

كان هناك مثلًا سوستان وهو شاب رياضي بعضلات قويّة، يقيم في (حيّ ركس)، الذي من شدّة إعجابه بطرزان، أطلق على نفسه هذا اللقب، لكننا بخلنا عليه به؛ لأنه كلما حاول أن يقفز من أغصان شجرة إلى أغصان شجرة أخرى مجاورة فقد اتزانه وسقط على الأرض وأُصيب بالعرج لبضعة أيام.

أما البطل زيمبلا فكان الأقرب إلى قلوبنا من طرزان، فزيمبلا أفريقي أسود مثلنا، في حين كان طرزان أوربي أبيض، لذلك كان زيمبلا أكثر إفريقية من طرزان، رغم انتماء كليهما إلى الغابات الأفريقية. وزيمبلا هو أيضًا أكثر قربًا إلى قلوبنا من (تان تان)، ومن (بليك الصخرة). كانت

؛ لأنه كان طفلًا أسودYeye قلوبنا تحنّ إلى أصدقاء زيمبلا وتضعف أمامهم، خاصة (ييه ييه) مثلنا، وأقرب هذه المجموعة سنًّا إلينا، لذلك لم نكن نرغب أبدًا في أن يتعرّض لمشكلة حقيقية.

أحد أفراد هذه المجموعة كان يُدعى (الساحر راسموس)، وكان فشله أمام حشد في الحصول على الأثر المطلوب لأفعاله السحرية، يجعلنا ننفجر في الضحك ساخرين منه، لكننا في داخل قلوبنا كنا نتمنّى أن يصبح ذات يوم، أفضل سحرة الأرض على الإطلاق.

وكان هناك من بين أصدقاء زيمبلا توجد بعض الحيوانات، وهو ما كان يثلج صدورنا؛ لأن معتقداتنا الأفريقية تقول إن لكل حيوان متوحّش، شخصية ذات عقل وقلب، وإن الحيوان هو الأصل العرقي الذي جاء منه النوع البشري، وإن لكل إنسان يعيش في المدن أو القرى، يوجد قرين حيواني يعيش في الغابات.

أما حيوان الكانجرو الذي كان اسمه بيتيولا، فكان يدهشنا جدًّا؛ لأنه ليس من بين الحيوانات التي تعيش في الغابات الأفريقية، بل إنه يأتي من قارة أخرى بعيدة جدًّا عن قارتنا، لا نستطيع أن نحدّد بدقّة موقعها على خريطة العالم، المعلّقة على جدار فصلنا. بيتيولا هذا كان حيوانًا نباتيًّا من آكلي العشب، وهو ما جعله في نظرنا ألطف من الحيوانات من آكلي اللحوم مثل الأسد والنمر.

كان الأسد (بوانا) يخيفنا طبعًا، رغم أنه بدا لنا أقلّ شرًّا من الأسود التي تظهر في حكاياتنا الشعبية، وتشتهر بقدرتها على التهام الأطفال، حتى يتمكّن أحد أصغر هؤلاء الأطفال بالحيلة من قتله. نحن نعثر على الأسد (بوانا) كذلك في قصص طرزان. ومن الغريب ملاحظة أن هذه الكلمة (بوانا) في اللغات السواحيلية تعني السيّد الآمر، في حين أنها في اللغات الكونغولية تعني الخاضع الذليل.

كنت أجهل أننا عندما نكون في مكتبة، فإننا نقوم باختيار الكتب التي نقرؤها وفقًا لحالاتنا المزاجية، حتى لو بدت هذه الاختيارات عشوائية، أما أنا فعندما بدأت القراءة في كلاسيكيات الأدب الفرنسي، قرّرت اختيار أسلوب الترتيب الهجائي الألف بائي. لذلك بدأت بحرف (آ) A، وكان أول من قرأت له هو آلان فورنييه، بروايته (مون الكبير)، ثم آنوي بمسرحيته (أنتيجون)، ثم آبولينار الذي لم أتوقّف كثيرًا عند قصائده إلا عند قصيدته (فوق جسر ميرابو)، كما فعلت مع آراجون الذي لم أهتم إلا بقصيدته (أعين إلزا). ثم عبرت سريعًا فوق أعمال أنطوان آرتو وأودو مارجريت، لأصل سريعًا إلى إيميه مارسيل لأقرأ (أقاصيص القطّة المعلّقة)، وقد استثارت

عواطفي قصّة تلك القطّة القادرة على إسقاط المطر، وبقيت لمدّة طويلة معجبًا بشخصية (جاروجارو) الذي كان قادرًا على اختراق الحوائط.

وهكذا أنهيت سريعًا حرف الألف حتى لا أتأخّر عن الدخول في حرف الباء. حيث كان ينتظرني بلزاك، الذي تشغل رواياته أكبر حيّز متاح لمؤلّف واحد على أرفف المكتبة. بهذا المعدّل في القراءة، لم يكن مقدَّرا لي على الإطلاق، الوصول إلى آخر حرف في الأبجدية الفرنسية، وهو حرف z، حيث ينتظرني زولا، إلَّا إذا استأنفت من جديد القفز فوق بعض مؤلّفات بعض الأدباء.

في كلّ مرّة كنت أرى إحدى روايات زولا في يدّ أحد قرّاء المكتبة، كنت أتساءل كيف تسنّى له إنهاء مؤلّفات كل الأدباء الآخرين ليصل في نهاية المطاف إلى زولا؟ لم أدرك أن تلك الطريقة الأبجدية الألف بائية كانت تخصّني أنا وحدي. ولأطمئن نفسي كنت أقول إن مثل هذا القارئ لزولا، لا شكّ في أنه قارئ مخادع، قفز حتمًا فوق العديد من المؤلّفين، وأنه يمسك بروايات زولا في يده، لا لشيء إلا ليتفاخر بها أمام أعين الفتيات المنبهرات. وهكذا حدث أنني طالما بقيت وحدي في المكتبة، كنت أقرأ في كتب مثل (أقاصيص القطّة المعلّقة)، أما بمجرّد ظهور الفتيات في المكان، كنت أمدّ يدي لأمسك برواية (جرمينال) لزولا، محاولًا أن أعطي الانطباع بأنني مستغرق تمامًا في قراءة هذه الرواية الجادة.

لاحقًا عندما أقمت في مدينة (نانت) بشمال غرب فرنسا لاستئناف دراستي الجامعية في كلية الحقوق، وقعت بالصدفة على البرنامج التلفزيوني (أبوستروف) *Apostrophe*، للمقدّم والمعدّ برنار **Pivot**، وهو برنامج ثقافي أدبي، قفزت في مكاني ذات مرّة عندما وجدت أنه يستضيف بيفو الذي سبق أن قرأت له رواية (رأس كلب)، وهي رواية عن صبي كان له جان ديتور *Dutourd*، رأس قريب الشبه من رأس كلب، بأذنين طويلتين متدلّيتين، وهو ما كان قد تسبّب له في الكثير من المضايقات في المدارس، ثم في أثناء أدائه للخدمة العسكرية، وبعد ذلك في حياته الوظيفية اليومية، حتى اليوم الذي عثر فيه على الحبّ.

هنا استدرت إلى زملائي الفرنسيين في المشاهدة التلفزيونية.

قلت: «لقد قرأت هذه الرواية في أفريقيا».

سألني أحدهم مندهشًا: «هل كانت هذه الرواية ضمن البرنامج المدرسي للأدب الفرنسي في أفريقيا؟».

قلت: «لا. لكني قرأتها في مكتبة المركز الثقافي الفرنسي في (الرأس الأسود)، حيث يجد المكان اللائق به».

قال: «ما هذا المكان اللائق به؟».

قلت: «كانت روايته موضوعة بين روايات مؤلّفين كبار، تبدأ أسماؤهم كلّهم بحرف الدال من أمثال دوديه/ ألفونس - ديدرو/ دنيس - وديماس/ ألكسندر».

وبما أنَّ هذا الزميل الفرنسي لم يفهم ما أقصده، فقد عدت أتسلّح بصمتي، وبغطاء السلحفاة الذي أختبئ تحته. هكذا لم أرد أن أستطرد في كلامي؛ لأشرح له كيف أنني قرأت هذه المؤلّفات، وفقًا للترتيب الأبجدي لأسماء مؤلّفيها. هكذا انقطع الحوار مع زميلي، وهو ما مكّنني بالتالي من التركيز في الحوار الدائر بين مقدّم البرنامج والمؤلّف، الذي كان يتحدّث بحماس الشباب عن أحدث مؤلّفاته. كنت لأول على الإطلاق مرّة أراه، خاصة المنظر المميّز لوجهه بشاربيه البارزين وبعويناته.

(25)

وداعًا يا رفيقتي

طائرة عودتي إلى باريس ستقوم هذا المساء في الساعة الحادية عشرة. اليوم الأحد لذلك فالشوارع هادئة، والسيّارات في شارع (شارل ديجول) يقودها أصحابها ببطء وتمهّل، مع ملاحظة أن هذا الشارع خلال أيام الأسبوع يكون أكثر شوارع المدينة حركةً وازدحامًا وصخبًا. من شرفة شقّتي ألقيت نظرة أخيرة طويلة على مستشفى (أدولف سيسيه)، حتى أن قهوتي بردت دون أن أشعر. لا تزال بيانفونو تعالج هنا. لا أزال أفكّر في أنه كان ينبغي عليَّ أن أذهب لزيارتها، ولو حتى أذهب الآن في آخر لحظة، وألقي عليها تحيّة الوداع (إلى اللقاء)، أنا متأكّد من أن هذه الحركة كانت ستعجبها.

فوق سطح المستشفى هناك غرابان يتناجيان، ويتبادلان القبلات بمنقاريهما، ومن المؤكّد أن أكثرهما استثارة هو الذكر. دخلا الآن في وضع التناسل، من أجل إنجاب أطفال، يحملون نفس لون والديهما الداكن، بينما سيكون هناك أشخاص يسافرون هذا المساء إلى بلاد قد لا تشرق عليها شمس الصباح أبدًا. وبينما كنت مستمرًّا في مراقبتهما، فكّرت في كلّ الأشياء التي كان ينبغي عليَّ أن أفعلها، خلال هذه الإقامة القصيرة في بلدي الأم، ولم أتمكّن من فعلها. مثلًا مسألة الذهاب إلى مدافن (جبل كامبا)، حيث رفات أبي وأمي. هذا هو ما كان يجب على أي ابن أن يفعله، رغم أنني في الحقيقة لم أضع هذه الزيارة، ضمن قائمة الزيارات التي سبق إعدادها قبل المجيء إلى هنا.

في الحقيقة أنا أشعر كما لو أن أمي بولين وأبي روجيه معي الآن في هذه الحجرة، ولم يفارقاني أبدًا طوال أيام الإقامة. هما يريان ما أكتبه، ويصححانه لي كلما أخطأت، أو كلما انحرفت عن المعنى المقصود، همسا في أذني بين وقت وآخر. أحاول أن أبرّر لنفسي تصرّفي بعدم الذهاب إلى المدافن، بحجّة أنني إذا كنت لم أزر إلا قبرَي أمي وأبي؛ لأغضب هذا كل الموتى من أقاربي الآخرين من الأعمام والعمّات والأخوال والخالات الذين لن أتمكن من زيارتهم. وهناك حجّة أخرى وهي أن الموتى لا تسعدهم زيارة أقاربهم لهم؛ لأن هذا يعكّر صفو راحتهم الأبدية.

خلال يومي الأخير في (الرأس الأسود)، فضّلت أن أبقى وحيدًا لا أقابل أحدًا، بل ظللت في شقّتي أدور في دوائر مغلقة، بين الشرفة وقاعة الاستقبال وحجرة النوم. هذا اليوم الأخير هو

أكثر يوم خلال فترة الإقامة، وضعت فيه أنفي في الأوراق التي كتبتها. شعرت بالإرهاق فغفوت قليلًا، ورأيت نفسي بجناحين أطير فوق غابة (مايومبا)، لأهبط في قرية (ليباندا) حيث اشترت أمي حقل (مانيوك) وذرة عويجة، وبنت إلى جواره بيتًا من الطين المحروق. في ذلك الحلم أخبرني الخال ماتيتيه أن الحقل والمنزل لا يزالان موجودين هناك، وأنني يجب أن أفكّر فيما سأفعله بهما، حيث إن القرية مهدّدة بالزوال، بسبب مرور طريق سريع بين (الرأس الأسود) و(برازافيل) خلالها. انغلق زجاج النافذة فجأة بفعل تيّار من الهواء، فاستيقظت قفزًا من فراشي بسبب الضجّة التي حدثت.

فوجئت عند اقترابي من لوحة المرأة الحزينة، في واحدة من مرّات اقترابي الأخيرة منها، كما لو أنه قد بدت لي ابتسامة على شفتيها، وأحسست كما لو أن ملامح وجهها تميل إلى الاسترخاء، وأضاء نور النهار عينيها. ثم حدث فجأةً أن اكتسبت المرأة الحزينة ملامح وجه أمي. في ذلك المساء قبل ذهابي إلى المطار، أردت أن أحتسي الخمر حتى أفقد الوعي لرغبتي في نسيان أنني وطأت بقدمي أرض مملكة طفولتي، وقد تساءلت بحيرة عن جدوى عودتي.

كنت قبل يومين قد تقاطع طريقي، في أحد شوارع حيّ ركس، في فترة ما بعد الظهيرة، مع شاب صغير السنّ، من الواضح أنه ينام في الشارع؛ لأنه لا مأوى له، ولكنه مع ذلك بدا سعيدًا. هل كان هذا هو شكلي في مراهقتي؟ كم حجم الشبه بيني وبينه؟ أراد أن آخذ صورة فوتوغرافية له، وهو في مملكته على هذا الرصيف، وفي يده كلّ ممتلكاته وهي كوب زجاجي.

قال: «أنا لست لا شيء، بل أنا كل شيء، فأبي هو هذا الشارع، وأمي هي هذه الشمس، فماذا تريد منّي أن أطلب أكثر من ذلك من صانع الأقدار؟ أنا اسمي يانيك، وأريد أن أكون أخاك الصغير فهل تقبلني؟».

تردّدت ولم أعرف كيف أردّ عليه، ووجدت طلبه هذا غريبًا، ثم وافقت على اعتباره أخًا أصغر لي، فلماذا كنت سأرفض وأنا طوال حياتي اكتفيت باختلاق إخوة مزيّفين؟

في المساء رتّبت أغراضي، بعد أن كنت قد فركت وهرست وجعّدت ومزّقت أوراق كرّاستي، التي سجّلت فيها ملاحظاتي طوال فترة الإقامة، ثم ألقيت بما تبقّى منها في قمامة المطبخ، ناهيك عن كمّية أوراق أخرى مفروكة مهروسة مجعّدة متناثرة، حولي في كلّ مكان في الشقّة، من الصعب عليَّ أن أنظر فيها من جديد لأعرف بأيّها أحتفظ. هل كان من الممكن أن أعيد تجميع كلّ هذه الأوراق على ما هي عليه، وأضعها في حقيبتي؟

تخيّلت رؤوس رجال الجمارك الكونغوليين، لو أنهم فتحوا حقيبتي، ووجدوا بها مثل هذه الأوراق، كانوا من المؤكّد سيعتبرونني إمّا متخلّفًا عقليًّا، أو جاسوسًا ماكرًا يحاول خداعهم بتهريب معلومات هامة على أوراق ممزّقة. هل كان يمكنهم أن يشكّوا لحظة واحدة، في أن بعض هذه الأوراق الممزّقة المشطوب عليها، يحمل ملامح من شخصيّاتهم وحيواتهم؟

رتّبت كذلك في حقيبتي مجموعة من الكتب المطبوعة على نفقة مؤلّفيها، التي أهداها لي بعض الكتّاب المحلّيّين، ولديَّ نيّة قراءتها عند عودتي إلى أوروبا، أو إلى أمريكا، فهناك دائمًا ما يثريك عند قراءة معاناة الخلق الفنّي لدى كتّاب آخرين، يأمل الواحد منهم في أن رسالته الموضوعة في زجاجة تعبر المحيط وتصل إلى هدفها، وتسعدهم مجرّد معرفة أن أعمالهم الأدبية ستأخذ معي الطائرة إلى أوروبا، أو إلى أمريكا.

لكن من ناحية أخرى فإن قراءتي لكتبهم هذه قد تقلقهم؛ لأنني سبق وأن عبّرت لبعضهم عن رأيي في أن بعض هذه الكتب لا يستحقّ أن يعبر المحيط، وأن محتوى هذه الكتب يتفكّك ويتحلّل بمجرّد عبور الحدود الكونغولية؛ لأنها كتب لا يمكن أن تقرأ إلا في البلاد التي تمّ فيها تأليفها. إنها كتب ليس لديها جوازات سفر، ولا تتحمّل التغييرات المناخية، فدرجات الحرارة في فصل الصيف في أوروبا، ليست هي نفس درجات حرارة قيظ المناطق الاستوائية.

ها هو ذا سائق السيّارة الأجرة، الذي سيأخذنا أنا وصديقتي إلى المطار، يرتّب أمتعتنا داخل حقيبة سيّارته، بينما تقوم صديقتي بالتقاط آخر الصور الفوتوغرافية، للمنطقة المحيطة ببناية المعهد الفرنسي، في هذه الساعة من الليل، ثم تأخذ مكانها إلى جواري داخل السيّارة. أنظر مرّة أخيرة إلى مصابيح شارع شارل ديجول، ذات الإضاءة الصفراء، بما يوجد حولها من حشرات تدور في الفراغ، تجذبها هذه الإضاءة الصفراء.

أشعر في أعماقي أن الرابطة بيني وبين هذه المدينة لا يمكن لها أن تنفصم؛ فهذه المدينة كانت خليلتي في فترة مراهقتي، ورغم ذلك أشعر أن هذه اللحظة قد تكون هي لحظة الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده. لم تسقط قطرة دمع واحدة من عيني، مع أن عواطفي كانت مستثارة وحادة جدا. أتساءل هل سيمكنني أن أعود مرة أخرى إلى (الرأس الأسود)؟

(26)

نهاية الكلام

وصلتني مكالمة هاتفية من جيلبرت تخبرني بوفاة الجدّة هيلينا، بعد ثلاثة أسابيع بالضبط من يوم رحيلي. إذَنْ فالمرأة العجوز كانت محقّة عندما قالت إنها تنتظر حضور امرأة بيضاء، هي رفيقتي الفرنسية في الرحلة، حتى تسلم روحها. ومثل بقيّة أفراد العائلة الكبيرة، شاركت في الاكتتاب العام من أجل دفع مصاريف الجنازة والدفن، وقد أرسلت المبلغ المطلوب مني عبر بنك الاتحاد الغربي (ويسترن يونيون)، واستلمه جيلبرت أمام شهود، ونقله إلى الأرمل العجوز جوزيف أمام شهود. وقد حدث في حالات عديدة أن تسبّبت مثل تلك الأموال المحوّلة من الخارج، في تمزيق عائلات كبيرة، فالناس لا يثقون في بعضهم، ويميلون إلى المبالغة في تقدير حجم النقود المحوّلة من أحد أفراد الأسرة المقيم خارج البلاد والتشكيك في نزاهة مستلميها. لكل ذلك تعمّد جيلبرت عندما هاتفني أن تكون المكالمة مسموعة للآخرين الموجودين حوله مع ذكر رقم المبلغ المحوّل بوضوح.

قال: «يا ابن الخال إن حولي عشرة أفراد من العائلة هم شهود عليَّ الآن، وعليك أن تذكر أمامهم المبلغ الذي حوّلته أنت واستلمته أنا، لصالح مصاريف جنازة الجدّة هيلينا».

ذكرت الرقم وكرّرته عدّة مرات بصوت واضح مرتفع، لئلَّا يظن أحد الموجودين أن جيلبرت غير أمين. بعد انتهاء المكالمة عاد إلى ذاكرتي منظر المرأة العجوز، غير القادرة على الحركة، ممدّدة الجسد على فراشها داخل ناموسيّتها، ويدها اليمنى قد قبضت بشدّة على يدي الممدودة إليها، كأن هذه اليد هي التي تربطها بالحياة. عاد جيلبرت إلى الاتصال بي هاتفيًّا في اليوم التالي على الجنازة لإبلاغي بنبأ خروج أخته التوأم بيانفونو من مستشفى (أدولف سيسيه)، وكان يبدو من كلامه كما لو أن أخته قد حقّقت انتصارًا على الموت.

قال: «يا ابن الخال أنت كما رأيت، أن أختي عندما كانت نزيلة المستشفى، كنت أنا نفسي أعاني مثلها، كما لو كنت أنا أيضًا نزيلًا في هذا المستشفى. ألم تشعر أنت نفسك بأن هناك خطرًا ما يتهدّدني؟ لقد تشاركنا أنا وهي في نفس الرَّحِم، وكنا نسبح معًا في نفس السائل الأمنيوسي. هل تعرف أن هذه هي أول مرة يدخل فيها شخص من عائلتنا إلى هذه الحجرة رقم واحد، ويخرج

منها وهو على قيد الحياة. لقد جاء عليَّ وقت كنت أستعدّ فيه للذهاب إلى كنيسة القدس الجديدة للصلاة على روح أختي... لقد رغبت فقط في أن أذكر لك هذا».